# حول الأدب في العصر السلجوقي

تأليف
الدكتور محمد ألتونجي
الأستاذ المساعد في الجامعة الليبية

منشورات
مكتبة قورينا
بنغازي - ج.ع.ل.

# حول الأدب في العصر السلجوقي

# حول الأدب في العصر السلجوقي

تأليف
**محمد ألتونجي**
دكتور في الأدب المقارن
دكتور في الأدب العباسي
أستاذ مساعد في الجامعة الليبية

منشورات
مكتبة قورينا
ص.ب ٩٥٥ - هاتف ٩٢٤٨٣
بنغازي - شارع عمر المختار
ج.ع.ل.

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

يعدّ الأدب في العصر العباسي أهمّ العصور الأدبية على الإطلاق ، لتقبّله الجديد ، وانغماسه فيه ، وتطويره الأغراض ، وتحويره لها . ولأنه يضم بين طيّات سنيهِ عدداً من الأعصر الأدبية الدسمة ، كالعصر العباسي الأول ، والعصر العباسي الثاني ، والعصر السلجوقي ، و ... وكل عصر من هذه الأعصر له مقوّماته ، ويستندُ على أسسٍ خاصة به ، وإن كان يربطه رابط عام واحد .

ولقد نشأ الأدب في العصر السلجوقي في مرحلة موحشة مظلمة ، يعزف عنها المراجعون ، ويضيع في متاهاتها المشتغلون .. فهي واسعة الأرجاء ، موحشة الأنحاء ، قليلة المادة المدروسة ، عزيزة الآراء المتجاوبة الملموسة . لذا نرى نقاد الأدب ودارسيه ، عندما يتكلمون عن الأدب العباسي ، يتوقفون وقفة طويلة ذات بال في رحاب سني العصر الأول ( الذهبي ) ويدرسون أهم ظواهره ، ويعالجونها عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية والبحتري وأبي تمام ، ثم يقفزون إلى دراسة شخصيات منفردة ( دون دراسات عامة ) في الأعصر اللاحقة ، كدراستهم للمتنبي وابن الرومي والمعري . ثم يسكتون ، ليقطعوا شوطاً بعيد المدى ، ناسين مئتين من السنين ، تمتدان من أوائل القرن الخامس إلى أواخر القرن السادس ..

ويعتبرون هذه المرحلة مرحلة غموض ، أو ركود ، أو ما يشبه ذلك .

ولا نعني بهذا القول إن شعراء عصر السلاجقة بمستوى أترابهم في العصر الأول. حاشا لله ، بل نحن نؤمن أن أولئك الأعلام سادة الأدب ، ومحطّ افتخاره ، ومعقل انطلاقه . ولكننا يجب أن نعرف هذه المرحلة التي عمّها – كما يقول النقاد – الركود والغموض . وترجع أهميتها إلى أنها مرحلة انحراف الأديب ، وتحنُّط مادة أدبه ، وإلى أنها حلْقة وصل تربط بين الأدب في عصر المماليك والأدب في العصر العباسي الذهبي . ثم إلى أنها امتداد طبيعي لما أصاب الأدب العربي من تجديد وتطوير ، وتجميد لذلك كله .

فالمرحلة مهمّة جداً للأسباب التي ذكرناها ، ولأنها توضّح ظاهرة امتداد رقعة الاسلام إلى أقصى ما وصلته في الشرق والشمال الشرقي ، وانتشار اللغة العربية انتشاراً لم يتهيأ للغةٍ غيرِها . وإذا لمسنا ، بعد دراستنا لأدب هذه الحقبة ، وهناً في بعض مظاهر الأدب ، فعلينا أن نتقبّله برحابة صدر .. لأنه جاء من أعاجم محبين للعربية ، ولغرباء عن أرض الجزيرة نفسها ، بل إنهم لم يرَوها إلا من وراء الكتب التي وصلت إليهم ، وتحكي آدابهم ، وتقصّ أخبارهم . أو عن طريق حكايات التجار التي كثيراً ما شابها الخيال وأبعدها عن الواقع ، أو وردت إليهم مع الحجاج الآيبين الذين اكتحلت أعينُهم بمواطن معينةٍ من الجزيرة ، أعني المواطن المقدسة ، أو عن طريق السائحين والجوالين .

وقد اعتمدتُ في دراستي هذه على مجموعات أدبية كُتبت في هذا العصر بالذات ، وفي مساقط رؤوس أدبائها ، كيتيمة الدهر للثعالبي ، ودمية القصر للباخرزي ، وخريدة القصر للعماد الأصبهاني ، بالإضافة إلى بعض دواوين الشعراء ، ممّن ساعده الحظ ، وجُمع شعره في كتاب خاص ، وأُنقذ من براثن التتار المخرّبين . وإن كنا تعمّدنا نهل أغلب الشواهد من « الدمية » لتثبيت ملاحظاتنا على هذا العصر ، فلأسباب ، أهمها :

الأول : أن المؤلف يعدّ من شعراء عصر السلاجقة ، وأدبائه ، وكتاب دواوين أمرائه .

الثاني : أن المؤلف جاب البلاد ( شرقاً ) ، وطاف الأمصار ( التي حكمها السلاجقة ) ، وتعرّف إلى الأدباء والشعراء ( الذين انسلكوا في سلك دواوين هؤلاء السلاطين ) وعانى ما عانى حتى جمع قرابة تسعة آلاف بيت قطفها من شتى الأنواع ، فجمعت باقة تضم أغلب الموضوعات المعروفة ؛ التقليدية والجديدة ، وسجّلها في كتابه .

الثالث : أن نظام الملك وزير السلاجقة الأول ( والأخير ) كان يحضّ الأدباء على الإنتاج ، ويشجعهم مادياً ومعنوياً ، ومنهم الباخرزي صاحب الدمية.

الرابع : أن تحقيق الدمية ونقدها كان جزءاً من بحثٍ قضيتُ فيه رَدَحاً من الزمان ، ونلتُ به شهادة الدكتوراه في الأدب العربي .

ولما كان هذا العصر غامضاً من النواحي السياسية والادارية والاجتماعية والدينية ، ولا يمكن لأدبٍ ما أن يُعرف إلا بتوضيح الإطار العام له ، فقد عقدتُ دراسة مفصّلة ، تشرح الأوضاع الآنفة الذكر كلها ، معتمداً على أكبر المراجع الغربية ( انكليزية وفرنسية ) ، وأفضل المراجع الشرقية ( فارسية وعربية ) لتضيء لنا الوضع الأدبي الذي نحن بصدده .

ثم درست الأغراض الشعرية كلها بالتفصيل ، شارحاً المقصود من كل غرض ، وعارضاً مراحل نشوئه وتطوره ، وذاكراً أعلامه وسدنته ، لأدخل بعدئذ في دراسة الغرض نفسه على ضوء نتائج أدباء العصر المعنيّ ، لأتعرف من وراء ذلك إلى مدى إمكانياتهم في التطوير ، أو إلى أي حدّ بلغوا في التحنيط . ودرست الأسلوب العام الذي انتهجه الادباء في أعمالهم الادبية ، وخلصت برأيٍ كان « خاتمة المطاف » بالنسبة لهذه المرحلة . أما الاعلام فلم أترجم لهم لكثرتهم ،

ولأنهم تُرجم لهم في المراجع التي أخذتُ عنها ، وقد عزوتُ أسماء المصادر التي أخذتُ عنها ، فيُرجع إليها .

وكل ما أرجوه من دراستي هذه أن أوقد شمعة ذات نور في ساحة أدب هذه الحقبة المظلمة ، فإن أنارت شمعتي ما أردت فهذا حسبي ، وإن لم تفعل فحسبُها أنها أضاءت بعض الطريق .

بنغازي – ليبية ١٩٧٤/٢/١٢ **محمد التونجي**

# تمهيد

## اضطراب الأوضاع العامة:

شهد الشرق الإسلامي، الذي ضمّ العراق وبلاد فارس وكرمان والجبل وخراسان وما وراء النهر وخوارزم وغزنة وكابل وبخارا وسمرقند، كما شهد غربُه، والذي شمل بلاد الشام وجنوب الجزيرة العربية ومصر والمغرب، منذ أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، تمزقاً سياسياً ومذهبياً واسعين [١].

وقد أدّى هذا التمزق إلى ظهور دويلات وإمارات انفصمت عُراها عن قلب الخلافة العباسية. وخلّفت وراءها منازعاتٍ سياسية، واضطرابات جغرافية، وخلافات مذهبية وفكرية، زادت من شُقّة الخلاف فيما بينها. وقصدها من ذلك كله التنازع على البقاء، والسعي إلى التوسع على حساب جاراتها، ممّا أقلق مضاجع الشعب في شتى البقاع، وهو نفسه المضطرب فكرياً لما كان يجرّه على نفسه من اختلافات على مذهب أو على فكرة.

والذي مهّد إلى هذا التمزق ضعف الخلافة العباسية في بغداد، التي كانت

(١) الأدب الفارسي في العصر الغزنوي : ١٥

الرابطَ المتين من حدود مصر إلى أواسط آسية ، ومن حدود الروس في الشمال إلى البحار في الجنوب . ومهّد إلى هذا التمزق والاضطراب كذلك رغبة عدد من الأمراء والفرس منهم خاصة في الاستقلال ، واقتطاع جزء حيّ من جسد الخلافة العباسية الذي كان يسمى ، بما له من وشائجَ دينيةٍ ، أن يبقى حيّاً .

وقد كانت الدولة الطاهرية في خراسان أُولى الدول التي حظِيَت باستقلالها عن بغداد سنة ٢٠٥هـ – ٨٢٠ م،وتبعتها الدولة الصَفَّارية سنة ٢٥٤هـ - ٢٩٠= ٨٦٨م – ٩٠٣ ( والتي تعتبر أهدافُها مناوئة لأهداف الدولة الطاهرية ) في سجستان . وإذا كانت الدولة الطاهرية تفخر بحبها للعرب ، وبأنها على صلة حسنة مع بغداد والخلافة ، فإن الدولة الصفّارية جاهرت بعدائها للخلافة ثأراً للأسر الفارسية الحاكمة كأبي مسلم وآل برمك . وقد حاول يعقوب الصفّار ، وهو مؤسس هذه الدولة ، عدة مرات الوصول إلى بغداد نفسها محتلاً ، ولكنه كان كل مرة يُعاق بأمر يحول دونه ودون بغيته .

وإذا دخلنا في القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) ، وجدنا أن الانشقاق يزداد في شتى أنحاء الامبراطورية الاسلامية ، ويعمّ ، ويتخذ طابعاً أكثر حدّةً ، وأعنف هدفاً ، إذ نرى البويهيين يسيطرون على بلاد فارس والري وأصفهان والجبل ( الواقعة كلها على حدود العراق جنوبا وشمالاً ) . والسامانيّين يحتلّون خراسان وما حولها( شمال شرق إيران الحالية )ويؤسسون أول ملكية فارسية ، بكل معنى الملكيّة ، بعد الإسلام ، وآل زيار يستولون على طَبَرستان [1] وجُرجان في الشمال ، والخوارزمشاهيين على خوارزم . والايلكْخانيّة على بلاد ما وراء النهر ( في أقصى الشمال الشرقي ، وجنوب روسية الحالية ) ، ويُقلقون مضاجع المناطق التي احتلّوها .

---

(١) وتقع جنوب بحر الخزر .

وإذا كانت هذه الدويلات ( على الرغم من قصر أعمار بعضها ) تحتل رقعاً محدودة نسبياً ، فإن القرن الخامس الهجري ( أواخر العاشر الميلادي ) يشهد قيام امبراطوريتين ، طغت الأولى منهما (وهي الغزنوية ) على قلب آسية والهند. وسيطرت الثانية ( وهي السلجوقية بكافة أجزائها ، وهي منطلق بحثنا ) على شرق العراق وغربه ، وعلى بغداد نفسها . كما نرى أن جنوب العراق ( وليس ببعيد عن بغداد ) وجنوب الجزيرة العربية ينفصلان سياسياً ودينياً ، إذ يقعان تحت نفوذ القرامطة ، وإن شمال العراق يحتله الحمدانيون ، كما يحتلون شمال بلاد الشام . وإن مصر تخرج من يد الخليفة لوجود قوّاد عسكريين أكْفاء كابن طولون وكافور .

وقد كان الخليفة نفسه السبب الأول في نشوء هذه الدويلات ، إذ غدا قوّة لا تُهاب لضعفه ، ولاعتماده على غير العرب . ولانغماسه في الشهوات والملذّات ، حتى إنّه لم يعُد يستطيع السيطرة على بغداد نفسِها لكثرة الاختلافات المذهبية والسياسية فيها .

فنرى أن البقعة التي امتدّت فيها الإمبراطورية الإسلامية قد عادت إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربي من دُويلات مختلفة متنازعة ، ومن اضطرابات وتأزُّمات سياسية .

وإذا كنا نلاحظ أن شيئاً من الهدوء والاستقرار والاتحاد قد شمل المنطقة بعد هذه المرحلة القلقة ، فإننا نلاحظ أن الاضطراب يعود إلى أوجِه منذ أوائل القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) ، إذ نتج عن الأسباب السابقة ذاتها مضافاً إليها منح الملوك الغرباء عن الشعب عدة إقطاعات لأبنائهم ، والذين لم يكن يحقُّ لهم تسلُّم الحكم بعد وفاة آبائهم ، كالإقطاعات السلجوقية في تركية وبلاد الشام[1] .

---

(1) Pre - Ottomon Turkey: 37

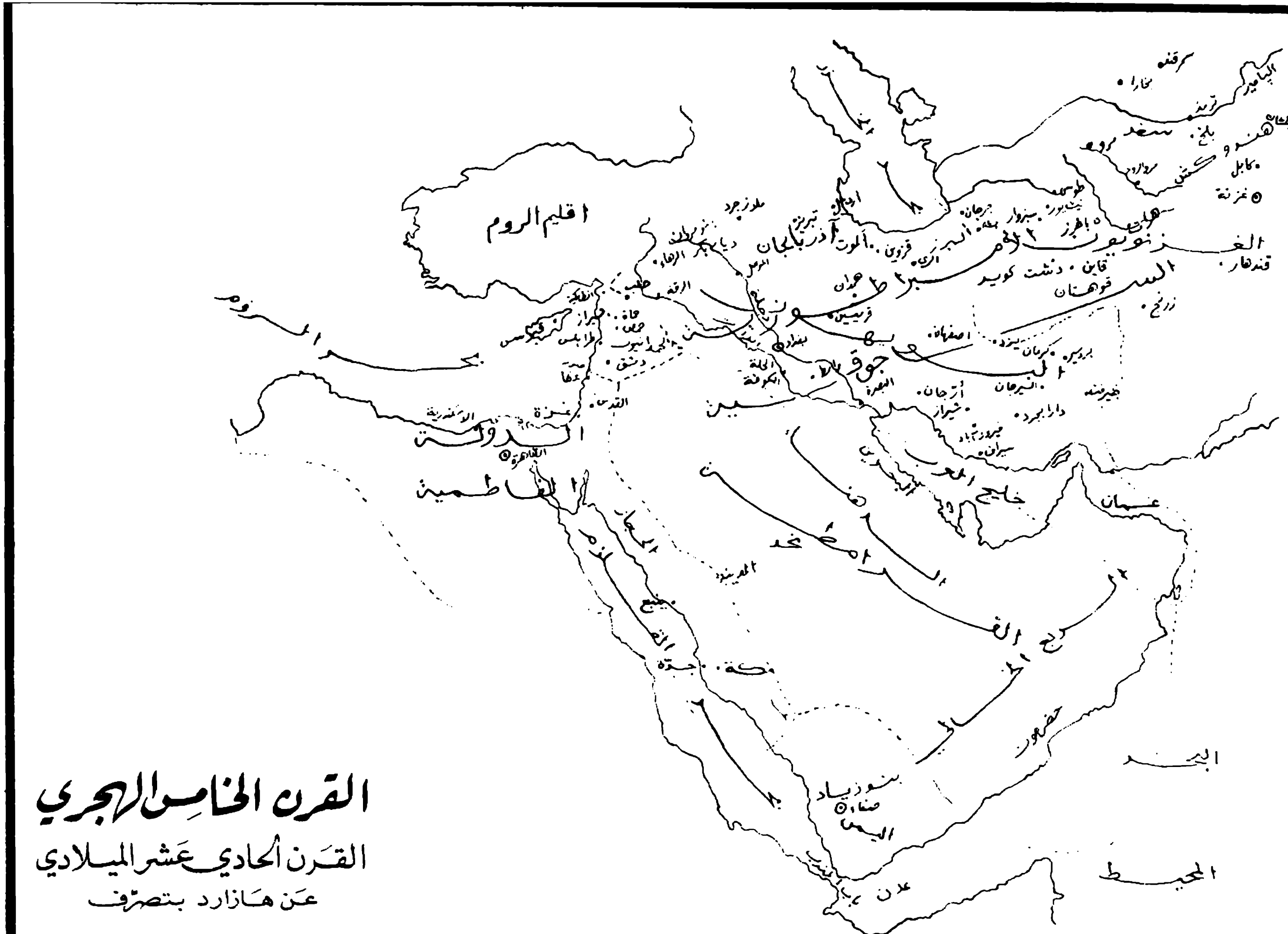
**تحكم الامراء :**

على أن أغلب هؤلاء الأمراء كانوا يعترفون بالسيادة العليا لبغداد ،ويقدّمون للخليفة واجب الطاعة ، كما كانوا يقدّمون اسمه على المنابر على أسمائهم. ويشترون منه ألقاباً ويفخرون بها ، ويشعرون بالصّغار إذا امتنع عن ذلك . ويرسلون إليه الهدايا في المناسبات وفي نهاية كل عام ، اعترافاً منهم وتقديراً. ورافق ذلك تسلطُ قبائل الأتراك من ذوي العرق الأصفر على أنحاء متفرقة من الشرق ، حتى قبل أن يكون لهم كيان وحكم . ويسمّي المؤرخون الفرس هذه المرحلة بمرحلة « الحكام الأتراك » لأنهم حرموا– بامتدادهم الواسع من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب – عدداً من الحكومات ، إمكانية التحكم في بلادهـا . وإذا لم يتيسّر لجحافل القبائل التركية الوصول إلى بعض الأصقاع ، فإن الغلمان الترك والمماليك كانوا ينفَذون إلى مراتب الحكم في النواحي العسكرية خاصة .

ولم يكن هؤلاء الأمراء والمماليك يحكمون شعبهم فقط . بل كانوا يحكمون السكان الأصليين من عرب وفرس وهنود. ومع أنّ بعضهم كان يسعى إلى خلق جوٍّ من التفاهم بينه وبين الشعب المحكوم فإن هذه المساعي كانت تبوءُ بالخسران المبين . وكثيراً ما تأتي بنتائج معاكسة لما يشتهون . لعدم تفهُّمهم لغةَ الأقوام، ولقلّة إدراكهم إدارةَ الأوضاع العامة . ولأنهم – بالتالي – أغراب . فشعر الشعب المحكوم آنئذ بأن شعب السلطان الحاكم غدا في مرتبة أعلى من مرتبته هو.

ويعتبر جمهرةٌ من المؤرخين ( الغربيين والشرقيين) أن القبائل المتنقّلة عاملٌ تخريبي وعنصر سلبي وغير متمدّن ، يؤثر كثيراً في حضارة الشعوب .

والواقع أن هذه الحقيقة خاطئة ، بقدر ما يزعم أنها صحيحة .. فعندما تهاجم الأمواج البشرية مناطق مأهولة ومزروعة ، فإن النتيجة ستكون دوماً سلبيّة ، كما هو واضح . ولكنهم ما أن يأخذوا بالاستقرار حتى يبحثوا عن




# القرن الخامس الهجري

القرن الحادي عشر الميلادي

عن هازارد بتصرف

مناطق مأهولة ، وبعيدة عن الأنظار . وسيضطرون – بالتالي – إلى زرعهـا وإحياء مواتهـا ، ليقيموا بذلـك أوَدهم ، ويرفعوا من مستوى معيشتهم . وسيضطرون ، أيضاً ، إلى التّماس المباشر مع سكان المناطق المحيطة بهم[1] . وستنتشر فيما بينهم الرغبة في التقليد والاجادة والتحضر ثم الاستقرار والتأسيس .

وعلى هذا ، فليس شرطاً أن ننعت هذه القبائل المتحركة ( غرباً غالبـاً ) بالأذى والتخريب . وعلينا أن نخلص – بعد هذه – إلى نتيجة بديهية ، أثبتتها البراهين التاريخية ، هي أن هذه الشعوب المتأخرة تبدأ مخرِّبة وتنتهي بانية .

## الصورة الجغرافية للمنطقة :

ومع اتساع البقعة التي نعاني دراسة نتاج أصحابها الأدبي ، فقد كان يجمعهـا كلها رابطان ؛ الأول – عام وشامل – هو الرباط الديني . أما الرابط الثاني فلم يكن جامعاً كالأول ، ولكنه كان – على أي حـال – متيناً في الجزء الأول من البلاد ، مقيداً مقدساً في الجزء الآخر ، هذا الرابط هو الرابط اللغوي .

ومع أننا لا نتمكّـن من عرض موجز جغرافي للمنطقة ، فإننا نسعى – ضمن حدود هذه الأسطر – أن نجعل المِنطقة واضحة . وهدفنا من ذلك كله معرفة الأرضيّة التي ولد فيها هذا الأدب الذي سميناه « الأدب في العصر السلجوقي » .

كانت أبعد القصائد غرباً وليدةَ شمال إفريقيّة ، لتأخذ بالانحسار إلى مصر فالجزيرة العربية ؛ قلبِها وأطرافِها ، ثم الشام وديار بكر . لتتوقف مدّةً ذات بال عند العراق ( عراق العرب وعراق العجم ) . ثم تتابـع القصـائد طريقهـا شمالاً إلى آذرْبايْجان وقزوين وجُرجان وسُغد وبُخارا ، وتصل حتى تِرْمِذَ وَسمَرقند ، وكلهـا تقع في أقصى الشمال من الامبراطورية الاسلامية حول بحر الخزر غرباً وشرقاً . أما في الجنوب فقد طافت دراستنا حتى شيراز وأرّجـان

---

(1) Pre - Ottoman Turkey : 34

وسيراف ( على شواطىء البحر العربي ) لتبلغَ غزنةَ ، وتتابع طريقها حتى حدود الهند .

والقصائد التي تجمعت في بوتقة هذا العصر برهنت على اتساع المنطقة، وتعدّد الامارات فيها ، وكثرة الاضطرابات والمشاكل . كما برهنت على أن المرءَ لم يكن يشعر بالغربة كلَّ الغربة ، وهو يتجوّل في تلك الأصقاع ، للرابطتَين الآنفَي الذكر .

وإذا عدنا إلى الوضع السياسي لاحظنا أن الحدود (في القلب وفي الأطراف) كانت في مدٍّ وجزر ، في اتساع وانحسار ، تبَعاً للحروب والاغارات ، وتبعاً للملوك والأمراء. وسيوضح لنا المصوَّرُ الوضع الجغرافيَّ العام الذي ضمّ المِنطقة ، مع الحدود التاريخية للحكومات التي تتابعت في القرنين الخامس والسادس .

## الصورة الدينية العامة :

على الرغم من أن الغالبية العظمى كانت تدين بدينٍ واحـد ، هو الإسلام ، وأن حكم الدول كلهـــا حكم إسلامي بحت ، فإن الوضع الديني كان مضطرباً ، لتأزم موقف السنّة بدخول البويهيين إلى العراق – وهم شيعة – ، وغُلب الخليفة السنّي على أمره بدخولهم . ولم يعد السلطةَ الروحيـــة المتنفّذة والتي توزّع الألقاب وتمنح الاعتراف ، لأن البويهيين متعصبون لمذهبهم .

ويشتطّ القرامطة في بعض أجزاء العراق والجزيرة ، وتمتدّ أطماع الحمْدانيين الشيعة من الموصل إلى حلب ، وتتأسس الدولة الفاطمية بين تونس ومصر ، وتتّسع قوتها إلى قلب بلاد الشام ووسط الجزيرة ، حتى بغداد نفسها ( متحدّية وجود الخليفة العباسي ) ، في حين أن الخليفة مغلوب على أمره ، ينظر بعين جريحة ، ولا يستطيع حراكاً .

ويعني ظهور الغزنويين والسلاجقة أشياء كثيرة من الناحية الدينية ، أهمهـا

أنهم قدموا انتصاراً للسنّة ، وحدّاً للزحف الشيعي ، ونشراً لرقعة الإسلام في الهند وما وراء النهر ، وكذلك في قلب آسية الكبرى والصغرى .

في هذا الجو المضطرب فكرياً وسياسياً ودينياً نشأ شعراء عظام جاهدوا في سبيـــل خلق جوهم المناسب ، وشعراء ضعاف الأسلوب ، صغار الشخصية أضاعوا ما حاول أولئك العظام وما سعوا من أجله .. وظلوا على هذه الوتيرة حتى حصلت للأدب العباسي انتفاضته الأخيرة..وهي التي حصلت أيام الزحف الصليبي وصدّ الأيوبيين لهذه الهجمات . وسنعمل على إضاءة الوضع الأدبي الذي آل إليه هؤلاء الشعراء والكتاب ، وهم يحْيَون تحت كنف أمير غير عربي وغير فارسي أيضاً .

# الباب الأول

# الأوضاع العامة

## الفصل الأول

# الوَضْع السِّيَاسي

**الخلافة والدويلات المنشقّة :**

رأينا ، فيما سبق ، كيف أن الامارات المحيطة ببغداد بدأت تنسلخ عن هرم الامبراطورية العباسية ، ليأخذ بناءُ الهرم بالانهيار شيئاً فشيئاً . وبضعف الخلافة يتحرّك في البلاد ما كان هادئاً ، ويهيج ما كان جامداً ، في شرق العراق وفي غربه . فقد وجد الأمراءُ منفذاً ومُتنفّساً ليتحكّموا في البلاد التي تسلطوا عليها ، أكان بعد أن عيّنهم الخليفة نفسه ، أو بعد أن حصلوا على الموافقة المبدئية منه ، ثم التزموا بها واستقلّوا ، أو أنهم قاموا ضدّ الخليفة ، وتابعوا عداءَهم له بعد تمكّنهم .

ويُعتبر أمراء البلاد النائية ، وأصحاب الحكومات البعيدين أوائل من فكّروا بالانقسام والاستقلال [1] كمصر وخراسان . ولم يلبث هذا الانقسام أن امتدّ بعد حين ، ودنا من العراق حتى تأزم الموقف في العراق نفسه ،وشمل الاستقلالُ شرقَ العراق كما شمل غربه ، سواءٌ بسواء.

---

(١) تاريخ أدبيات درايران : ١/١٠٨ .

أ – الانقسام غرباً :

١ – مصر : في أثناء الانشقاقات التي كانت تحصل في شرق البلاد ، كانت مصر تخضع لحكم ولاة منتدبين من قبل الخلفاء العباسيين أو القواد الأتراك . ولما آل حكم مصر إلى « بايكباك » التركي بعث مكانه « أحمد بن طولون » .

كان طولون في الأصل مملوكاً تركياً من بخارا [١] ، ثم حظي برضى وليّه ، فأنعم عليه ، وأعلى من مرتبته . وقد أثبت ابنه أحمد جدارةً في حكم مصر ، مما حدا بالخليفة العباسي «المهدي» أن يعهد إليه أمر إخضاع عامل فلسطين المتمرّد عليه ، فمنحه صلاحية تنظيم جيش مستقل ، اتسع نطاقه يوماً بعد يوم . وبسبب غنى مصر جعل قصرَه يُضاهي – في أبّهته الأميرية – أبّهة قصر الخلافة نفسه . ونلاحظ أنّ ابن طولون يمدّ نفوذَه إلى سورية ، وخاصة بعد وفاة أميرها « أماجور » سنة ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م لنراه بعد ذلك يستغلّ تراخي المسافة بينه وبين الحكومة المركزية ليتصرّف تصرّفاً مستقلاً [٢] .

ويتسلم « خُمارَوِيهِ حكم مصر [٣] سنة ٢٧١هـ–٢٨٢=٨٨٤م–٨٩٥ بعد أخيه الأمير « عباس » . وبعد حروب طويلة بين خُمارويه وجيش « الموفق » ،عقدت بين الفريقين معاهدة صلح سنة ٢٧٣هـ = ٨٨٦م ضمنت للطولونيين الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور ثلاثين سنة ، مقابل جُعل بسيط يؤدّونه إلى الخليفة . وتمتّنت العلاقة بين مصر وبغداد إثر زواج « قطر الندى »ابنة خمارويه بالخليفة المعتضد بالله ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م .

وينشغل خلفاءُ خمارويه من بعده بحروب القرامطة الذين شرعوا يعيثون

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ١٧٨/٥
(٢) تاريخ الطبري : ١٦٩٧/٣ . مروج الذهب : ٢١١/٤ . المنتظم : ٥٨/٥
(٣) تاريخ ابن خلدون : ٢٩٥/٣ . المنتظم : ١٥٥/٥

فساداً في سورية وجنوب الجزيرة العربية . غير أن نهاية الطولونيين كانت على يد الجيوش العراقية بقيادة « طـُغْج » سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥م بأمر من الخليفـة « المكتفي » عندما لمس ضعف الطولونيين [١] . وذلك بعـد أن حارب طغجُ القرامطة . وهكذا انتهت الدولة الطولونيـة بعد حكم قصير دام سبعاً وثلاثين سنة فقط .

وقد حاول ابنُ طغج أن يجعل من نفسه وريثاً على عرش الطولونيين [٢] ، وذلك سنة ٣٢٤ هـ = ٩٣٥ م ، فاتخذ عاصمته مدينة « فـُساط » ، وحصل على لقب « الاخشيد » من الخليفة « الراضي » ، كما حصل منه على حق الإشراف على مكة والمدينة . وينشغل الاخشيديون بعده بحرب سيف الدولة الحمْداني منذ بدء تأسيس دولتهم ، وخاصة في عهـــد ابني طغج ، وهمـا « أنوجور » [٣] و « سِيف » ، الذي تولى بعد أخيه سنة ٣٣٥هـ = ٩٤٦م تحت وصايـــة عبد خصيّ اسمه « أبو المسك كافور » [٤] . وقد ظل كافور قابضاً على زمام الأمور في مصر وسورية حتى وفاته سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م .

ويتولى الحكمَ بعد كافور غلام في الحادية عشرة من عمره هو « أبو الفوارس بن علي » سنة ٣٥٨ هـ – ٣٥٩ = ٩٦٨م – ٩٦٩ ، فعجز عن مواجهة مشاكل بلاده ، ذلك أن الحمْدانيين كانوا يهددونه من الشمال ، والقرامطة من الشرق ، والفاطميين من الغرب [٥] .

---

(1) History of Islamic Peoples: 158

(٢) تاريخ ابن عساكر : ٥٨/٧ . المغرب : ٥ . المنتظم : ٢٨٨/٦ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ٣١٤/٤ . تاريخ ابن عساكر : ١٥١/٣ . وانظر تفصيل حياتهم في « تاريخ مصر في العصور الوسطى » لعلي ابراهيم .

(٤) وفيات الأعيان : ٢٦٠/٣ . المختصر : ١٢٠/٣

(٥) تاريخ ابن خلدون: ٥٠/٤

وقد كانت الخلافة الفاطمية التي تأسست في تونس سنة ٢٦٧ هـ = ٩٠٩م تعمل على بثّ الدعوة لها في مصر ، راغبة في الاستيلاء عليها . ولم يكن للسلالة الاخشيدية من الحكم غير أربع وثلاثين سنة [١] . وفي سنة ٣٥٨ هـ =٩٦٨م [٢] سيّر المعزّ لدين الله أبو تميم معدّ القائدَ جوهراً ( وهو رومي ) في جيش كثيف إلى الديار المصرية . فاستولى على الفسطاط [٣] . فبعد موت كافور الاخشيدي ، واضطراب الأوضاع في مصر من اختلاف وغلاء اغتنم المعزّ الفرصة – وكان في إفريقية – فسيّر جوهراً إليها ، فهربت العساكر الاخشيدية كلها ، وأقيمت الدعوة بعد ذلك للمعز بمصر . ولما استقرّ جوهر شرع ببناء « القاهرة » ، ثم ما لبث أن وجّه جنده إلى الشام ، فدخل الجيشُ « الرملة » بعد أن أسر ابن طغج ، ثم استولى على « طَبَريّة » فدمشق عَنوةً . وأقام الخطبة لسيده المعز ، بعد أن قطع الخطبة للخليفة العباسي ، وذلك في مطلع سنة ٣٥٩هـ = ٩٦٩ م .

وقد نعِمت مصر في ظلّ الفاطميين استقراراً دام ٢٠٥ سنوات . ولكن لم يكد يستلم الخليفة الثالث ( وهو الحاكم بأمر الله ) خلافة الفاطميين حتى بدتْ عليه علائمُ شذوذ نفسي يعود أغلبه –حسب رأي المؤرخين– إلى حرصه الزائد على تنظيم البلاد ، والسير بها في إحياء قوانين الإسلام التي أفقدتها الحضارة فعاليّتها ، كالخمرة ومجالس الأنس وأنواع السرور الأخرى [٤] . يزعم بعض المؤرخين أنه ادّعى في أواخر عمره الربوبية [٥] ، فاستغلها محمد اسماعيل درزي ، بعد إذ وافتِ الحاكمَ المنيّة ، وتبعه خليفته « حمزة بن أحمد الهادي » في سورية يدعوان إلى مذهب جديد في جبال لبنان ، عُرف أتباعه بالدروز ، وذلك على

---

(١) تاريخ سورية : ١/١٩٣ .
(٢) الكامل حوادث سنة ٣٥٨ هـ. تاريخ ابن عساكر : ٣/٤١٦ .
(٣) تاريخ ابن عساكر : ٣/٤١٦ . History of Islamic peoples : 158 .
(٤) انظر تفصيلا لذلك في المنتظم : ٧/٢٦٨
(٥) المنتظم : ٧/٢٦٩

اسم مؤسس المذهب « محمد بن اسماعيل درزي »[١] . ويقال إن الخليفة الحاكم قُتل في شرق حلوان سنة ٤١١ هـ = ١٠٢١ م . واختلف المؤرخون في أمر مقتله . والأصح أنه قُتل بتحريض من بعض أعيان حاشيته ، ولعل ذلك كان بوحي من أخته[٢] . وعلى أية حال مات وعمره ٣٧ سنة ، فخلفه ابنه « الظاهر لإعزاز دين الله »[٣] .

اضطربت البلاد بعد مقتل الحاكم، فلم تعرف الاستقرار إلا في عهد المستنصر ٤٢٨ هـ - ٤٨٧ = ١٠٣٦م - ١٠٩٤ ( حفيد الحاكم ) وعهد وزيره الأرمني « بدر الجمالي » . غير أن سورية ضاعت من أيدي الفاطميين في زمانه، إذ تسلط المرداسيّون على حلب سنة ٤٥٢ هـ = ١٠٦٠ م وسقطت القدس سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م بأيدي السلاجقة المنتشّرين في الشرق ، ثم تلتْها دمشق بعد خمس سنوات .

ولم يكد الملك الأفضل يستعيدُ اعتباره في سورية ، ويستخلص القدس من الدولة « الأرْتُقيّة » الخاضعة لسلطان السلاجقة حتى تعيَّن على المسلمين عامة مجابهةُ عدوٍّ جديد عظيم الخطر هو « الغزو الصليبي » . فقد سقطت القدس في أيديهم سنة ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م ، وظلت الحروب قائمة بين الصليبيين والمسلمين عقدين من السنين . وبعد اغتيال الملك الأفضل سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١م أخذت الدولة الفاطمية بالضعف والانحلال إلى أن تسلّم الحكمَ « شيرْكوه » فـ« صلاح الدين يوسف الأيوبي »[٤] .

٢ - بلاد الشام : لعل أبرز أسرة ظهرت على مسرح الأحداث في شمال

---

(1) History of Islamic peoples : 160

(٢) المنتظم : ٧/٢٩٩ .

(٣) الكامل ، حوادث سنة ٤١١ .

(4) History of Islamic peoples :161 .

سورية والعراق هي الأسرة « الحمْدانية » ، لِما لهـــا من مواقف سياسية مع الخليفتين العباسي والفاطمي ، ومن وقفات حربية بطولية مع البيزنطيين .

فقد استطاع « حَمْدان » ( وهو من قبيلة عرب تغلب ) مؤسس هذه الأسرة ورأس قبيلته ، أن يستولي على قلعة « ماردين » [١] في الجزيرة العليا سنة ٢٧٧هـ = ٨٩٠ م عن طريق التحالف مع الخوارج الموجودين هناك . وفي سنة ٢٩٣هـ = ٩٠٥ م عُين « أبو الهيجاء » أميراً على الموصل من قبل « المقتدر »[٢].وتسلط ابنه « الحسن » على الجزيرة كلها وشمال سورية . ولما قتل الحسنُ « ابنَ رائق » خلع عليه الخليفة « المتّقي » ، ولقّبه « ناصر الدولة » ، وجعله أمير الأمراء كما حظي أخوه « علي » بلقب « سيف الدولة » [٣] .

أما الشهرة التي حظي بها سيف الدولة علي فكانت أوقعَ وأبقى ، إذ انتزع حلبَ من الاخشيديين سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥م ، ثم حاول أن يمدّ سلطانــه على دمشق فلم يفلح . وعلى الرغم من أنه أعلن الطاعة للفاطميين ، واتّبع المذهب الشيعي ، فإنـــه احتفظ بسيادته التامة . وكان همّه الأول أن يكبح جماحَ البيزنطيين الذين كانوا يُغيرون على أطراف سورية بين الحين والحين . وقد امتد حكم سيف الدولة إلى شمال سورية ، وجزء من « كيليكية » ، وجزء من شمال العراق[٤] .

وإذا استطاع سيف الدولة أن يصدّ هجمات « نقفور » امبراطور بيزنطة ، فإن وفاته سنة ٣٥٧ هـ = ٩٦٧ م [٥] وما تلاها من فتن داخلية مكّنت الجيش

---

(١) تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٢٧٧ .
(٢) الكامل ، حوادث سنة ٣٠٣ .
(٣) الكامل ، حوادث سنة ٣٣٠ .
(4) History of Islamic Peoples 152 .
(٥) تاريخ سورية : ٢/١٩٥ .

البيزنطي من عبور سورية ، واحتلال جزء كبير من شمالها . حتى إن نقفور استطاع بعد سنة من وفاة سيف الدولة أن يحتل حلب نفسها ثم حمص وإنطاكيّة [1] .

ولم يسترجع الحمدانيون حلب إلا سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م . ولكن سرعانَ ما بدا في أُفق سورية الجنوبي خطرٌ داهمَ الحمدانيين ، ألا وهو الجيش الفاطمي. فاستعان الأمير الحمداني بالامبراطور « باسيل » على صدّ هجوم العدو المُداهم ، فأنجده ودمر عدوّهما [2] .

ولما توفي سيف الدولة خلفه ابنه « أبو المعالي شريف » [3] . غير أن « قَرْغَوِيه » غلامَ سيف الدولة استولى على حلب ، وأخرج منها أبا المعالي . ولما سار هذا إلى حرّان ، منعه أهلها من الدخول ، فاستجار بأمه في « ميّافارِقين » ، وتفرّق عنه اكثر صحبه . وعندما استولى « بكْجور » ( مولى قرغويه ) على حلب بعد أن أسر سيده في سجن القلعة ، راسل بعضُ القواد أبا المعالي شريف ( وكان مستوطناً حماة آنئذ ) ، فقدِم حلب وحاصرها حتى فتحها [4] .

ويضطرب أمر شمال سورية بين حكم الحمدانيين وغيرهم ، حتى دُسّ للأمير سعيد الدولة السمُّ فمات سنة ٣٩٤هـ = ١٠٠٣م ، وأُرسل ولداه إلى القاهرة أخيذين . فأُعلنت حلب بعد ذلك تابعة للفاطميين رسمياً . غير أن هذه المدينة لم تستقرّ نهائياً في أيديهم ، إذ سرعان ما استولى عليها « المرداسيون » ، وساعدهم على ذلك سوء معاملة الفاطميين لهم . فجهز « الظاهر » صاحب مصر سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م جيشاً وسيَّره إلى الشام. وتتالت الجيوش المصرية إلى الشام

---

(١) التاريخ البيزنطي : ١٩٩ .
(٢) التاريخ البيزنطي : ١٩٩ ،
(٣) الكامل ، حوادث سنة ٣٦٦ .
(٤) تاريخ سورية : ١٩٧/٢ .

إثر كلّ حركة . حتى استولى عليها « تُتُش بن ألب أرسلان » سنة ٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م [١] . وعلى الرغم من هذه الحروب وهذه الاضطرابات ، فقد كان للحمدانيين فضل كبير بسدّهم الثغور ، وصدّهم هجمات البيزنطيين ، وفضل كبير آخر بما حواه بلاطهم ( بلاط سيف الدولة خاصة ) من أرباب الأدب والفن يكاد لا يباريه إلا بلاط بغداد في أزهى عصوره ، إذ ضمّ الفيلسوف الشهير الفارابي ، ومؤلف كتاب « الأغاني » أبا الفرج الأصفهاني ، والواعظ ابن نباتة ، والعالم اللغوي النحوي ابن جنّي ، والشاعر الفارس أبا فراس ، والشاعر البارع المتنبي [١] .

٣ – جنوب بلاد العرب : لم يلبث العَلويون [٢] أن أدلوا بدلوهم في حكم الجنوب العربي ( بعد أن حاول الاستقلالَ عددٌ من الأمراء المحليين أو التابعين لبغداد . فقد نجح أحدُ أعقاب « زيد بن علي » في أن يُنشيء لأسرته دولة ظلت منذ القرن العاشر الميلادي تحكم بقعتها حتى أواخر القرن العشرين . وقد انفردت هذه الدولة بـ «صَعْدة» وما جاورها ، لأن القرامطة ورجال الدولة «اليعفُريّة» [٤] في جنوب البلاد كانوا ينازعونه نفوذه [٥] . وسنمرّ بهذه البقعة ثانية في أثناء حديثنا عن القرامطة ، واحتلالها بعض أطراف الجزيرة والبوادي .

**ب – الانقسام شرقا :**

إن كان حديثنا حول الدويلات الواقعة غربي العراق أخصرَ من حديثنا عن

---

(١) تاريخ سورية : ١٩٧/٢ . وانظر دراستنا للمتنبي .
(٢) يتيمة الدهر : ٨/١ . راجع « الأدب تحت ظلال بني حمدان » لعبد الرزاق حميدة.
(٣) تاريخ سورية : ١٩٨/٢ .
(٤) نسبة إلى « يعفر بن عبد الرحمن الحميري » الذي توفي سنة ٢٧٢هـ = ٨٨٥م . وقد ذكر بروكلمان أن اسمه « .. ابن عبد الرحمن » ، وكذا ورد في صفة جزيرة العرب طبعة ليدن : ١٠٦ .

(5) History of Islamic Peoples : 143 .

الدويلات المنقسمة شرقاً،فلأن الهدف أن نشرح الأوضاع التي كان عليها الشرق، إبّانَ دخول السلاجقة إليه ، ولأن الأحداث التي تطورت في تلك الحقبة كانت أشدّ انفصالاً وأكثر غلياناً . وإذا وجدنا في غرب البلاد أمراءً بعضُهم عرب ، وبعضهم غيرُ عرب فإن هؤلاء لم يؤثروا بأي حال في مستوى لغة الشعب ، ولا في أدبه . أما في شرق البلاد ، فكنّا قلما نجد أميراً من أهل البلاد .

**١ - الدولة السامانية :**

كان السامانيون يحكمون بلاد ما وراء النهر وخراسان وبخارا وسجستان وجرجان وطبرستان والري وكرمان [١](وأغلبها يقع في شمال إيران وافغانستان الحاليتين ) [٢] من ٢٦١هـ - ٣٨٩ = ٨١٩م - ١٠٠٤ [٣] . ويرجع أصلهم إلى البطل « بهرام چوبين » الساساني من بلدة سُغنْد [٤] . وقد نظر المؤرخون المسلمون إلى هذه الدولة نظرة اعتبار وتقدير في أثناء حديثهم عنها ، غير أن « بارتولد » بيّن أن هذا التحيّز يمكن إرجاعه إلى دفاع هذه الأسرة عن الشرع والسنّة والتقاليد الملكية العريقة ، في حين أن المؤرخين اعتبروا خصومهم الصفّاريين في ( سجِستان ) قطّاع طرق ، ومن أصل غير عريق [٥] .

ويعدّ الأمير أحمد الذي تسلّم حكومة بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ =

---

(١) المسالك والممالك : ٨٦ . تاريخ الأدب في إيران : ١٠٦

(٢) صفحات عن إيران : ٧٠

(٣) يرى بعض المؤرخين الفرس أن حكمهم دام إلى سنة ٣٩٥ هـ معتبرين عودة المنتصر إلى حرب محمود إدامة لحكمهم .

(٤) المؤسس الأصلي لهذه الأسرة هو « سامان خُداه » أي رئيس قرية خداه . وقد أسلم في عهد هشام بن عبد الملك ، ولمع نجم حفدته في زمان المأمون :
History of Islamic Peoples : 165

(5) The Ghaznavides : 27.

٨٧٤م المؤسس الأول للدولة السامانية ، ثم مـا لبث أن استولى على الري سنة ٢٩٧هـ = ٩٠٩م . كما تمكن من تخليص سجستان من أيدي الدولة الصفّارية سنة ٢٩٨هـ = ٩٢٠م [١] . وقد ازدهرت هذه الدولة في عهد « نصر بن أحمد » ثالث الأمراء ، والذي حكم ثلاثـين سنة من ٣٠١هـ – ٣٣١ = ٩١٣م – ٩٤٣ ، ففي عهده بلغت الدولة السامانية أوج عظمتها ، ونشطت مراكز الثقافة والعلوم في عصرها [٣] . فغدت بخارا عامرة بالعلماء والأدباء ذوي الفضل ، أمثال ابن سينا ورودكي والبيروني والرازي الطبيب [٢]. ويصف الجغرافيون العرب المعاصرون للسامانيين تلك البقاع على أحسن ما يكون الوصف ، فقد زار « ابن حوقل » بلاد ما وراء النهر في عصر « نوح بن منصور » سنة ٣٥٠هـ – ٣٦٦ = ٩٦١م – ٩٧٦ ، ورأى أن بلادهم من أكبر البلاد التي زارها حماية واتساعاً وكثرةَ عدد سكان ، وأن شؤونها الداخلية منتظمة ، ومواردها غنية . ولم ينس أن يشير إلى قلّة الضرائب . وكانوا ، إلى جانب هذا الغنى ، يحظون برضى الخليفة ورعايته على عكس ما كان لدى خصومهم الصفاريين [٤] . إلا أن حرصهم على كسب رضى الخليفة هو الذي جرّهم إلى الحروب المستمرة مع الأمير الغزنوي ، فقد مال السامانيون إلى محمـــد بن المستكفي ( ت ٣٥٧ هـ = ٩٦٨م ) ، ورفضوا الاعتراف بالقادر بوصفه الخليفة الفعلي . فتصنّع الأمير محمود الانتصار للخليفة فحاربهم . وترى في الرسالة التي أرسلها إلى الخليفة ، والتي اسمها « فتح نامه : كتاب الفتح » ، أنه ادّعى حربهم لرفضهم الاعتراف بالقادر [٥] .

وقد اتفق السلطان محمود و « إيلَكْ خان » التركي على إنهاء حكم الدولة

---

(١) الكامل ، حوادث سنة ٢٩٨ . المسالك والممالك : ٨٦

(٢) الموسوعة الفرنسية الاسلامية مادة « سامان » .

(٣) صفحات عن ايران : ٧٠

(٤) المسالك والممالك : ٨٦ ، The Ghaznavides : 27

(5) The Ghaznavides : 28

السامانية واقتسامها ، ذلك أن محموداً عندما احتل خراسان [١] لم يبق بيد عبد الملك بن نوح إلا ما وراء النهر . فسار إليهم « إيلك خان » ، ودخل بخارا بعد أن قبض على كبار قواد عبد الملك، ثم على عبدالملك نفسه بـ« أفـكَنـد »[٢]. وهكذا قضي على الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م [٣] . غير أن المنتصر أخا عبد الملك استطاع أن يَتثبت ويقوّي موقفه بانتصاره على خصميه إيلك خان ومحمود . إلا أنّ هذه الفرصة كانت قصيرة الأمد ، إذ ما لبث أن تضعضع موقفه لعدم اتفاق ضبّاطه معه، فانتهز محمود الفرصة ، وأغار على الدولة وأنهاها تماماً سنة ٣٩٥هـ = ١٠٠٤م [٤] .

## ٢ ـ الدولة البُويهيّة :

يُرجع بعض المؤرخين الفرس أصل هذه الأسرة المالكة إلى « يزدگرد » آخر ملوك الساسانيين . وقد كانوا معاصرين للسامانيين، خاضعين لهم في بادىء الأمر ، معروفين بانتهاز الفرص واستغلال المواقف للظفر بالحكم أو بالمال . وتُعتبر « گيلان » وما صاقبها من أراضٍ حول بحر الخزر موطنهم الأصلي [٥]. ولكنهم حكموا جنوب إيران والعراق من ٣٢٠هـ – ٤٤٧ = ٩٣٢م – ١٠٥٥ .

كان البويهيون – في أول ظهورهم – أسرة فقيرة حين اشتهر منها ثلاثة هم : علي وحسن وأحمد ، وهم المؤسسون الأولون لهذه الدولة . ونظراً إلى فقرهم فقد اشتغلوا لدى « ما كان بن كاكي » ، ولما وجدوا أن المال نضب من حوزة « ما كان » ، والمكانةَ ضَؤُلت انتقلوا إلى خدمة « مرداويج » أحد ملوك

---

(١) الكامل ، حوادث سنة ٣٨٩ . الموسوعة الاسلامية ، مادة « سامان » .

(3) The Ghaznavides : 28

(٤) كليات تاريخ إيران : ١٠٠

(٥) كليات تاريخ إيران : ١٠١

آل زيار [١] ، فاستعان هـذا بعلي ، كبير اخوته ، للاستيلاء على اصفهان وفارس [٢] . فاستغلّ هذا النصر ، وكتب إلى « الراضي بالله » يعرّفه أنه على طاعته ، ويطلب إليه أن يقاطعه على ما بيده من البلاد، فأجيب إلى ذلك[٣]. ثم استولى أخوه « الحسن » على كرمان وهمدان وسائر بلاد العجم . ولما قتل « مردوايج » قوي بنو بُويه ، وتوسّعوا في حكمهم . فلم يبق للخليفة غير الجزء الغربي من إيران وجزء من العراق .

وقد أحب أحمد أن يستولي على بغداد ، فأعدّ جيشه ( وكان الخليفة آنذاك المستكفي بالله ) مستغلاً ضعف الخليفة واختلاف الأمراء الأتراك ، واستولى عليها سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤م .

ولما استقرّ في بغداد [٤] ظفر بلقب « معز الدولة » من الخليفة ، كما حصل لأخويه « علي » على لقب « عماد الدولة » و« الحسن » على لقب « ركن الدولة »[٥]. وأمر الخليفة أن تضرب ألقابهم وكُناهم على الدنانير والدراهم . ولم يمضِ كثير من الوقت حتى سيطر « معز الدولة » على العراق كله ، فازداد أمر الخلافة سوءاً وإدباراً . ولما مرض « عماد الدولة » ولم يكن له عقب ، أرسل أخوه « ركن الدولة » ابنَه « عضُد الدولة » إلى فارس ليخلف عمّه على حكم البلاد [٦] .

ويعتبر عضد الدولة أعظم ملوك هذه الأسرة ؛ فقد حكم خمساً وثلاثين سنة

---

(١) الكامل ، حوادث سنة ٣٢١ . المختصر في أخبار البشر : ٩٨/٣
(٢) المنتظم : ٢٨٨/٦ المختصر في أخبار البشر : ٩٨/٣
(٣) الكامل ، حوادث سنة ٣٢٢
(٤) كليات تاريخ إيران : ١٠٥ . الكامل : حوادث سنة ٣٣٤ . المختصر في أخبار البشر : ١١٨/٣
(٥) خلاصة الذهب المسبوك : ٢٥٦
(٦) فرهنگ فارسي : ٥١/٥ . المختصر في أخبار البشر : ١٢٤/٣

من ٣٣٨ هـ – ٣٧٣ = ٩٤٩ م – ٩٨٣ . غير أن الدولة ، لما توفي عضد الدولة وخلفه « صمصام الدولة أبو كاليجار » [١] ، ضعفت وانحصرت في العراق ، حتى لعبَ البويهيون دوراً بارزاً في السيطرة على الخلافة [٢] المُنهكة القوى ، وعلى القضايا المذهبية . وظلّت في نزاعها واختلاف أمرائها إلى أن قدم « طغرلبك » السلجوقي ٤٤٧هـ =١٠٥٥م ، وقضى على دولة البويهيين بسَجن آخِر أمرائهم ، وهو الملك الرحيم ، على ما سنراه بالتفصيل .

### ٣ – حكومات ما وراء النهر :

نصادف في الفترة الممتدّة بين القرنين الرابع والخامس الهجريين ، بعضَ الحكومات الصغيرة في حدود ما وراء النهر وتركستان . وكانت هذه الدويلات على اتصال دائم مع دول المناطق الجنوبيّة صلحاً أو حرباً . ورأينا كيف أنْ إحدى هذه الدويلات كانت ذاتَ باع طويـــل في إنهاء حكم الدولة السامانية الفارسية . وكانت الدولة الايلَكْخانيّة من أهمّ هذه الدويلات ، التي كان لها أثر في السياسة والدين والأدب . وتسمى هذه الدولة كذلك بـ «آل أفْراسياب» أو « آل خاقان » أو « الخاقانيّة »أو « الخانيّة » أو « القَرخانية» [٣] . كانت الدولة القرخانية أول حكومة حصلت على شهرة وأثر في «كاشْغر» و«خُتَن» و « ما وراء النهر » و « بَلاساغون » وقد بدأ حكمهم منذ ٣١٥ هـ = ٩٢٧م ، دون أن يكون لهم كيان تام . غير أنهم عندما تاخموا حدود الدولة السامانية المسلمة منذ ٣٤٩ هـ = ٩٦٠م ، واحتكّوا بشعبها دخلوا في الإسلام [٤] زرافاتٍ بعدَما أعلن رئيسهم « سُتوقْ بُغْراخان» ايمانَه ، مسمّياً نفسَه «عبدالكريم».

(١) الكامل ، حوادث سنة ٣٧٢
(٢) صفحات من إيران : ٧٠
(٣) سياستنامه : ١٢٠
(٤) الكامل ، حوادث سنة ٣٤٩

وقد ازداد وضعهم السياسي مكانـــةً عندما أزاحوا الدولة السامانية ، واحتلّوا أغلب أراضيهـــا ، وحكموا تلك البلاد المحيطة بما وراء النهر قرابةَ ثلاثة قرون . وعاشوا مستقلين حيناً ، وتحت حكم السلاجقة حيناً آخر إلى أن انقرضوا على أيدي الدولة الخَوارَزْمْشاهيّة ٦٠٧هـ = ١٢١٠م [١] .

ومع قلّة المَراجع الموضّحة لحياتهم فقد تيسّر للمؤرخين أن يجمعوا السطور عنها من بين علاقاتها بالدول المجاورة ( الصديقة والمُعادية ) كالدولة السامانية والغزنوية والسلجوقية [٢] . ويعتبر « طُغَان خان » من أهم الخانات المشهورين ، إذ عقد صلحاً مع السلطان محمود الغزنوي على أن ينشغل الأخيرُ بغزو الهند ، ويتّجه هو إلى غزو الترك الكفّار ما دام هدفهما نشرَ الإسلام . وقـد توفي « طغان خان » ٤٠٨هـ = ١٠١٧م بعـــد أن أبلى بلاءً حسناً في قبائل الترك المغيرة [٣] .

وقد كانت هذه الدولة ( وإن لم يكن لها أثر سياسي كبير لبعدها عن قلب آسية الهائج سياسياً ) ذات أثر بالغ الأهمية في النهضة الأدبية في الحقبـة التي نحنُ بصددها .

## ٤ – الدولة الغزنويّـة :

يعتبر « ألـبْتِكين » الذى كان قائداً لجيوش السامانيين [٤] مؤسس هذه الدولة . فقد انسحب « ألبتكين » إلى « غزنة » ،وأعلن ملكه عليها [٥] بعد

---

(١) كليات تاريخ إيران : ١١٨ . الواو في ( خوارزم ) لا تلفظ لأن القاعدة الفارسية تقول : إذا وقعت الواو بين الخاء والألف فإنها لا تلفظ .

(٢) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة ( ايلك خان ) .

(٣) الكامل ، حوادث سنة ٤٠٣

(٤) لباب الألباب : ٣٨/٢ ، تاريخ الأدب في إيران : ١١٠

(5) The Ghaznavides : 35

موت « عبد الملك الساماني » سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١م ، وبعد انتصاره على أميرها المحلّي . ولما توفي « البتكين » عيّن « سُبُكْتكين » مملوكه الخاص وصيّاً على ابنه « اسحاق إبراهيم » الذي عاجلته المنيّة . فتأزّم الموقف بين القواد بحثاً عن خليفة قوي مناسبٍ ، إلاّ أنهم اتفقوا أخيراً على تولية « سبكتكين » نفسه سنة ٣٦٧هـ = ٩٧٧م ( والذي عرفه التاريخ مؤسساً للدولة الغزنويّة ) [١] لِما امتاز به من رجاحةٍ في العقل والدين والمروءة [٢] .

وقد عُرفت هذه الأسرة بهذا الاسم نسبة إلى العاصمة التي اتّخذوها [٣] . ولم تكن عاصمتهم « غزنة » غير مدينة صغيرة تقع في شرق أفغانستان [٤] ، تعيش على هامش العالم الهندي الثقافي والسياسي . ولما استوطنها الغزنويون غدت نقطة مهمة ومركزاً ثقافياً وسياسياً يجذب الأنظار [٥] .

بيدَ أن تاريخ هذه الأسرة التركية ابتدأ بشخصية تاريخية كبيرة هي « محمود الغزنوي ».وقد أمضى هذا السلطانُ حياته في فتح البلاد،وتأسيس الامبراطورية التي امتدت من حدود العراق إلى أواسط الهند ، بما في ذلك إيران وافغانستان الحاليّتان [٦] . فبعد أن استقرّ حكمه جمع العساكر وسار نحو الهند مجاهداً ، وجرى بينه وبين الهند سبع حروب مستعرة ، هدّم فيها العديد من المعابد ( كما فعل أبوه قبله ) [٧] ، ووطّد دعائم الدين الاسلامي في البلاد الهندية المفتوحة،

---

(١) الأدب الفارسي في العصر الغزنوي : ٢٣ . انظر تفصيل ذلك في « سياستنامه »: ١٢٥

(٢) الكامل ، حوادث سنة ٣٦٦

(٣) الموسوعة الاسلامية مادة ( غزنوى ) .

(4) The Ghaznavides : 37 .

(٥) فرهنگ آنندراج : مادة ( غزنة ) ،

(٦) صفحات عن إيران : ٧١

(٧) الموسوعة الاسلامية مادة ( غزنوى ) .

وغنم كذلك أموالاً وغنائم لا تحصى [١] . فعظـُم شأنه ، وأقبل عليه الناس ، وقدَّم له عدد من الأمراء العظام الطاعة [٢] .

ولم تكن حروبه شرقاً فقط ، بل إنه اتجه كذلك بجيوشه غرباً ، فاستولى على الكثير من أراضي البويهيين ، فاحتلَّ الريَّ [٣] سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩م ثم احتلَّ قزوين وقلاعها ، وساوة وآبة وغيرها من المدن التي صادفها ، ثم إن « منوچِهْر بنَ قابوس » [٤] قدَّم للسلطان محمود الطاعة والهدايا ، وخطب له في أكثر بلاد الجبل وحتى إرمينِيَة . كما افتتح ابنه « مسعود » زنجان وأَبْهَرَ وخوزستان [٥] .

وفيما كان محمود في أوج فتوحاته وشهرته برزت إلى الوجود قبائل السلاجقة ، ولكنه لما وجد جموعهم في ازدياد أوجس خيفة من هذه القبائل الجديدة المتكاثرة في شمال خراسان ، مما اضطرَّه إلى أن يأسر رئيسهم « اسرائيل » ، ويرسله أسيراً إلى قلعة « كالَنْجَر » في الهند ، واعتبره رهينة [٦] ليضمن هدوء السلاجقة . ولكنهم ثاروا وعبروا نهر سيحون ، وغزوا الغزنويين [٧] غير أنه عاد بعد حين فسمح لجموعهم أن تعبر نهر جيحون ، وتتَّخذ النواحي الشمالية لخراسان موطناً لها . ومع أن حاشية محمود رفضت ذلك وحذَّرته مغبَّةَ

---

(١) كليات تاريخ إيران : ١١٠ . وانظر مراسلاته مع أمير المؤمنين القادر بالله بهذا الشأن . المنتظم : ٢٩٣/٧

(٢) الكامل ، حوادث سنة ٣٦٦ – ٣٩٢

(3) History of Islamic peoples : 169

(٤) انظر أخباره في تاريخ الأدب في إيران : ١١٩

(٥) الكامل ، حوادث سنة ٤٢٠

(٦) الموسوعة الاسلامية مادة ( سلجوق ) .

(7) The Seljucks : 28

التساهل إلاّ أنه سمح لهم بالاستيطان ، فكان ذلك أحد الأسباب المهمّة التي دعت إلى زوال الغزنويين ، مما سنراه فيما بعد .

ولمّا حضر محموداً الموتُ سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩م ( وكان مولده سنة ٣٦٠هـ = ٩٧٠م ، وبدأ حكمه ٣٨٨هـ = ٩٩٨م ) أوصى بالملك بعده لابنه محمد ، وهو ببلخ ، وكان أصغر من « مسعود » ، لأنه كان مُعرضاً عن الأخير لعدم إطاعتِه أوامرَه . غير أنّ مسعوداً سرعان ما أعدّ العُدّة لحرب أخيه ، فكان التوفيق حليفه بما أُوتيَ من قوة عسكرية [1] وبما حظي من ميل كبار الضباط إليه [2] . فدخل غزنةَ حاكماً لها من ٤٢١هـ - ٤٣٢ = ١٠٣٠م - ١٠٤٠ بعد أن سَمل أخاه محمداً وأسره .

كان مسعود ( حسبما يقول البيهقي ) نبيلاً وعاقلاً، وجندياً ذا هيبة عسكرية لا تقلّ عن هيبة أبيه محمود ، وقد اضطرّ لمتابعة الفتوحات التي بدأهـا أبوه شرقاً وغرباً وهو، وإن ظفر بحروبه ضد الهند، إلا أنه اصطدم عدة اصطدامات بالقوات الايلَكْخانية والسلجوقية التي كان يقودها بطلها « طُغـْرُلـْبَك » ، ففي سنة ٤٢٨هـ = ١٠٣٦م كان السلجوقيون يستولون شيئاً فشيئاً على الأراضي، ويتقهقر مسعود أمامه ، حتى مُني بهزيمـة فادحة في معركة ( دَنْدانـَقان ) ٤٣١ هـ = ١٠٤٠م ، فانسحب إلى الهند . وقـد استغلّ أخوه محمد الأعمى انسحابه ، فاستولى على الحكم بعد أن قتل أخاه مسعوداً . غير أن ابنَ أخيه « مودوداً » أخـذ بثأر والده المقتول ، وحارب عمّـه والمُوالين له وقتلهم جميعاً [3] ، واستعاد مُلك أبيه سنة ٤٣٢هـ = ١٠٤٠م . ومع أن مودوداً أعاد مكانة الدولة الغزنوية إلى ما كانت عليه في زمان جده محمود إلا أنه تُوفي فجأة

---

(١) الموسوعة الاسلامية : مادة ( غزنويون ) .

(٢) الكامل ، حوادث سنة ٤٢٠

(٣) المصدر نفسه : ٤٣٢

وعمره ٢٩ سنة وذلك سنة ٤٤١ هـ = ١٠٤٨م [١] .

وأخذت الدولة بالانحدار من بعده ، وبالانحسار عن كثير من الأراضي التي احتلّها الغزنويون ، متّجهين إلى أطراف الهند ، في حين أن السلاجقة كانت تقوى شكيمتُهم ويشتدّ زحفهم ليحتلّوا أغلب المناطق الغزنويّة [٢] . وتبقى الدولة الغزنويّة تنازع على البقاء في شمال الهند ، حتى جاءَها المغول ، فاجتثّوا جذورها ومحوا آثارها .

وقد كان أمراء الدولة الغزنوية مُتواضِعين ( في أوائل حكمهم ) ويكتفون بلقب « أمير » [٣] ، ثم ما لبث هذا اللقب أن تحول بعد حين إلى « سلطان » . وإذا كان لهذه الأسرة الحاكمة من أثر فبأنها فتحت الطريق إلى الهند ، وحاولت جهدها مساعدة الخليفة ، وجذبت إلى بلاطها الأدباء والعلماء .

### ٥ – السلاجقة : ٤٤٣ - ٥٥٢ هـ = ١٠٥١ - ١١٥٧م

أ – نشأتهم : كان العصر السلجوقي عصراً ذهبيّاً في الشرق الإسلامي ، إذ تضامّت الدويلات والمناطق تحت إمرة واحدة ، واتّحدت بلادُ فارس مع غيرها بعد أن كانت مشقّقة [٤] ، وعلت مكانة الخليفة العباسي السني في بغداد، وطال أمد بقائه، وتأسست دولة واسعة في آسِية الصُّغرى بعد أن كانت الثغور العربية تهدَّد بالهجمات البيزنطية . ولن ننسى طبعاً أن هذه الدولة التي وحدت الشرق والجزء الأعظم من الأراضي العربية والفارسية ، إنّما هي تركية

---

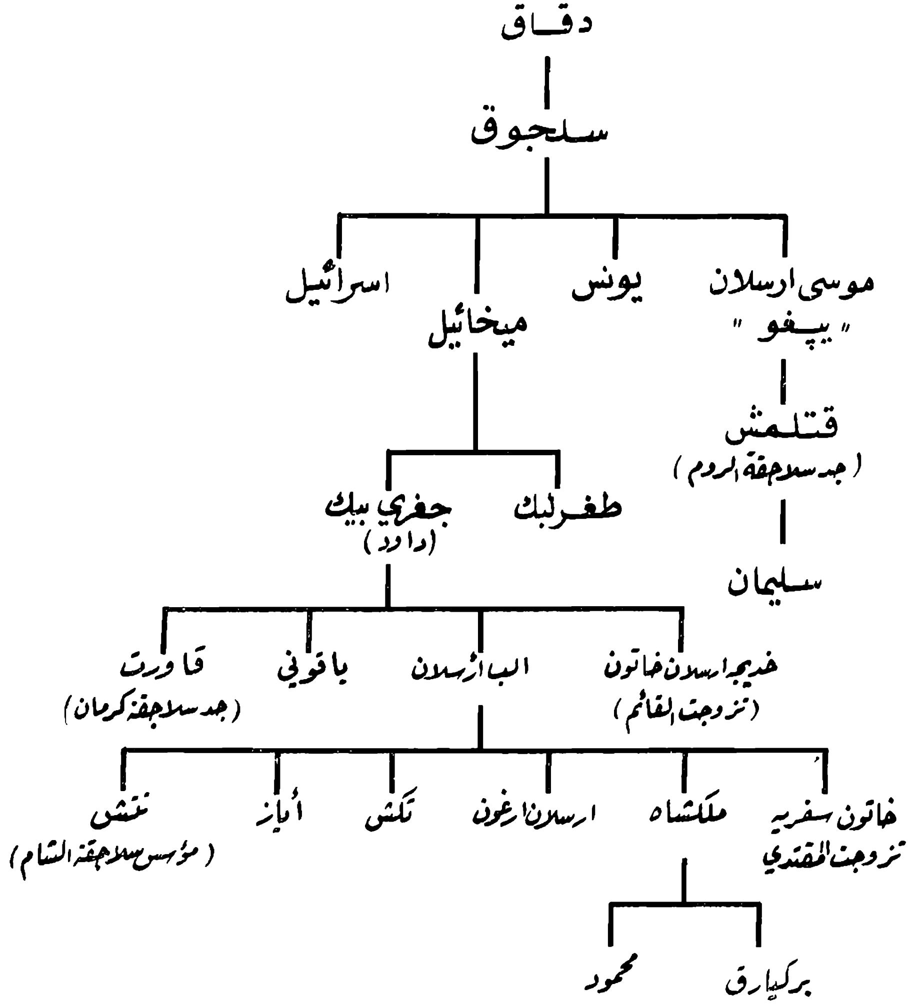
(١) الكامل ، حوادث سنة ٤٤١

(٢) الموسوعة الاسلامية : مادة ( غزنويون ) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) تاريخ الأدب في إيران : ٢٠٧ عن كتاب Mohammedan Dynasties

شجرة بأهم سلاطين السلاجقة



لا تعرف العربية ولا الفارسية [١] . وقـــد ساعدهم على ذلك وحدة صفوفهم وجرأةُ قوادهم وصدق طموحهم .

كان السلاجقة يُعرفون بالأتراك الكفّار أيام الفتوح العربية ( في القرن الثامن الميلادي ) ، وكان مقرّهم الأطراف العُليا لبلاد ما وراء النهر والصحارى المجاورة لبحيرة أُورال ( بحيرة خوارزم ) والسواحل الشرقية لبحر الخزر [٢] . وتحدّثنا كتب التاريخ أنهم في هذا القرن اخترقوا « سَمَرْقَنْد » بشكل بُداةٍ مُتنقّلين ، ولم يأت القرن العاشر حتى كانوا من أكثر قبائل الترك حيويّة [٣] .

وقد ادّعى السلجوقيون أنهم من نسلٍ ملكي مشهور ينتهي إلى « أفراسياب » [٤] . ويَنتسبون إلى جدهم « دِقاق » ( تِقاق ) الذي حمل لقب « تَيْمور يَلك » ( ومعناه : القوس الحديدي ). كان دقاق هذا أحد رؤساء قبيلة الغز التركية وصاحب العزيمة المتينة والكلمة النافذة [٥] . والواقع أنّ المراجع عن أصل السلاجقة ومنشئهم ضحلة ، ويكتنفها الغموض حتى أوائل القرن الحادي عشر ، لذا فإننا نجدُ « ألْبْ أرْسلان » يأمر أحد الكتّاب بالبحث عن أصلهم ، وتأليف كتاب شامل في ذلك ، فألّف له « مُلك نامه : كتاب الملك » إلا أن هذا الكتاب ضاع بعد فترة وجيزة من تأليفه . ومن حسن الحظ أن المؤرخين نالوا منه بعض الفائدة [٦] .

ويُحدّثنا صاحب « مُلك نامه » أن « دقاق » التحق بأمير الخزر اليهودي ( ! ! ) ثم ما لبث أن ارتقى في جيشه إلى مرتبة القائد ، لكنه مات ، وهو ما زال في

(١) فرهنگ فارسي : ٥/٠٨٧
(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٢
(3) The Seljucks : 26
(٤) فرهنگ آنندراج مادة ( سلجوق ). أفراسياب أحد الأبطال الأسطوريين في الشاهنامة.
(٥) ديوان لغت ترك للقشگري : ٥٦/١
(6) Pre - Ottoman turkey : 20

ريعان الشباب فأشفق أمير الخزر على « سلجوق بن دقاق » اليتيم ،فوضَعه تحت حمايته ، وربّاه تربية تؤهّله لأن يكون عضواً في بلاطه . وبعد حين ظهرت عليه أمارات النجابة، ومخائل التقدّم والفروسية فأسند إليه حاكم الخزر قيادةَ جزء من جنده. ويبدو أن هذا الأميرَ الفتى لم يكن راضياً عن هذه النشأة، لأنه أحسّ ، فيما بعد ، أن زوجة الأمير الخزري تكيد له ، وتُوغِر صدرَ زوجها عليه كي يطردَه من مملكته [١] ، فأزمع عندئذ على الابتعاد عن بلاد الترك [٢] . وعرض « سلجوق » على شعبه فكرة الرحيل والانفصال عن مملكة الخزر سنة ٣٧٥هـ = ٩٨٥ م [٣] ، فوافقوه وتبعوه إلى « جَنْد » [٤] على شواطىء نهر سَيحون ، خاصة وأنّ المراعي ضاقت بأنعامهم ، والديار لم تعد تكفيهم . فاتّخذوا منازلهم في الشتاء « نور بُخارا »[٥] وفي الصيف«سُغدِ سَمرقند»[٦].

وقد كانت هذه المناطق تَدين بالإسلام ، وواقعةً تحت سيطرة المسلمين . فمال قلبه إلى الإسلام من جرّاء الاحتكاك المتواصل بهذه الشعوب ، فدخله مع أبنائه وأبناء قبيلته [٧] على المذهب الحنفي [٨] ، في الوقت الذي أعلن فيه الايلكْخانيون ( القراخانيون ) إسلامهم أيضاً . ومات سلجوق في « جَنْد »

---

(1) The Seljucks : 28

(٢) كليات تاريخ إيران : ١٣٣

(٣) يقول كتاب « تاريخ العراق » بأنهم نزحوا سنة ٣٤٥هـ = ٩٥٦م . وربما كان رحيلهم على مراحل امتدّت بين هاتين السنتين .

(٤) جند : اسم مدينة عظيمة في بلاد الترك بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قرب نهر سيحون ( البلدان ).

(٥) نور : من قرى بخارا عند جبل ( البلدان )

(٦) راحة الصدور : ٢٤٥

(٧) الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢

(٨)تاريخ العراق : ٤٥

وعمره ١٠٧ سنوات [١] بعد أن أثبت في رئاسته حُنكة ويقظة وتقوى [٢] .

ويبرز أبناؤه الثلاثة : ميخائيل وإسرائيل وموسى [٣] . ويلمع نجمهم في الحروب التي جرت بين السامانيين والقَراخانيين. ويتزعّم ابنه إسرائيل مركز القيادة ويدّعي أحقـّيته بخُراسان . إلا أنّ هذا البطلَ سرعان ما أفَل نجمُه عندما أسره السلطان محمود ( كما رأينا قبل صفحات ) إلى أن مات في أسره [٤] هادفاً من وراء ذلك إلى إضعاف قواهم. ولكن قياسات محمود كانت خاطئة [٥] ، فقد أخذوا باحتلال بعض الأراضي الإسلامية كدامْغـان و سِمنان والري وإصبَهان ومراغـَه وبعض مناطق آذَرْبايْجان [٦] .

ويتبع هؤلاء الثلاثةَ في مطلع القرن الحادي عشر ثلاثةُ أبطال من السلاجقة هم : طغرلبك محمد ، وجِغْري بَيك داود ( وهما ابنا ميخائيل بن سلجوق ) ، وإبراهيم بن يِنال (أخو طغرل لأمّه ) . غير أنّهم ظلوا هادئين في «نوربخارا» ما دام « علي تِيجين القراخاني » قائماً على حكمه . وقد سمح لهم « هـارون بن ألـْتون تاش » ملك خوارزم بأن تبقى قبائلهم شتاء في أراضي خوارزم ، لانه وجد أنّ الكلأ لم يعد يكفيهم في خراسان [٧] . وقد كان السلاجقة يحترمـون طغرلبك ، ويرون فيه المقدرة وحسن التدبير [٨] ، فنصبوه زعيماً عليهم سنة

(1) pre - Ottoman turekey : 20

(٢) تاريخ أدبيات درايران : ٢/١٠

(٣) أنظر حديثنا « الوضع الديني » حول سبب وجود مثل هذه الأسماء بين الأتراك قبل إعلان اسلامهم . كما أن لهم أخاً رابعاً اسمه « يونس » إلا أن التاريخ أغفله لعدم وجـود نشاط خاصّ له .

(٤) راحة الصدور : ٢٥١ . مجمع البيان : ١/٤

(٥) تاريخ بيهق : ١٤٤

(٦) الموسوعة الاسلامية الفرنسية : مادة ( سلجوق ) .

(٧) تاريخ الأدب في ايران : ٢١٤ . Pre Ottoman . 21

(٨) راحة الصدور : ١٥٨ .

٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ [١] ولم يبق لهم إلاّ كسب اعتراف الخليفة العباسي في بغداد ليصبغوا حكمهم بصبغة شرعية بعد أن أحسّوا بتمركزهم في الشرق وباتّساع رقعة بلادهم .

وفي هذه الاثناء جرُؤ طغرل على أن يكتب إلى الخليفة بعد أن قدّم له الطاعة ، وطلب منه موافقته على الحروب . وأعلن السلطان السلجوقي دعمَه للخلفاء العباسيين ، فقلّده بعد عام « دِهِستان » و« فَراوة » ، وأرسل اليه الخلع الثمينة والمزركشة زركشةً تركيّة فاخرة [٢] .

وتتالت الحروب بين السلاجقة والغزنويين من جهة ، والسلاجقة والقَراخانيين من جهة أُخرى . وكان السلاجقةُ ، إثر كل معركة ، يغنمون بعض الأراضي فيتقوّون بها وبما يغنمون ، فقد كتبوا إلى مسعود يطلبون الأمان ، ويعرضون عليه مقابل ذلك مساعدتهم ، إلا أنّ جوابه لهم كان بارسال الجنوش لحربهم وتشتيت شملهم . فالتقى الجمعان بمعركة « دَنْدانقان» سنة ٤٣١ هـ — ١٠٤٠م ، فكانت هذه المعركة من أعنف المعارك بينهما ، ومن أشهر الأحداث التي رفعت من معنويات السلاجقة . فقد خسر مسعود فيها خسائر لا تقدّر ولا تعوّض ؛ فبعد أن ظفر الغزنويون في المعركة وانشغلوا بجمع مغانمهم داهمهم « داود » بعد أن وحّد شمل جنوده المنهزمين ، وأوقع بهم واستردّ ما فَقد وربح الكثير . وعاد المنهزمون إلى نيشابور يشرحون لمسعود قوة خصمهم ، فندم على ردّه طاعَتهم ، وعلم أنّ هيبتهم قد تمكّنت من قلوب عساكره ، فخاف من أخوات هذه الحادثة ، فأرسل إليهم يتعهّد لهم ويتوعّدهم [٣] ، ثم ما لبث أن غيّر

---

(١) يشير الراوندي في « راحة الصدور » إلى أنه تولى السلطنة سنة ٤٢٤ هـ .

(٢) تاريخ الأدب في ايران : ٢١٤ . The Seljuks : 29

(٣) تاريخ الأدب في إيران : ٢١٥

سياسته معهم وقدّم لهم المواعيد الجميلة والخلع النفيسة ، وأمرهم بالرحيل إلى « آمل الشط »[١] بعد أن أقطعهم بعض المدن ، ولقّب كل واحد منهم بلقب « دِهْقان ». وبعد أن استخفّ السلاجقة بالرسول وبالخلع [٢] تابعوا طريقهم في الفتوح ، فاستولوا بقيادة « طغرلبك » على نيشاپور ، وخطبوا له على منابرها ، كما خُطب لأخيه « داود » في مرو . ولم يأتِ عام ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م حتى احتلوا طَبَرستان والجبال وخَوارزم . وبعد حين قصير استطاعوا القضاء على الدولة البُويهية بفارس . ولما كانت وجهتهم في الفتوح العراق ، فقد اتّخذوا حاضرة جديدة هي الري ثم غيّروها إلى إصفهان [٣] . وكأنّ الخليفة أحسّ بمستقبل هذا البطل التركي الجديد ، فاعتبره مُنقذ السلطنة . لذا فإننا نراه يرسل إليه البعوث تشكو جور المتنفّذين حوله[٤] .

ب – طغرلبك : كان من نتيجة استنجاد الخليفة بآل بويه سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م أن وقع تحت سيطرتهم لتظلّ هذه السيطرة قائمة حتى سنة ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م ، نعني حتى تسلّط السلاجقة على بغداد . وقد تدخّل البويهيون في شؤون الخليفة حتى غدا لعبةً في أيديهم ، يقلعون عيناً له أو اثنتين ، أو يصادرون أملاكه أو يحرمونه من الموظفين المساعدين ، وسبب ذلك أنهم كانوا يعدّون الخليفة العباسي غاصباً للخلافة وليس صاحب حق [٥] .

ولذا كان من الطبيعي أن يرغب الخليفة القائم (٤٣٣ هـ – ٤٦٨ = ١٠٣١ م

---

(١) آمل الشط : مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد إلى بخارا من مرو ، وتسمى آمل زمّ وآمل جيحون وآمل المفازة ( البلدان ) .

(٢) الكامل حوادث سنة : ٤٣٢ .

(3) History of Islamic Peoples : 172

(٤) الموسوعة الاسلامية مادة (سلجوق ) ،

(٥) المرجع السابق مادة (بويه ).

–١٠٧٥ ) في حماية هذا السلطان الذي ظهر في الشرق عن حماية الملك البويهي الذي جرّده أحدُ قوّاده الأتراك ، واسمه البساسيري [١] ، من كل سلطة له [٢] .

وكان الخليفة في ذلك الحين يترصّد دنوّ طغرل من العراق ، ويترقّب أخبار انتصاراته ليتيسّر له الاستنجادَ به . ولم يصل طغرل إلى « حلوان » ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م حتى أمر أن يُخطب له على المنَابر ، وتُبعث إليه الوفود مستنجدة به [٣] . ولقي هذا النبأ في نفس طغرل تلاؤما ، إذ أنه لما وجد أنّ سلطته بلغت هذا الحدّ تداعى إلى مخيّلته أن يستولي على الشام ومصر ليخلّصها من يد الفاطميين [٤] . فأظهر طغرل أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر وإزالة « المستنصر » العلوي . فعظم الأرجاف ببغداد ، وفتّ في أعضاد الناس ، وشغب الأتراك في المدينة وأخرجوا خيامهم إلى ظاهرها قبل مجيء السلطان . ولما أراد « الملك الرحيم البويهي » أن يهرب خوفاً عاد إلى بغداد بعد أن وصلته رسالة من الخليفة القائم بأنّ البساسيري خلع الطاعة ، وكاتب الأعداءَ ( يعني الفاطميين ) ، وأن الخليفة له على الملك عهود ، وله عليه مثلها. فإن آثره فقد قطع ما بينهما .وإن أبعده ودخل إلى بغداد تولّى الديوان تدبير أمره [٥] فقال الملك الرحيم : « نحن لأوامرِ الديوان متّبعون ، وعنه ( البساسيري ) منفصلون » [٦] .

---

(١) اسمه أرسلان وكنيته أبو الحارث . وهو مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة ، وقد تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور ، وهو منسوب إلى « بسا » مدينة بفارس . ( الكامل حوادث سنة : ٤٥٠ ).

(2) History of Islamic Peoples . 172 .

(3) The Seljuks . - History of Islamic Peoples . 172 .

(٤) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي ١٥٠

(٥) تاريخ الأدب في إيران : ٢١٦ .

(٦) الكامل حوادث سنة : ٤٤٧ .

وفيما كان يقترب طغرل من بغداد ، كان البساسيري يهرب عنها[١]. ثم أرسل طغرل إلى الخليفة يستأذنه بدخول بغداد فأذن له ، واستقبل استقبالاً مهيباً . ومع أنّ طغرلبك وعد الملك الرحيم بعدم التعرض له ، فانه أحبَّ استئصال شأفة البويهيين كيلا يكون له قسيم في الخطبة والالقاب، فأسره[٢] في قلعة « السيروان » ( وقيل في قلعة طبرك ) بالري إلى أن مات ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، وانتهى بذلك سلطان بني بويه من حكم فارس والعراق[٣] . وأمر أهل الكرخ ( وهم من الشيعة ) أن يؤذّنوا في مساجدهم سَحَراً : الصلاةُ خيرٌ من النوم[٤]، وهو أذان أهل السنّة .

أما أبو الحارث أرسلان البساسيري فقد كان ، في أيام الخليفة القائم بأمر الله ، مقدّم الأتراك. وكان هذا القائد يجرّع الخليفة الغُصص ويدعو للفاطميين. ولما دخل طغرل بغداد هرب البساسيري من وجهه إلى الشام . واختبأ في الرحبة [٥] ، وظل على اتصاله بالمستنصر الفاطمي الذي كان يرسل إليه العون والمَدد [٦] .

ولما طال مقام طغرلبك ببغداد ، وعمّ الخلقَ ضررُ عساكره ، وضاقت على الجند مساكنهم نزلوا إلى المدينة ، وعاثوا فيها فساداً ، وارتكبوا كل محظور . فغضب الخليفة وطلب من السلطان إخراجهم . مما اضطرّه لأن يجمع جنده

---

(١) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٥ .

(٢) الغريب أن مؤلف « خلاصة الذهب المسبوك » قال إن الذي قبض عليه طغرلبك هو بهاء الدولة ، في حين أن هذا الأخير حكم قبل ثلاثة ملوك من آل بويه ( انظر ص : ٢٦٥ ) ،

(٣) تاريخ الدولة السلجوقية : ٢٠

(٤) الكامل حوادث سنة : ٤٤٧

(٥) تاريخ الدولة السلجوقية : ١٨

(٦) تاريخ العراق : ٦٥

ويخرج لفتح تكريت والمَوصل . أما البساسيري الذي راسل الخليفةَ الفاطمي وأنفذ إليه المال الكثير ، فإنه أعدّ العدّة ليحارب طغرلبك ، غير أنه هرب مع بعض قواده إلى بادية الشام خوفاً من بطش طغرلبك [١] .

وبعد أن فتح طغرلبك الموصل سلّمها إلى أخيه إبراهيم بن ينال ( اينال ) ثم عاد إلى بغداد ، فاستقبله رئيس الرؤساء مع هدايا الخليفة ، فأبلغه شوق سيده إليه . ولما زاره ولاّه « جميع ما ولاّه الله من بلاده ، فطلب إليه أن ينشر العدل ويصلح الرعيّة [٢] ».

غير أنّ « إبراهيم بن ينال » غادر الموصل نحو بلاد الجبل ليعلن نفسه أميراً على همذان ، فنسب طغرل رحيله إلى العصيان [٣] ، كما تحكي بعض الكتب التاريخية نبأ تواطؤ جرى بينه وبين البساسيري والفاطميين [٤]. فسار السلطان في أثره سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م حتى تمكّن منه وخنقَه بوتر قوسه [٥] ، قرب الري . والواقع أن الوحشة بين الأخوين تعود إلى سنة ٤٤١ هـ = ١٠٤٩م عندما رفض إبراهيم تسليم همدان إلى أخيه طغرل . غير أنه عاد فعفا عن أخيه ، وخيّره بين أن يقطعه بلاداً يسير إليها وبين أن يقيم معه ، فاختار المقام معه [٦] .

أما البساسيري فإنه استغلّ خروج إبراهيم من الموصل ليدخلها ، وليخطب

---

(١) الكامل حوادث سنة : ٤٤٧

(٢) الكامل حوادث سنة : ٤٤٩ ، راحة الصدور : ١٧٣

(3) The Selgukes . 31

(٤) مجمع البيان : ٢/٥

(٥) الكامل حوادث سنة : ٤٥٠ ، History of Islamic peoples . 172

(٦) الكامل حوادث سنة : ٤٤١ ، وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٥ .

للخليفة المستنصر الفاطمي فيها [1] ، ثم ما لبث أن نزل إلى بغداد وقتل رئيس الرؤساء ، ونفى الخليفة إلى الشمال . وقد كانت العامة مع البساسيري ؛ فأمّا الشيعة منهم فللمذهب ، وأما السنّة فلِما فعل بهم الأتراك [2] . وقد مدحه ابن بحر البغدادي ، ووصف فوزه على العباسيين . فقال :

أجلْ لعَمري صدقَ ٱلقائلُ     إنّك حقٌّ وهمُ ٱلباطلُ
قد جاءتِ الراياتُ مبيضّةً     يقدُمهُنّ الأسدُ ٱلباسلُ
أنظر إلى ٱلباغي على جذعه     والدّمُ من أوداجه سائلُ [3]

ولما فرغ السلطان من أمر أخيه عاد يطلب العراق ، وليس له همّ إلا إعادة القائم إلى داره . ولمادخل على الخليفة اعتذر عن تأخّره بعصيان إبراهيم ، وأنّه قتل أخاه عقوبةً لما جرى منه من الوهن نحو الدولة العباسية ، ووعده بقتل البساسيري الهارب [4] . ثم أرسل جيشاً يتعقّب البساسيري فظفروا به عند واسط وقتلوه سنة ٤٥١ هـ =١٠٥٩ م بعد أن أقام عاماً في بغداد [5] . وهكذا هدأت بغداد إلى حين ، وعاد إلى الخلافة رونقُها واعتبارها [6] .

وقد بلغ من حرص القائم على التقرّب من السلاجقة أن طلب يد « خديجة أرسلان خاتون » ابنة « داود » أخي « طغرلبك » عام ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م [7] ،

(١) تاريخ الدولة السلجوقية: ٢٠
(٢) الموسوعة الإسلامية الفرنسية : مادة (سلجوق) ، الكامل حوادث سنة : ٤٥٠
(٣) دمية القصر : ٣٧١/١
(٤) خلاصة الذهب المسبوك : ٢٦٥
(٥) تاريخ الدولة السلجوقية : ٢١
(6) The Seljukes . 32 . تاريخ الأدب في ايران: ٢١٦
(7) The Seljukes . 32

وتزوّجها في العام نفسه [1] . غير أنّ الزّهوْ الذي كان ينعم به طغرلبك ، ويعتمل في نفسه َحداهُ لأن يخطب ابنة الخليفة [2] في أثناء زيارتِه الثانية لبغداد تقرباً من آل البيت ، فاضطرب فكر الخليفة لهذا الطلب ؛ إذ أنّه ، وإن تزوّج ابنة أخيه ، يريد أن يضمن مساعدته . أما طغرلبك فلم يكن بنظره أكثر من رجل تركي محدث النعمة ، أضف إلى ذلك أنّ طغرل رجل عجوز وعقيم . وأمام إصرار طغرل وافق الخليفة شريطة أن يدفع طغرل ٣٠٠ ألف دينار ،ويسلّم واسطاً وأعمالها . وتمّ الزواج وفق الطقوس التركية [3] . إلاّ أنّ الموت داهم السلطان سنة ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م قبل دخوله على عروسه في الري إثر مرض ُعضال ،عن عمر ناهز السبعين [4] . فعادت السيدة العباسية إلى بيت أبيها حاملةً ِصداقَها [5] .

ج – وزراؤه : لقد قصّر التاريخ في التعريف باثنين من وزرائه الأربعة ، وفصّل في الأخيرين، وهما : عميد الملك الكُنْدُري ونظام الملك [6] .

ولم يلمع نجم نظام الملك في فترة طغرلبك لأنّه كان في بادىء الأمر تحت إمرة الكندري . أما هذا الأخير فقد شارك طغرلبك عشرين سنةً في الأمور

---

(١) الكامل حوادث سنة : ٤٤٨ ،والقائم هو أبو جعفر عبد الله بن عبد القادر ، ولد ٣٩١ وتوفي ٤٦٧ هـ وعمره ٧٦ سنة ، ودامت خلافته ٤٤ سنة وعدة أشهر ( الكامل حوادث : ٤٦٧ هـ خلاصة الذهب المسبوك : ٢٦٤ ) .

(٢) يذكر الراوندي أنّ العروس أختُ الخليفة ( راحة الصدور : ١٧٦ ) . وبراون يعتقد أنها أخته (تاريخ الأدب في ايران : ٢١٧)

(3) The Seljukes : 36 .

(٤) الكامل حوادث سنة : ٤٥٤ – ٤٥٥ ، كليات تاريخ ايران : ١٣٢ . تاريخ الأدب في ايران : ٢١٧ .

(٥) تاريخ العراق : ٧١ ، راحة الصدور : ١٧٨ .

(٦) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٣٧.

الإدارية . وتُعزى انتصاراته إلى حنكة وزيره [١] منصورِ بن محمد عميد الملك الكُندري الذي ولد سنة ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م في قرية كُنـدُر من ضواحي نيشابور ، والذي كان في أيام الكتّاب لامعاً من بين تلامذة الإمام الموفق . ولمّا مرّ طغرلبك بنيشابور ، طلب من الإمام الموفّق هبة الله شخصاً فصيح اللسانين العربي والفارسي ، فقدّم له الكندريَّ . ولما كان بعدُ فتىً فقد وظفه في ديوانِ الأشراف ، ثم ولاّه خوارزم . وفيما كان السلطان هناك وصل إلى سمعه أن الكندري يخونُه مع بعض نسائه ،فخشي الوزيرُ مغبّةَ الأمر . وحتى يُبرّئ ساحته جَبَّ مذاكيره إعلاناً منه عن ولائه لسيده [٢] ، فمُدح شعراً لوفائه ، وردَ بعضُه في الدمية وبعضُه في معجم الأدباء [٣] .

ولما مات طغرلبك أجلس عميدُ الملك الكنـدري « سليمانَ بن داود » (ابن أخي طغرل ) على كرسي السلطنة ، لأنّ طغرل كان قد عهد الملك إليه ، ولأنّ والدتَه كانت في تلك الأثناء زوجة لطغرل . غير أنّ بعض القواد رفضوا ذلك وذهبوا إلى قزوين ، وخطبوا لعضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود ( حكم من ٤٥٥ هـ – ٤٦٥ = ١٠٦٣ م– ١٠٧٢ م). وهو حينئذ بخراسان ومعـه وزيره نظام الملك.فاستغلّ نظامُ الملكهذا الموقف ليعلن أن مولاه هو الوريثالحق [٤] ولما رأىالكندرياِنعكاس الحال عليهأمر بالخُطبة للسلطان ألب أرسلان،وبعده لأخيه سليمان سنة ٤٥٥ هـ. غير أن نظام الملك تخوّف من كيد الكندري فحثّ السلطان على التخلّص منه ، فقتله سنة ٤٥٦ هـ [٥] . وهكذا برز نظام الملكإلى الوجود بصبغة وزير أول للسلطان الحاكم ، وكداهية يُرهب جانبه .

---

(١) كليات تاريخ ايران : ٣٧ .
(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقى : ٤٣ .
(٣) انظر تفصيل ترجمته في دمية القصر ومعجم الأدباء.
(٤) الكامل حوادث سنة : ٤٥٥هـ–٤٥٦
(٥) تاريخ الأدب في ايران :٢١٨

د - فتوح طغرلبك: لم يتوقـّف طغرلبك مدة حكمه عن الفتوح والحروب، فلم يكتفِ بأن يضمّ بلداناً هو وإخوته[1]، بل كان ينهي حكم الدويلات التي تعترض طريق فتوحه كالدولة الزياريّة في جرجان والبويهية في إصفهان وفارس والعراق [2]، أو يحدّ من نشاط بعضها كالدولة الغزنوية ليوسع إمبراطوريتـه. ولم تمضِ عشر سنوات حتى غدت بلاده (واخوته تابعون له) تمتدُّ من شواطىء البحر الأسود إلى شواطىء نهر جيحون، ومن شواطىء بحيرة خوارزم إلى بحر عُمان [3].

ولما قدم بعض الغزّ من بلاد ما وراء النهر قال لهم إن بلاده تضيق عن مقامهم، والرأي أن يمضوا إلى غزو الروم (ويجاهدوا في سبيل الله)، وأعلمهم أنه صائرٌ إليهم. وهذا ما تمّ، فقد ساروا بين يديه، وتبعهم إلى إرْمينية، واقتتلوا مع عسكر الروم، ففتح طغرلبك «ملازگرد» (وتسمى منزيكرت) و«أرْزَن الروم» و«قاليقلا». وقد جاست جيوشُه أرض الروم حتى لم يبق لهم إلى القسطنطينيّة غير خمسة عشر يوماً، وكان القائد إلى هذه الجهات أخاه إبراهيم سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م[4]. ولم يدخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلا كانت أهم الأراضي في الشرق تحت إمرته وسلطانه.

وقد بلغت الامبراطورية في عهد «ألب أرسلان بن جغري» أقصى ما وصلت إليه مساحة البلاد شرقاً وغرباً. ونراه بعد أن قامت الثورات الداخليّة ضده[5] لم يتوقف ساعةً عن فتوحه، ففتح صيران وجَنَد (وفيها قبر جده

---

(1) The Seljukes : 30

(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٤

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الكامل حوادث سنة ٤٤٠ و ٤٤٦

(٥) راحة الصدور : ١٨٨

سلجوق ) سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٤ م [١] . ثم نراه في سنة ٤٦٢ هـ = ١٠٦٩ م يحارب الروم[٢] حرباً شعواء يأسر فيها امبراطور الروم. ويحتلّ « مَلاّزگرد » ( مَنْزِيكَرْت ) [٣] مستغلاً بذلك ضعف الجيوش البيزنطيّة وتفكّكها. وسرت البشرى بهذه الفتوح في البلاد. فسرّ المسلمون، وقُرىء كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة. فأرسل الخليفة ثناءً لألب أرسلان على فتوحه وانتصاراته وقد أيقن ألب أنّ النصر في « منزيكرت » فتح الطريق للسلاجقة [٤] إلى آسِيَةَ الصُّغرى.

ثم إنه احتلّ حلب، بعد أن جعل طريقه على ديار بكر [٥]. كما اقتحم « اتسِيز » (قائد جيوش الب) فلسطين، وانتزع من يد الفاطميين رام الله والقدس وسواهما من المدن حتى « عسقلان » جنوباً[٦].

وقد كانت معركة « منزيكرت » آخر معركة كبيرة قام بها « الب أرسلان » فعندما عبر نهر جيحون ٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م لاسترجاع ملك آبائه قتله أحدُ الثوار الخوارزميين[٧] واسمه يوسُف. فبعد أن انتصر الب على الثوار، وأسر يوسف معهم أثاره بسخريته وتقريعاتِه[٨]، ممّا حدا بألب لأن يضربه بسهمه، إلا أنه أخطأ الهدف وطاشت الرمية، فاستغلّ يوسف خطأ الب، وهجم عليه

---

(١) الكامل حوادث سنة : ٤٥٧

(2) History of Islamic Peoples , 173

(٣) كليات تاريخ ايران : ١٣٤

(4) The Seljuks . 39

(٥) الكامل حوادث سنة : ٤٦٣

(٦) تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٣٣ ، وزارت در عهد سلاطين سلجوقي: ١٦

(7) History of Islamic Peoples , 173

(٨) الكامل حوادث سنة : ٤٦٥

فقتله بسكين كانت معه [١] .

وبقتله توقّف نشاط السلاجقة ( الفرس ) لتتّجه الأنظار إلى سلاجقة ( الروم ) . ومع أنّ اثنين من خلفائه ( وهما ملكشاه وبَرْكِيارُق ) تربّعا على رئاسة كرسي العائلة المالكة وأثبتا بعض الجَدارة ، فإن دَورهما لم يكن مُهمّاً في التاريخ . ولولا وجود نظام الملك والحشاشين في زمان ملكشاه لما كان ذكره لازماً [٢] .

وقبل أن يقتل الب أرسلان أخذ العهود على الأمراء والحاشية لولده ملكشاه بأنه السلطان بعده سنة ٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م ،وأمر بالخطبة له في جميع البلاد التي يحكمها ، وأقطع البلاد ووزّعها على أبنائه واخوته وخاصّته بعد إذ وافقوه على ولاية العهد [٣] . وفي سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م ، أي قبل مقتله بسنة ، أرسل السلطان الب إلى الخليفة يستأذنه بأن يجعل ولده ملكشاه وليّ عهده ، فأذن ، وسُيِّرت إليه الخلع مع عميد الملك الكندري ، وأمر عميدَ الملك أن يخطب ابنة السلطان الب أرسلان من « سِفرى خاتون » لوليّ العهد المقتدي بأمر الله ، فأجيب الطلب ، وتمّ الزواج بظاهر نيشابور [٤] .

تبع ملكشاه[٥] ( ووزيره نظام الملك ) سياسة أبيه [٦] في الفتوح شرقاً وغرباً ، فقد أمر أخاه «تُتُش» أن يتمّ فتح بلاد الشام سنة ٤٧٠ هـ=١٠٧٧م ، ويحتلّها من يد الفاطميين فنشأت بدمشق وبيت المقدس امارتان ثانويتان ،

---

(1) The Seljucks :40 . وانظر راحة الصدور . تاريخ الأدب في ايران : ٢٢٣

(2) The Seljucks : 40

(٣) الكامل حوادث سنة : ٤٥٨ . تاريخ الأدب في ايران : ٢٢٤

(٤) المصدر نفسه : ٤٦٤

(٥) حكم ملكشاه من ٤٦٥ – ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ – ١٠٩٢ م

(٦) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة (سلجوق) ، كليات تاريخ ايران : ١٣٤

خاضعتان لسلطانه ، عُرفتا بسلاجقة الشام[١] . كما توجّه ابن عمه « سليمان بن قتلمش » إلى آسية الصغرى ابتغاء فتحها [٢] ، وأخضع لأمره منطقتي « سمرقند » و « وكاشغر » سنة ٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م .

ولعلّ حدثاً مهمّاً برز في حياته ربط حكمه في التاريخ أكثر من أبيه ، هو بروز شخصية كبيرة في وزارته هي شخصية نظام الملك ، فمع أنه كان وزير أبيه أيضاً إلاّ أن نجمه لم يلمع آنئذ. أو أنّ شخصيته أقلّ تألّقاً من شخصية الب ، أو أن فكره لم ينضج بعد. فقد تحكّم في مدى علاقة السلطان بالخليفة كما أنه وضع قصر الخلافة نفسه تحت مراقبة موظفين مُمالئين له [٣] . ومع أن ملكشاه سلّمه أمور الدولة كلها ، واعتبره والداً له ، ولقّبه ألقاباً[٤] من جملتها « أتابك »[٥]، فإنّ خلافاً نشأ بين السلطان والوزير أساسه استطالة نظام الملك في أمور البلاد ، وخروج الأمر من يد السلطان ( تماماً كما حصل لهارون والبرامكة ) إلى يد الوزير الذكي المدبّر . وتتّسع شُقّة الخلاف ، ويتفاقم الأمرُ عندما يرفض رغبة « تركان خاتون » ( ابنة طمغاج خان بن بُغراخان » بتعيين ابنها الصغير محمود وليّاً لعهد زوجها ملكشاه ، لأنه كان يرغب في تعيين الابن الأكبر وهو « بَركيارُق » ( من زوجة أُخرى ) .

وكان من نتيجة هذا الخِلاف أن أُزيح نظام الملك عن الوِزارة ، وعيّن

---

( ١ ) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة (سلجوق) ، كليات تاريخ ايران : ١٣٤

(2) History of Islamic Peoples . 178

(3) » » » » . 173

( ٤ ) الكامل حوادث سنة : ٤٦٥ هـ

( ٥ ) أتابك ، لفظة تركية ، وهي لقب كان يلقب به مُربّو أبناء ملوك السلاجقة . والكلمة مركبة من أتا : أب + بيك : كبير أي المربي الكبير ( المعجم الذهبي). ويعدّ نظام الملك أول من لقب بهذا اللقب في عهد السلاجقة ( الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة سلجوق ).

مكانه « تاج الملك أبو الغنائم القـُمّي » ، وهو المقرّب لدى تركان خاتون [١] ، والمنصاع لأوامرها . ولم تمض فترة طويلة على نشوء الاختلافات حتى لقي نظام الملك حتفه في رمضان ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م على يد شاب ديلميّ هو فرد من أفراد الحشاشين الاسماعيليين ( وكان عمره آنئذٍ ٧٦ سنة ) [٢] في مكان اسمه « سِحْنة » [٣] قرب « نَهاوند » في أثناء سفره من بغداد إلى إصْفَهان [٤] .

ولقد اختلف المؤرخون في تعليـل أسباب مقتله ؛ فيذهب بعضهم إلى أنّ هذا الفتى الاسماعيلي كان موظفاً تابعاً له ، ولمّا سرّحه السلطان مع مَن سرّح ليعيّن مكانهم أشخاصاً تابعين لتاج الملك اغتاظ، ولما كان نظام الملك سبب ذلك فقد قتله . ويعزي الكتّاب المعاصرون عادةً موته إلى دسائس ملكشاه وتاج الملك ( الوزير الجديد ) ، ويؤيد رأيهم ما كتبه المؤرخ رشيد الدين الذي توفي سنة ٧١٨هـ = ١٣١٨م إذ يقول : إن أعـداء الوزير في البلاط ، وأغلبهم من الشيعة ، دبّروا أمر اغتياله بالمشاركة مع الحشاشين . ومما يَحدونا على موافقـة هذا الرأي تمكّنُ رشيد الدين من الوصول إلى سِجلاّت الاسماعيليين في قلعة « ألـَموت » [٥] .

ويُعتبر الخواجه نظـام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي الوزير الشاعر أبرز شخصية فارسية في حكم السلاجقة . ولقد وُلد في

---

(١) الدراسات الأدبية ص : ٦٨ ، العدد : ١ ، السنة : ١٩٦٧

(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٥١

(٣) الدراسات الأدبية : ٦٨ ، و « سحنة » بلد بالقرب من همدان ( البلدان ) .

(٤) وفيات الأعيان : ١/٧٩٧ ، The Cambridge History of Iran: 102

(5) The Cambridge History of Iran 102 - 103

٢١ ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ = ١٠١٨م[١]، ونشأ في قرية « راذَكان»[٢]بناحية طوس ، حيث كان والده جابياً للدولة الغزنويّة . ثم نراهُ بعد حين تلميذاً لدى هبة الله الموفّق يدرُسُ عليه القرآن والحديث والفقه الشافعي[٣] ، ثم ما يلبث أن يلحق بأبيه إلى غزنة ، ويشغل وظيفةً في أحد مكاتب الدولة . وبعد مضيّ عدة سنوات يترك خدمة الغزنويين ليتّجه إلى خدمة السلاجقة . فارتبط في بادىء الأمر بـ « چغري بيك » ثم دخل في خدمة « ألب أرْسَلان » ، الذي كان أميراً على خراسان . وقد استطاع أن يظفر بثقة ألْب أرسلان عندما غدا سيدَ الموقف في قضية تعيين مولاه ألب على عرش عمّه « طغرلبك » .

وقد دامت وزارته ثلاثين سنة[٤] من ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣م وحتى ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢م ، أما في زمان ملكشاه ( كما أسلفنا ) فقد غدا السيدَ الحقيقي لامبراطورية السلاجقة ، والمتمتّع بالصلاحيّات العامّة ، والمتدخّل في شؤون الخلافة . ومما يؤكّد نفوذه في بلاط بغداد[٥] طلبه من القائم إقصاء فخر الدولة عن وزارته فلبّى له الطلب[٦].

وقد عُدّ نظام الملك أشهر وزراء السلاجقة[٧] لسعيه في توسيع

---

(١) يعتبر البيهقي ولادته سنة ٤١٠ هـ في « نوقان » ( تجارب السلف : ٢٦٦ ) .

(٢) راذكان : إحدى قرى طوس وقيل : بُليدة ، ويقال إن الوزير نظام الملك كان منها ( معجم البلدان ) .

(٣) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٤٦

(٤) تجارب السلف : ٢٦٦ ، النجوم الزاهرة : ٥/١٣٦

(٥) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة ( نظام الملك ) .

(٦) عند حصوله من الخليفة القائم على لقب « قوام الدين » ولقب « رضيّ أمير المؤمنين » كانت علاقته بوزير الخليفة المذكور وطيدة . غير أنّ العلاقة تأزّمت بعد سنة ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨م .

(٧) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٤٣

الامبراطورية ، ولدهائه البارز في السياسة ، ولمدى تأثيره في النظم الادارية والاتجاهات الأدبية ، مما سنراه بعد حين .

وبعد مقتل نظام الملك سافر ملكشاه إلى بغداد ، ورشّح تاج الملك أبا الغنائم لشغل منصب نظام الملك. غير أن السلطان مات فجأة في ١٠ شوال سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢م ببغداد [١] ، ولمّا تتمّ مراسم تعيين الوزير الجديد . وليس ببعيد أن يكون السلطان مات مسموماً بفعل غلمان نظام الملك ، عندما أراد وضع تاج الملك مكانه . وحينما أرادت تركان خاتون ( زوجة السلطان ) تعيين تاج الملك وزيراً قتله غلمان نظام الملك وقطّعوه إرْباً إرْباً [٢] .

وبعد موت ملكشاه ومقتل نظام الملك أخذ مركز دولة السلاجقة ينحدر ويضعف ويتفكّك ، لانقسام أبناء ملكشاه فيما بينهم ، ولعدم اتّفاق أبناء نظام الملك من ناحية أخرى . فانقسمت الأمبراطورية إلى دويلات [٣]، كسلاجقة كرمان لأبناء « قاورت بن چغري بك » عم ملكشاه ، وسلاجقة الشام لأبناء تاج الدولة « تُتُش بن ألب أرسلان أخي ملكشاه »[٤]، وسلاجقة الروم لأبناء « سليمان » ابن عم ألب أرسلان . وكانت هذه السلالات جميعها تقدّم الاحترام ( اسماً على الأقلّ ) لأبناء ملكشاه كبركيارق وأخيه محمد ( سلاجقة العراق ).

ولكن موت سَنْجَر ٥٥٢هـ = ١١٥٧م وزوال بعض الأقسام المهمّة من الامبراطورية السلجوقية على أثر ظهور الأتابكة والخوارزمشاهين [٥] لم يعد

---

(١) تذكرة الشعراء : ٦٠ ، Cambridge History of Iran 102

(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٥١ ، وانظر تفصيل ذلك في الكامل ١٦٢/٨

(٣) تاريخ ادبيات در إيران : ١٩/٢

(٤) الكامل ، حوادث سنة : ٤٨٧

(٥) فرهنگ فارسي : ٧٨٢/٥

لهم أيـّة قيمة أو اعتبار .

وفي الوقت الذي كان يضعف السلجوقيّون فيه كان مركز الاسماعيليين الحشاشين يقوى وإرهابهم يشتدّ ، ويشيع الرعب بين الناس منهم [١] . وقد زالت سلسلتهم نهائياً بعد موت سَنْجَر بأربعين سنة ، ولم يبقَ في الميدان غير سلاجقة الروم [٢] .

(١) كليات تاريخ إيران : ١٣٥
(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٧

# الفصل الثاني

# الوضع الإداري[1]

**ضعف حكومة بغداد :**

رأينا مما مرّ أنّ ضعف الحكومة المركزيّة في بغداد بدأ منذ تدخُّل العنصر التركي في الحكم ، ومنذ أن أخـذت الدويلات والامارات ، في شرق البلاد وغربها ، تنشقّ عن جسد الخلافة . وإذا كانت بعض الامارات تابعة في إدارتها اسمياً إلى بغداد ، بأن يعيّن الوالي من قِبلها مثلاً ، فإنّ أغلبها سرعان ما انفصل في إدارته وحكومته عن الحكومة المركزيّة .

حتى إننا كنا نجد ، منذ مطلع حكومة البويهيين القويّة دويلات مستقلّة بإدارتها ، ولا تتبّعها إلاّ بالاسم أو بالسعي لكسب بعض الألقاب .

ومن البديهي ، إذاً ، أن نجد في القرنين الرابع والخامس الهجريين أن المركزية في بغداد تنهار تماماً أمام هجوم الدول النـاشئة الغريبة القويّة . ولا نغلو إذا قلنا إنّ المركزية نفسها غدت تابعة في إدارتهـا إلى رؤساء الدول الأخرى ، كما رأينا ( قبل صفحات ) تدخُّل نظام الملك في تعيين وزير الخليفة ، وفي خلعه أيضاً .

**الادارة في الدويلات المستقلّة :**

اضطرّت الدويلات المستقلة عن الخلافة ، كالدولة الحمدانية والسامانية ، أن تنظّم هيئة إدارية تدير أمورها وتسهّل سبل حكمها . فأخذت منهج بغداد في ذلك وأضافت عليه ما لاءَم وضعها .

ومع أنّ أغلب أمراء تلك الدويلات أغراب عن البلاد التي يحكمونها ، فإنهم كانوا يستعينون بأفراد الشعب المحكوم ، مكتفين برئاسة السلطنة وقيادة الجيوش أحياناً ، تاركين الأمور الأخرى لأربابها ، فهم أعرف منهم بها .

وتعتبر الدولة السامانية أكثر هذه الدويلات المستقلّة تنظيماً إدارياً. ويروي المؤرخون أن الأمير « نصرَ بنَ أحمد » بنى إلى جانب قصره ببخارا بناء (مجمّعاً) ضمّ مختلف الدوائر الحكوميّة ، وبهذا يستطيع أن يبقى على اتصال مباشر بالشؤون اليومية للدولة . وحسب قول « النَّرْشَخي » إنه كان هناك تسعة دواوين هي: ديوان الوزارة وديوان الاستيفاء وديوان المراسلات وديوان الشُّرطة وديوان البريد وديوان الاشراف وديوان أملاك الأمير الخاصة وديوان المحتسب والقاضي .

هذا الإكثار من الدواوين ، والعمل على تمركزهم في مكان واحد ، مقتبس بشكل واضح عن النظام الاداري ببغداد ، بعد أن مرّ بعدة تجارب إدارية حتى غدا محطّ أنظار المقلّدين . ومنذ حكم السامانيين كان هنالك أسر محلية تتعشّق العمل الإداري وتتوارثه كآل البَلعمي والعتبي ونظام الملك ( تماماً كأسر البرامكة والفراتيين ) [١] .

وقد دوّن الخوارزمي موسوعتَه [٢] ( مفاتيح العلوم ) في عهد السامانيين

(1) The Ghaznavids : 29

(٢) انظر حياته في معجم الأدباء : ١/١٠١ ، وفيات الأعيان : ١/٥٢ ، Brockelmann : 92

أوقدمها إلى بي الحسن عبيد الله العتبي وزير « نوح بن نصر » . ونستطيع أن نستخلص من هذه الموسوعة ، الحالة المتطوّرة والمعقّدة لدواوين السامانيين ، فيخبرنا أنّ لدى السامانيين في ديوانَي الخراج والجيش ستة وعشرين سجلاً رسمياً لتدوين المعاملات المالية والعسكرية [1] .

وما قلناه عن استقلال الأمراء إدارياً وعسكرياً بشأن الحكومة المركزية ببغداد نقوله هنا أيضاً ، فقد استقلّ عدد من القادة العسكريين ( الأتراك أو من أهل البلاد ) عن بخارا ، وأخذوا بتنظيم إدارات خاصة بهم وببلادهم ، مما سبّب في إضعاف جهاز الإدارة الساماني الرئيسي ، كما أضعف هـذا الاستقلال قبلاً جهاز إدارة بغداد .

وإذا كان الخليفة قد تسلّم الخلافة بالوراثة في بادىء الأمر ، فإنّ العناصر المتحكّمة في مصير بغداد كانت هي صاحبة الرأي الأول في إبقاء الخليفة أو في إقصائه . وحصل الأمر كذلك للدويلات المستقلّة ، فقـد كان الأمراء يرثون العرش كسيف الدولة وأبنائه ، أو الاخشيد وأبنائه ، إلاّ أننا سرعان ما نرى تدخُّل القادة الأتراك والعبيد في تعيين ولي العهد ، وتنحيته أو قتله واحتلال كرسيّه ، كما جرى لملكشاه في الدولة السلجوقية أو لكافور وما فعله بالأمير الاخشيدي الصغير ، أو قرغويه مع أبناء سيف الدولة .

وعندما برزت الدولة الغزنوية أخذت طريقة تنظيم إدارتها من الدولة السامانية ومن بغداد معاً . وإذا طوّرت في بعض الأجهزة فلاتّساعها ولحاجاتها الماسّة . ولم يتيسّر لهذه الدولةِ الابتكار في أجهزتها الإدارية لانشغالهـا في الفتوح والآداب ، ولانسحاب الجزء الأعظم من موظفيها الاداريين إلى أجهزة الدولة السلجوقية الفتيّة التي استقطبت الإداريين جميعاً ، كما فعل نظام الملك الذي كان

---

(1) The Ghaznavids : 30

يعمل لدى الغزنويين ثم انسحب إلى السلاجقة .

وإذا حكم السامانيون شعبهم فإننا نجد حكام هاتين الدولتين يحكون شعوباً لا يربطها إلا الرابط الديني. ولهذا فإننا نجدهم يتقرّبون بسهولة من الشعوب التي وضعوا أيديهم على أمورها ، وخاصة المسلمة منها ، واستفادوا من سكان المناطق بحيث شغّلوا تحت إمرتهم الكتاب والوزراء والقضاة [١]، وكان أغلبهم من الفرس ذوي اللسانين . ولهذا فإننا قلّما نجد فئة من الشعب تَضيق بجور أو تشعر بحرمان .

وقد كان الحكام تابعين لوزرائهم في الإدارة ، يصغون إليهم ويتّبعون إرشاداتهم [٢] . ويعتبر أفضل كتاب تكلّم عن الإدارة في زمان السلاجقة كتاب « سياسَتْنامه : كتاب السياسة » [٣] المنسوب إلى وزير السلاجقة الشهير نظام الملك . وقد كتبه بالفارسية بناء على رغبة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢م لكشف النقاب عن مساوىء الإدارة في الامبراطوريّة السلجوقيّة. وقد ألّفه فى واحد وخمسين فصلاً [٤]،مؤيّداً بالحكايات التاريخيّة والإرشادات الفنيّة ، ثم زاد عليه أحد عشر فصلاً قُبيل مقتله. ورسم فيه الحالة التي حلّت بالموظّفين ؛ فمع أنهم يأخذون مرتّباتِهم ، ويتناولون طعامهم اليومي مجّاناً ، إلاّ أنهم لا يؤمن جانبهم [٥] . كما درس جلوس السلطان للمظالم،وواجب القضاة والخطباء والمحتسبين ، وشرح كيفيّة أعمال كل واحد منهم . ونبّه في الفصل

---

(١) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٨

(٢) الموسوعة الاسلامية مادة ( نظام الملك ) .

(٣) تاريخ الأدب في إيران : ٢٢٩ . والكتاب صورة للادارة الغزنوية كذلك ، لعدم وجود اختلاف بين الادارتين .

(٤) يذكر براون أنه في خمسين فصلاً .

(٥) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة ( نظام الملك ) . تاريخ الأدب في إيران : ٢٦٠

السابع والأربعين على خطورة ما يهدد الامبراطوريّة من ويلات كالقرامطة والباطنيين والحشاشين ، وإلى انتشار الفرقة الباطنيّة في خراسان وما وراء النهر[١]،وإلى فساد الأوضاع العامة أيام « مزدك » الذي أعدمه أنو شروان[٢].

وقد اعترفت كتب التاريخ الفارسية بأنّ نظام الملك استطاع تنظيم إدارة البلاد ، وتأسيس الحكم السلجوقي بمساعدة عدد من كتّاب إدارة الدولة الغزنويّة وعمّالها[٣] . كما استطاع نظام الملك في مدة وزارته ( والتي دامت ٣٠ سنة ) أن يُعدّ موظفين تابعين له ، وأن يدير دفّة الحكم بمعرفة ومقدرة ، والذي ساعده على ذلك متابعته الأمور بنفسه،وإشرافه على كل صغيرة وكبيرة، عسكرية أو مدنيّة. ولم يستطع أحد في غضون هذه الثلاثين سنة أن يزيحَه عن وظيفته أو يضعف من قوته ، لأنه عرف كيف يوزع الأعمال على أبنائه وذويه وأصهرته وتابعيه . وإذا وجدنا بعض الموظفين يكنّون له كلّ حقد ( في زمن ملكشاه خاصة ) فإنهم كانوا ينكصون على أعقابهم كلّما حدّثتهم أنفسهم بشيء ضدّ نظام الملك في حياته وحتى بعد مماته[٤] .

والواقع أنّ لنظام الملك ولأبنائه وحفدته فضلاً يذكر على إدارة سلاطين السلاجقة ، كما كان له الفضل في إجلاس بعضهم على كراسي السلطنة[٥] . ومن أراد أن يدرس الأمور الادارية للدولة السلجوقية فإنه مضطرّ ، لا محالةَ ، لأن

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على كتاب « سياستنامه » المكتوب باللغة الفارسية . وسنسعى إلى ترجمته في المستقبل إن شاء الله . وقد نشره المستشرق « شارل شيفر » سنة ١٨٩١ لأول مرة وترجمه إلى الفرنسية .

(٢) تاريخ الأدب في إيران : ٢٦٢

(٣) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ١٩ . تاريخ الأدب في إيران : ٢١٩

(٤) انظر بعض التفصيل عن تحكّمه في إدارته في كتاب ( تجارب السلف : ٢٧٩ )

(٥) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٢٠

يَشغل حيِّزاً مهماً من دراسته حول نظام الملك وحول أبنائه وحَفَدته ، وكذا الأمر لدارس الوضع الأدبي أو الديني .

على أنَّ نظام الملك لم يكن هو الوزير الأوَّل في هذه الدولة ، فقد سبقه إلى الوزارة عدد من الوزراء (كما ذكرنا) أهمهم أبو نصر منصور بن محمد الكُنْدُري الذي كان أديباً وإدارياً مدبِّراً ، ولكنَّه قُتل بمساعي نظام الملك ليحتلَّ مكانته كما ذكرنا آنفاً .

## جهاز الادارة [1]:

لم يكن الوزير هو كلّ شيء في إدارة البلاد، بل إنَّه ليس إلا جزءاً من خمسة أجزاء إداريّة . إذ يتسلَّم إدارة البلاد ، بعد السلطان عادة ، خمسة أشخاص هم: الوزير ورئيس الاستيفاء ورئيس الطغراء ورئيس الأشراف ورئيس ديوان الجند . وقد كان لكلِّ شخص ديوان خاص به هو رئيسه والمتحكّم بزمامه ، وله نائب [2] . وتشبه وظيفة كلّ واحد منهم وظيفة الوزير اليوم ، أما الوزير فهو بمثابة رئيس الوزراء :

١ – الوزارة أو الصدارة : يمكننا التعرّف إلى صِفات الوزير إذا قرأنا منشور الوزارة الذي كتبه شرف الدين برسم الصاحب مجد الدين نصر [3]. ومع أنه كتبه سنة ٥٤٤هـ = ١٠٤٩م إلاّ أنّنا نستطيع التعرّف من ورائه إلى

(١) كان أهم مراجعنا في هذا الجزء كتاب « وزارت در عهد سلاطين سلجوقي »وقد ترجمنا منه ما ناسب المقام .

(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٢٤

(٣) هو الصاحب الأجل المؤيد مجد الملّة نظام الملك والسلطان سيد الوزراء أبو البركات نصر بن صاحب .

شخصية الوزير . يقول ما ترجمته : « ينبغي أن يكون الدّستور[١] متديّناً وعالماً وحسن السيرة والسريرة عارفاً بأمور الملك وعواقب الأمور، قارئاً أخبار الملوك... مهتمّاً بمصالح المسلمين »[٢] .

٢ – ديوان الاستيفاء : يهتمُّ بضبط أموال الولاية وإعداد مصالح الجيوش ، ويرتّب أموال الشعب والجيش . ويجب أن يكون متقلّدُ هذه الوظيفة معروفاً بحسن السيرة متديّناً عارفاً بأسرار مهنته ودقائق حسابها وملمّاً بالقوانين اللازمة والأموال المناسبة ، دقيقاً بآداب الخدمة الملكية ، قلمُه حاكمٌ عَدل وشاهد صدق . ولرئيس الديوان نائب في كلّ ولاية يعينه بنفسه واسمه « نائب المُستوفي » ، يهتمّ بدخلها وخرجها . ويعادل المُستوفي اليوم وزير المالية .

٣ – ديوان الطُّغراء ( الرسائل والانشاء ) : و « طُغْرا » : كلمة تركية، وهي في الأصل عبارة عن خطٍّ مقوّس يُرسم في صَدر المراسيم والمناشير السلطانيّة ما بين « بسم الله .. » وعلامة السلطان الخاصة . ومهمّة الطغرائي كتابة أوامر السلطان صحيحةً ونشرها باسمه على الملأ . ويتبع هذا الديوانَ ديوان آخر هو ديوان الرسائل والإنشاء ويسمّى صاحبه ، رئيساً أو وزيراً أو صاحب ديوان الرسائل. ويكون تحت إمرته عادةً عدد من المُنشئين والكتّاب، ويُؤتمنون جميعاً على أسرار الدولة ، وكثيراً ما يرسَلون في مهمّات سريّة وسياسية . وقد ينوب رئيس ديوان الانشاء مناب الوزير حالَ غيابه[٣] .

٤ – ديوان عرض الجيوش : وصاحبه « عارض الجيش » مهمّته تأمين

---

(١) الدستور : من أسماء الوزير ، وهي كلمة فارسية معناها صاحب اليد .

(٢) وزارت در عهد سلاطين سلجوقي : ٢٦

(٣) وزارت : ٣٠

مطالب الجيش المالية وعلوفة الدواب وتوزيع الرواتب . وله نوّاب في أغلب مدن الدولة . ونظراً إلى أهمية قواد الجيوش فإن رئيس الديوان ليس له نفوذ ملموس . ولهذا لم يكن هذا الديوان ذا قيمة اداريّة ذات بال .

٥ – ديوان الإشراف : يكمّل ديوان الاستيفاء في إدارة الأموال الديوانيّة وضبط المحاسبات وترتيب الدخل والخرج . ويرسل صاحب هذا الديوان نائباً مشرفاً عنه إلى سائر الولايات ، وهو بحكم مفتش الماليّة اليوم [١] .

(١) وزارت : ٣١

## الفصل الثالث

# الوضع الاجتماعي

ما نشكوهُ من نقصٍ في المعلومات حول الأوضاع الاجتماعيّة للقرنين الرابع والخامس يشكوه كل مشتغلٍ في أيّ عصر من العصور الماضية ، ذلك أنّ المؤرخين قديماً لم يكونوا يعيرون تصوير حالة الشعب ، ولا أوضاعهم فيما بينهم أية التفاتة . وإذا صدف أن ذكر مؤرخ كابن الأثير ناحية فلأنها تفشّت كثيراً فطغت على كتاباته التاريخية .

والأدب لا تُفهم مقاصده ، ولا تُعرف معالمه ما لم يُفهم وضع المجتمع ؛ كيف يعيش ، وكيف يتبادل حاجياتِه ، وكيف يتعامل ، وما هي النقاط الاجتماعية التي تُهَيمن على وضعه. ثم ما هي الطبقات التي تضم الشعب مجتمعاً؟.. إذا كان هناك طبقات .

غير أن مؤرخي الأدب اليوم استطاعوا أن يعتصروا السطور ، بل الأبيات حتى وضعوا للدارسين معالمَ لأوضاع اجتماعيّة ، هي ، وإن كانت واهيةً ، تنير بعض ما كان غامضاً ، وتُوضّح ما كان مجهولاً .

## ١ – العناصر البشريّة :

رأينا في الوضع السياسي كيف أنّ المنطقة التي نجولها واسعة ، وأن حالة الشرق المسلم وضعَتنا في خضمّ من الشعوب المختلفة أصلاً ونسباً ولغةً ولوناً . وقد استطعنا تقسيم هـذه العناصر لتلك الامبراطوريات التي عايشت القرنين المدروسين إلى ثلاثة أقسام :

أ – المجتمع العربي : وهو العنصر الأصيل الذي يحيا في شمال إفريقية وبلاد الشام والعراق والجزيرة ، وصاحبَ الخلافتين العباسية والفاطمية .

ب – المجتمع الفارسي : وهو الذي اختصّ بمناطق إيران وأفغانستان الحاليتين تقريباً ، والذي خرجت منه بعض الدويلات المنشطرة عن الحكم العباسي العربي ، والذي حكم من خلال وزرائه أكثر من حدوده .

ج – المجتمع التركي : وهو الذي قدم من مناطق نائية بشكل موجات بشرية متتابعة وقبائل متنقـّلة من المناطق الشمالية والشرقية لآسيَةَ ، وحطّ رحالـَه على أكتاف المجتمعين العريقين الآنفَي الذكر ، وتحكـّم في بلادٍ ليست له عدداً من القرون ، وعلى فترات زمنية متلاحقة .

وعلى هذا فإننا نستطيع شطر هذه العناصر البشريّة التي تلاطمت في تلك البلاد إلى سكان أصليين ودخلاء .

### الشعوب الأصلية :

لم تكن الطبقيّة باديةَ الملامح لدى الشعوب الأصلية لأنّ الدين كان متمكناً منها ، في القرون الأولى ، ويردع المتعالين منهم . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد ، طبقة نبيلة هي طبقة الخليفة أو الأمير ، وتضمّ العلماء والأعيان ، والتي تحيا في قصور بعيدة عن الشعب ، ولها أسواقها ومُتَنَزّهاتها الخاصّة بها ،

كما لها الخدم والحشم والجواري فيما بعد . ثم طبقة الجند وقوادهم وهم ذوو سطوة وتجبُّر بالطبقات الدنيا وبطبقة الخليفة والحاشية فيما بعد أيضاً . ثم طبقة الوزير وموظفيه ، فطبقة الشعب : من زرّاع وأصحاب حرف .

لم تكن المادة التي وصلت إلينا عن الطبقة التي يمكن تسميتها بالبورجوازية ( الأولى ) أو أصحاب الأراضي والأطيان غير مادة عامة وغير شاملة. وقد كان موظفو الادارات، ومعظم القادة الدينيين والمعلمين من هذه الطبقة (أعني ارتفعت إلى هذه الطبقة ) ويبدو أنّ كبار المتصوّفين وأصحاب الطرق كان لهم ولاء شعبي مرموق ، وأتباع متحمّسون من بين صغار التجار وطبقات كبار الصنّاع. وهذا لا يعني بالضرورة أن يكون الشيوخ أنفسهم ومريدوهم قد انحدروا من طبقات مخالفة لطبقات الشعب ؛ فالشيخ أبو الخير ( أبو أبي سعيد ) كان عطاراً في مدينة صغيرة ، ويبدو أنه كان عضواً مرموقاً في مجتمعه [1] ، وأنّ هبة الله الموفّق كان يعلّم طبقةً غدت ، فيما بعد ، من كبار الأعيان والوزراء أمثال الكُندري ونظام الملك . وعلى هذا فإننا لن نتعرّض لهذه الطبقة الدينيّة ، إذ لها كيانها الخاص ومركزها المنفرد . إلاّ أننا نشير إلى أنّ العلماء جميعاً كانوا ـ تَبَعاً لمركزهم الاجتماعي ـ متّصلين بشكل وثيق بالطبقة الحاكمة من الأعيان، والتي كانت تملأ مناصب العواصم والمدن الكبيرة .

وقد ظهر الاقطاع منذ مطالع القرن الرابع بظهور الأسر المالكة والأسر الحاكمة ، والفارسية منها بشكل خاص . وكانت هذه الأسر متمكّنة فيما تمتدّ إليه يدها ، متسلّطة على شعبها التابع لها ، متوارثة حكم الاقطاع حسب الأنظمة المالكيّة كالأسرة الطاهريّة والسامانيّة والبويهيّة والحَمْدانيّة والمرداسيّة .

أما طبقات المجتمع العامة كالصنّاع والزرّاع والعبيد فإننا نعرف عنهم أقلّ

(1) The Ghaznavids : 171

مما نعرفه عن طبقة الأعيان والاقطاع . والمصادر لا تخصّ كلّ فئة على حدة وتكتب عنها ، بل إنها تتكلّم عنها بشكل عام وغير جامع . وتشير إليهم بأنهم طبقة الشعب التي لا تهدأ ولا تستقر" [1] .

ولن ننسى سيادة العيّارين – في هذا العصر – وهياج الجنود في جنوب العراق وبعدهم القرامطة ، ولا العبيد الذين جِيءَ بهم من مناطق نائية ، ولن ننسى كذلك أن نذكر أنهم يُعتبرون من الدخلاء . وسنتحدث عنهم فيما بعد .

**٢ – الدخلاء :**

لن نقصر حديثنا عن الأمراء الذين تحكّموا في البلاد، ولا الشعوب النازحة غرباً ، بل سنفصّل فيهم ونقيّمهم . ففي كلّ أُمّة دخلاء لا يُعرف أصلهم ، يعيشون في بادىء الأمر بمنأى عن الشعب ، لا يلبثون أن ينخرطوا في سائر الطبقات ، وسرعان ما يتسلطون على الشعب نفسه ويتحكّمون بمصيره بحكم شعورهم بالنقص ، واعتماد الطبقات الأخرى عليهم .

ويعتبر العنصر الدخيل البارز على الأمتين العربية والفارسية هو العنصر التركي ، عبيداً وأمراء ورجالَ دين وعلم . وكما نعلم فإنّ عهد ضعف الخلافة العباسية يتجلّى بتغلّب الغلمان الترك والفرس على مقاليد الأمور . ومع أن الغلمان الترك دخلوا قصر الخليفة منذ زمان المعتصم ( ت٢٢٧هـ – ٨٤١م ) إلاّ أن تسلطهم أخذ في الازدياد منذ زمان المتوكّل ( ت ٢٤٧هـ ) ، ثم ما لبثوا أن تدخّلوا في تنصيب الخلفاء وعزلهم . ولا شك أن ما فعله المتوكل من إقصاء للعنصر الإيراني ، وإحياء للسنّة ، وتَشجيع لأهل الحديث ، ونقمةٍ على أهل الاعتزال والشيعة ، ومنع للمناقشات ، من أهمّ الأسباب التي دعت الفرس منذ أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع بالسعي إلى الاستقلال عن

(1) The Chaznavids : 171

سلطة بغداد في عدد من أجزاء المشرق [١] .

وامتدّت أيدي الأتراك في بغداد إلى كلّ شيء، فلم يبق للخليفة سوى اللقب والمركز الديني . وازداد الأمر سوءاً بعد خلافة المتّقي ( ٣٢٩- ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ - ٩٤٤م ) وبعده المستكفي ( ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ - ٩٤٥م ) ، بل إنّ الاضطراب والهلع دخَلا مدينة بغداد نفسها ، ممـا اضطرّ عدداً كبيراً من الأسر العربية إلى الرحيل عنها نحو عدد من البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً .وكان للغلمان الأتراك في أواخر أيام آل بويه قدرة وقوّة ، فقد استطاع أرسَلان المعروف بـ « أبي الحارث البساسيري » أن يضع قدرة الخليفـة والملك الرحيم البويهي تحت سيطرته ( كما رأينا في الوضع السياسي ) . ويُعدّ ظهوره من علائم انتهاء نفوذ آل بويه في بغداد . ورأينا كيف أن الخليفة القائم يستغلّ هـذا الضعف ، كما استغـل التبايُن المذهبيّ ليستنجد بطغرلبك [٢] ، وهو أيضاً تركي دخيل .

**العبيد والاماء** : امتازت هذه المرحلة من الحكم الإسلامي بكثرة العبيـد والامـاء المسبيّين في الحروب الكثيرة . وكان يفد على بغداد وعلى عواصم الامارات في الشرق كثير من هؤلاء العبيد الهنود والأتراك والأحباش والزنج ، بالإضافة إلى ما يَسرقه النخاسون من بلاد الصقالبة وجنوب روسيّة ، ولهـذا فُتحت أبواب النّخاسة على مصراعيها [٣] . وعلى الرغم من كثرة العبيد والاماء

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران : ١٩٨/١

(٢) تاريخ أدبيات در إيران : ٢٠١/١

(٣) حكي عن أبي دلامة أنه مرّ بنخاس يبيع الرقيق ، فرأى عنـده ما أخذ عقله ، فانصرف إلى الخليفة المهدي وأنشده قصيدة منها هذا البيت :

إن كنتَ تبغي العيش حلواً صافياً فالشعر أغزِ بهِ وكن نخّاسا

( الأغاني : ١٢٨/٩ من أخبار أبي دلامة الشاعر ) .

فقد بلغت قيمة بعضهم أرقاماً خياليّة ،مُراعين في ذلك جمالهم وقوّتهم وبراعتهم في بعض الفنون ، وخاصة الأتراك منهم .

يقول ابن حوقل [1] : إن العبيد الأتراك لا مثيل لهم ، كما أنّ الأسعار التي تقدَّر لهم أغلى الأسعار . فقد رأىٰ غلاماً بِيع في خراسان بثلاثة آلاف دينار ، ودُفع مثل هذا الرقم لإحدى الجواري . ولم يجد غلاماً من أي عنصر بلغت قيمته ما بلغَه العبيد والاماء الأتراك . أما مراكز بيعهم فقد كانت في بلاد ما وراء النهر [2] ( حيث يباعون بالجملة ) بالإضافة إلى أسواق النخاسة المتوزّعة في أغلب المدن هناك . وقد كانوا يُشترون لغايات عديدة ، منها :

١ –لسدّ شهوات بعض الأمراء [3].ومع شديد الأسف فإن بعض فقهاء الشيعة كانوا يفتون بجواز معاشرة الغلمان [4].كما كانوا يتبادلون العبيد والاماء هدايا [5].

٢ – للحروب والقيادة ، فقد وصل بعضهم إلى قيادة الجند ، كما تمكّنوا من تأسيس دول كبيرة ، ولن ننسى « بكتوزون » و « طُغج » و « الاخشيد » و « سُبُكتِكين » ( مؤسس الدولة الغزنوية ) ، أما الجنود منهم فكانوا يباعون بالمئات .

٣ – استُخدموا للخدمة المنزليّة ، وأغلبهم من الخصيان

٤ – كانوا يُشترون لتعليمهم الغناء والموسيقا .

٥ – أو للحجابة أو للاشراف على الاسطبلات .

---

(١) صورة الأرض ٤٥٢ .
(٢) تاريخ أدبيات در إيران . ٢/٧٠ .
(٣) قابوسنامة : ٢٩ .
(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ( انظر فصلاً خاصاً بهذا الشأن ) .
(٥) انظر تفصيل ذلك في مروج الذهب : ٧/٢٦١ .

وقد علت مراتب بعضهم في العلوم والآداب حتى كان من بينهم – كما يقول البيهقي – الفقهاء والأئمة . والاسماء التركية التي كانت تطلع علينا في تراجم العلماء ( في نيشاپور خاصة ) كثيرة [1] .

**الخصيان** : يتتبع موضوعَ العبيد فئةٌ منهم كانت ممنوعة في الإسلام هي « الخصيان » ، ولم تدخل هذه الفئة في كيان البلاد العربية إلاّ عندما ضعف الشعور القومي والديني ، أي ما بعد ٢٠٠هـ = ٨١٥ م وذلك على يد الخليفة الأمين الذي شُغف بهم وغالى في قيمتهم ، وحوالي ٣٠٠هـ = ٩١٢ م أُطلقت على هؤلاء الضعفاء أسماء أقرب إلى الاحترام ؛ فسمي الواحد منهم بالخادم أو المعلم أو الشيخ أو الأستاذ [2] . وقد ظهر من بينهم قواد شجعان امتازوا بالرمي والفروسيّة ، ومنهم « مؤنس الخادم » و « فائق » قائد السامانيين . ولم تُمنع عن هذه الفئة أية وظيفة أو مهنة إلا الوظائف الدينيّة [3] . على أنّ الفائدة العامة منهم كانت في خدمة النساء بالقصور خاصة .

**العنصر التركي** : كانت الدولة السامانيّة بحكم موقعها المتاخم للشعوب التركية فيما وراء النهر بمثابة برج الدفاع ضد الهجمات التركية الصفراء ، وهدفها من ذلك حماية القوافل التجارية من سطوتهم . غير أنّ الضعف الذي منيت به حكومتهم جعلهم يَتسامحون في تسرب العرق التركي إلى بلادهم وإلى غير بلادهم [4] .

---

(1) The Ghaznavids : 172

(٢) أحسن التقاسيم : ٣١ . وكلمة أستاذ فارسية تلفظ بالدال المهملة . ومعناها الأصلي المعلم والمدرّب والمربي . ودخلت العربية بمعناها ، كما حُولت إلى العامية ولفظت « أسطى » .

(٣) الحضارة الاسلامية : ٢/١١٤ – ١١٦

(4) The Ghaznavids : 31

وكانت النظرة نحو هذا العرق التركي الأصفر في بادىء الأمر ، أي في أول إسلامهم كانت نظرة تقدير لأنهم اعتبروا أنفسهم حماة العلماء المسلمين . وكان من نتائج حمايتهم أن امتزجت الأسر التركيّة بالفارسية [١] والعربيّة . وعدّ السلطان محمود ملاذ الغلمان الأتراك لحمايته الدينية ولحاجته إليهم ، ثم تبعه السلاجقة في ذلك ، وكثيراً ما بلغ عدد غلمان السلطان محمود عدّة آلاف [٢] .

ولم يمض رَدَحٌ من الزمان على تغلغلهم في الحياة الاجتماعية العربية والفارسية والتركية المستقرّة المتحضّرة حتى غدوا مُفسدين سفّاكين شرّابي خمور ، يعتدون على الأسر من سكان البلاد الأصليين [٣] . ونجَم عن تمازجهم وتغلغلهم عدد من الأمور نجملها فيما يلي :

١ ــ أثاروا العصبيّات الدينيـــة ، وأثاروا مذاهب على أخرى ، فجرت المذابح من جراء هذه الاثارات والعصبيّات .

٢ ــ أضعفوا حكومة بغداد في السياسة الداخلية والخارجية على السواء . وعلى هذا فيُعتبرون من عوامل فصل أجزاء الامبراطوريّة العربية عن مركز الخلافة كمصر وسورية وبعض أجزاء المشرق .

٣ ــ حاولوا أن يرفعوا من مركزهم الاجتماعي بابتداع بعض أحاديثَ ترفع من مقامهم وتُعلي من شأنهم ، ونسبوها إلى النبيّ ﷺ ؛ فقد نسب بعضهم إلى ابن عباس رواية هذا الحديث : « ليكونَنَّ الملكُ في ولدي حتى يغلبَ على عزّهم الحمرُ الوجوه الذين كأنّ وجوههم المجانُّ المطرّقة » . كما نسبوا الحديث

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران : ٩٥/٢

(٢) تاريخ بيهقي : ١٤٦ و٤٨٢

(٣) تاريخ أدبيات در إيران : ٦٩/٢

التالي إلى أبي هريرة ( رضي ) : « لا تقومُ الساعــةُ حتى يجيءَ قومٌ عراضُ الوجوه صغارُ الأعين فُطسُ الانوف ، ويربطوا خيولهم بشاطىء دجلة »[1] .

٤ ـ تحكَّمت الإماء ( كالعبيد ) بمصائر الخلافة وولاية العهد والامارة ، كما حاولْن تغيير مظاهر الحياة في المنازل والقصور[2] بما جلبن معهن من عادات لم تكن موجودة .

٥ ـ حصل تمازج كبير بين الاسر العربيـة والفارسية بشكل واضح ، كما مازجتها بعض الاسر التركيـــة التي بلغت مرحلةً من المكانة الاجتماعية العالية . وقد رأينا كيف أنّ طغرلبك تزوَّج بابنة الخليفـة القائم بأمر الله . ويتبدّى هـــذا التمازجُ من تتابع هجرة الأسر الفارسية إلى البلاد العربية ، كما حصل لوالد « المهلّب بن أبي صفرة » الذي هجر بلاده وسافر إلى عُمان ، فطلّق ديانته الزرْدُشتية وأسلم ، وجعـــل اسمه « أبا صُفرة »[3] . وقد جرت الهجرة المعاكسة أيضاً من البلاد العربية إلى بلاد فارس . ولهذا فإننا نجد كثيراً من الاسر العربية في خراسان وبعض بلاد الهند مثلاً . ولا تزال منذ تلك الايام تحافظ على بعض تقاليدها القديمة وأنسابها التي تعتزّ بها[4] . ونجد شبيه ذلك في الاسر التركية الحاكمة وحاشياتها التي عاشت في بلاد الشام ومصر والعراق ، ومن البديهي أن تتطبَّع وتتمازج . وقد تولّد عن هذا الامر تغيّرٌ في صفاء الاسر العربية والفارسية[5] .

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران : ٢٢٨/١

(٢) مجمل التواريخ : ٣٩١

(٣) المجموعة الفارسية : ٨١

(٤) قابلتُ في خراسان وبلاد فارس والهند والسند عدداً من العلماء كانوا يعتزون بأصلهم العريق في بلاد الحجاز أو الشام أو العراق ، وبعض منهم نسب نفسه إلى آل البيت .

(٥) سياستنامه : ١٣٠

**الأعياد :** من جملة الامور التي نتجت عن تمازج الامم ببعضها مشاركة الشعوب أعيادَ بعضها . فبالإضافة إلى العيدين الدينيين اللذين كان العرب يحتفلون بهما ، وتشترك بهما الامم المسلمة الاخرى ، فقد شارك العرب والاتراك أعياد الفرس في النـّوْروز ( عيد الربيع ) وفي المِهْرْكان ( عيد الخريف ) وعيد السّده ( العيد المئوي ) [١] . ودواوين أبي تمام والبحتري وابن الرومي تـُبرهن على احتفالات الامراء والشعب بهذه الاعياد [٢] .

كما كان المسلمون ( عامة ) يحتفلون بجميع الاعياد المسيحية طول العام ، وقد تركوا النصارى يتصرّفون في أمورهم الدينية من غير تدخُّل ، واشتركوا معهم في الجانب الاجتماعي المسلـّي من تلك الاعياد [٣] .

**الحالة الاقتصاديّة:** إذا كانت المراجع حول الاوضاع الاجتماعية بخيلة كانت في تصوير الحالة الاقتصادية ضنينة وناضبة ، فقد استطعنا أن نتعرّف إلى طبقة أصحاب المهن والصناعة والطبقة الاقطاعيّة المتحكّمة والموظفين في الدوائر الحكومية ،إلاّ أننا لم نستطع معرفة المستوى المعيشي الذي تحياه هذه الطبقات. ونستطيع أن نتصوّر كفاح بعض الفئات الفقيرة التي دخلت في القرامطة ،هادفة من وراء ذلك إلى رفع المستوى الاقتصادي الذي وُعدت به من رؤساء هذه الحركة ،مما سنجده مُفصّلاً في الوضع الديني .

أما التجارة فقد كانت نشطة جداً إذ كانت القوافل تسير من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . عابرة البلادَ الغربية ، حاملةً معها حاجياتِ كل مِنطَقة ،

---

(١) انظر تفصيل هذه الأعياد في كتابنا المجموعة الفارسية .

(٢) يتيمة الدهر : ٤/٦٥

(٣) الحضارة الإسلامية : ٢/٢٦٠

وناقلةً منتجاتِها [1] ، كما كانت تفعل منذ مئات السنين . وهي نفسها صاحبة الحركة والحياة في أسواق المدن والقرى . كما أن التجارة ناحية مهمّة في تصوير هذه الطبقة التي كانت تستقرّ في بعض الأحيان في غير بلادها ، وتقتبس من السكان نوعيّة المعيشة ، كما قد يستقرّ بعض التجار في غير مدنهم ويتزوّجون منها . والتجارة المنشطة تدلّ بالتالي على المواصلات المعدّة والسكك المعبّدة، مما يسهّل التنقّل والتجوّل .

ثم هناك ألوان اجتماعية أخرى كالتهتك والمجون والزهد والإلحاد ، لا يُتيح لنا المجال البحث فيها .

هذه صورة اجتماعية للمحيط القلق الذي نجم عن السياسة المضطربة ، وهي البيئة التي عاشها الأدب في عصر السلاجقة .

---

(1) The Ghaznavids : 31

## الفصل الرابع

# الوَضْع الدِّيني

**الدين والسياسة :**

لم تكن الأوضاع الدينيّة في القرنين الرابع والخامس في البلاد العربية والإسلامية بأقلّ من الأوضاع السياسية اضطراباً وتشققاً وتناحراً . ومع أنّ البلاد التي نحن بصددها كانت تدين بدين واحد . إلاّ أنّ الاختلافات المذهبية كانت في أوجها .

ودراسة الوضع الديني في هذه الحقبة مرتبطة ، لا محالةَ ، بالوضع السياسي، ذلك أنّ الدولةَ الفاطميّة على عداء مع الخلافة العباسية، وكلاهما من دين واحد، والدولة السلجوقية قضت على البويهيين انتصاراً للسنّة على الشيعة . وثورة البساسيري السياسية كانت مُلفّعةً بدعوة دينية ، وحركة الحشاشين الدينية غشتها أطماعٌ سياسية . ويمكن قول ذلك أيضاً بشأن حركة القرامطة .

ولم تذكر كتب التاريخ والجغرافية والأدب شيئاً عن الحالة العامة في هذين القرنين إلاّ توقّفت طويلاً وغير مرّة تجاه المذاهب الدينية المعروفة ، وأشارت إلى تناحرها فيما بينها ، كالشافعية والحنفية والحنبلية في مذهب السنّة ،

والاثناعشرية والاسماعيلية والغالية والقرامطة من الشيعة ، ثم هنالك كذلك أصحاب الحديث والمعتزلة والكرّامية والصوفية والجَهَمية [1] .

وعلى هذا فإننا سنضع نصبَ أعيننا الوضعَ السياسي الذي عرضناه قبل صفحات في أثناء حديثنا عن الوضع الديني ، ليكون الوضعان من الأسس الأولى لتوضيح الجولة الأدبية .

**الاختلافات المذهبية :**

نكاد لا نجد مدينةً من المدن الإسلامية في ذلك الزمان إلا قامت فيها مشاجرات مذهبية ، وغالباً ما كانت الجلَسات تُعقد في بلاطات الوزراء والأمراء لمناقشة مختلف آراء المذاهب . وكثيراً ما أدّى ذلك إلى مشاجرات بين الناس في الأسواق ، وإلى تخريب المحالّ وإحراق الكتب ، وغير ذلك مما تفعله الفتن الداخلية [2] .

أ – **المذهب السنّي** : كانت السنّة متمركزة في بلاد الشام وبعض أطراف العراق وشرق إيران ، أما المراكز الشيعية فكانت في عراق العجم وبعض عراق العرب وطَبَرسْتان وخاصة قُم والري وآبَه . وقد حاول « نصير الدين أبو رشيد القزويني » ( في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ) في كتابه « كتاب النقد » أن يقسم البلاد تقسيماً مذهبياً ، فلاحظ أن أهالي خراسان وما وراء النهر وجزءاً من العراق أحناف ومعتزلة ، وأنّ آذَرْبايْجان وهَمَذان وإصفهان وساوَه وقَزوين شوافعة ، وأن أهل لورِسْتان وخوزستان وكرج وكُلبايگان وبُروجرْد ونَهاونْد مُشبّهة أو مُجسّمة ، وأن مازَندران وقُم سنة وشيعة [3] .

(١) أحسن التقاسيم : ٣٢٣

(٢) تاريخ أدبيات در إيران : ١٤٧/٢

(3) Cambridge : 283

نلاحظ من هذا التوزيع أن أهالي معظم بلاد فارس في ذلك الوقت سنيّون، وأنّ مركز ثقلهم آنذاك كان في أصفهان . ولم يكن المذهب السني بمنأىً عن الانقسامات التي اعتَوَرت الوضعَ العام ، بل قام كثير من علمائهم بالاجتهاد الذي أدّى بهم إلى الابتعاد عن الأصل ، فكان أن غدا في هذين القرنين سبعة أقسام هي :

١ – الداوديّة : وهي فرقة اندثرت الآن .

٢ – الحنفية : وهم منقسمون مذهبياً إلى معتزلة ونجارية وكرامية [1] ومرجئة وجَبْريّة .

٣ – المالكيّة : ويقسمون إلى خوارج ومعتزلة ومشبّهة وأشعرية وسَليمية ( وهم مالكيّو أهل البصرة ).

٤ – الشافعية : ويقسمون إلى مشبّهة وسَلَفيّة وخوارج ومعتزلة وأشعرية ويزيدية [2] .

٥ – الحنبلية :

٦ – الثّوريّة :

---

(١) الكرامية : طائفة دينية ازدهرت في خراسان وخاصة في نيشابور ، يتميزون بحماسهم. ومؤسس هذه الفرقة هو ( أبو عبد الله محمد بن كرام النيشاپوري ) المولود في سجستان من أصل عربي سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م ، كان متزهداً ينذر بنار جهنم وكان يقول بالتجسيد . وضع في كتابه « آداب القبر » فلسفته التي ترفض السنّة والشيعة جميعاً ، وكان أغلب أتباعه من أصحاب الحِرف والفئات المستضعفة . وقد جاء شرح جانب من مذهبهم في الدمية .
( The Ghaznavids . 185 – ١٠٤ – ٩٩/١ : الملل والنحل )

(٢) اليزيدية : أصحابها منتشرون ما بين زور وسورية ، وهم ميّالون إلى المشبّهة والخوارج ويعتبرون أبا بكر وعثمان ومعاوية ويزيد خلفاء ( أرشدهم الله ) ولكنهم لا يستعملون التقية . ويُدخلون علياً ( رضي ) أيضاً في قائمة الخلفاء المسترشدين بالله Cambridge : 284

٧ – الرحَويّـة : وهم المنتمون إلى اسحاق الرَحوي [١].

وكثيراً ما كانت الفتن تحتدم بين أتباع هذه المذاهب ، ففي سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م قام الحنابلة بطاردة المُنكَر في بغـــداد ، وعظـُم أمرهم ، وقويت شوكتهم حتى صاروا يكبسون دور القوّاد والعامـّة ،فإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وان عثروا على مُغنـّية ضربوها وكسروا آلة غنائها . وتعرّضوا للبيع والشراء وللناس في الشوارع [٢] . كما حدثت فتنة بين الفقهاء الشافعيـّة والحنابلة في بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، عندما أنكر الحنابلة بعض الأمور على الشوافعة ، منهـــا الجر بـ « باسم الله .. » [٣] . أما في نيشابور فقد كانت الطوائف يغير بعضها على بعض – كما يقول الراوندي – ليلاً ، ولم تكن شيراز أهدأ من غيرها في إثارة الفتن بين الشافعية والحنفيّة [٤] .

ب – **المذهب الشيعي** : كان نشاط الشيعة في القرنين الرابع والخامس مهماً وملموساً ، فقد شجّع على تطوّره أمراء الفرس في بلادهم كمرداويج وما كان وآل بويه ، كما شجع عليه الحمدانيون في شمال العراق وشمال سورية وكذلك الفاطميون في مصر وافريقية . وإذا كان الفرع الأول ( الفارسي ) متزمّتاً متشدّداً على السنّة المتمثّلين في شخصِ الخليفة ، فـــان بني حمدان كانوا متساهلين مع الفرق الأخرى ، كما كانوا على صداقة متينة مع الخليفة العباسي وعداء تام ( سياسي ) مع الفاطميين .

وقد كان الشيعة على وفاق تام مع الدولة الطاهرية السنـّية ، إذ حدّثتنا كتب التاريخ عن صلات نسب كانت تجرى بين الأمراء الطاهريين وكبـــار عائلات

---

(1) Cambridge : 284

(٢) الكامل حوادث سنة ٣٢٣ ، الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة ( بويه ) .

(٣) الكامل حوادث سنة ٤٤٧

(4) Cambridge 285

الشيعة ، كما حدثتنا أنهم كانوا أحراراً في ما يفعلون ويريدون ، فقد كان لهم في كل مدينة نقيب ، وهو « السيّد » يهتّم بأمور مذهبه ، ويحافظ على سجلات أنساب الأشراف [١]. وكان هؤلاء السادة يتمتّعون باحترام زائد من قبل طبقات الشعب. وتُعتبر الفرقة الامامية أكثر الفرق الشيعيه اعتدالاً في المذهب والمغالاة والتداخُلات السياسية [٢]. ويرجّح المستشرق بوثوورث Bothworth أنّ عدم تدخّلهم بالسياسة واعتدالهم بالنسبة للأحوال العامة يرجع إلى وقوعهم بين الدول السنية كالطاهريين والسامانيين والسلجوقيين والخلافة في بغداد . ولا يعني كلامنا هذا أنهم كانوا في أمان مع السنّة ، فالاضطرابات كانت تحدث في كل بلد بين الحين والحين . والموقف يتأزّم بين الفرقتين [٣] في أكثر من مرة في العام. إلا أنّ هذه الاضطرابات ناجمة عن اضطراب الدولة نفسها ، وتفكّكها فيما بينها .

وقد كان الأدباء عادة يشتركون في مثل هذه المنازعات ، فالشعراء يلهبون الحماس ويناصرون فرقة على فرقة ، والأدباء يؤلفون الكتب في كشف كل فرقة ، ولقد ألّف أحدهم كتاباً ضدّ الشيعة ، وعنوانه « بعض فضائح الروافض » وضع فيه سبعاً وستين فضيحة ، فردّ القزويني عليه في كتابه « بعض مثالب النواسب في

---

(١) يهتم الغربيون والمستشرقون منهم خاصة بدراسة المذاهب المتطرفة ، والمعتقدات المنحرفة والتصوف. لذلك يسهل على المطالع أن يتعرف إلى المذاهب المنبثقة عن الاسلام عن طريق الكتب الاجنبية . من ذلك تاريخ الأدب في ايران لادوارد براون : ٢٤٠

The Chaznavids : 285

(4) The Chaznavids : 194

(٣) صوّر ابن الاثير احدى الحوادث التي جرت سنة ٤٤٥ هـ التي ثار فيها أهل الكرخ ( وسكانها شيعة ) على السنة. ولما أراد القواد الاتراك تهدئة الموقف اضطروا إلى قتل أحد سكان الكرخ فعوّلت نساؤه واستغاثت ، فهاجت العامة وقاتلت الترك ، فلم يجد هؤلاء بداً من الدفاع عن أنفسهم فأحرقوا المنازل والمحالّ . ولما علم الخليفة هدأ الحالة فوراً . الكامل حوادث سنة ٤٤٥ – المنتظم : ٧/٢٨٧

نقض بعض فضائح الروافض »[1] (واسمه أيضاً « النقد »).

وكما نقسّم المذهب السني إلى فرق ، فإن المذهب الشيعي تفرّع أيضاً إلى فرق شتى أهمّها أربع ، هي :

الناصريّة : وهو اسم أعطي في أوائل القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) لفرقة متطرّفة ، تعزو إلى علي ( رضي ) قوى إلهيّة أو شبه إلهيّة .

٢ – الزيديّة .

٣ – الاماميّة : وتسمى أيضاً الجعفرية أو الاثنا عشرية .

٤ – وهو اسم أطلق على الفاطميين والقرمطيين والحشاشين عامة [2] . وسنخصّها وحدها بالحديث لما لها من أثر وطيد في الأوضاع العامة في الامبراطوريّة .

**الاسماعيلية** : هي من الفرق الشيعية المنفصلة عنها ، وذات تأثير كبير على الحالة السياسية والأدبية في ذلك العصر . وقد انفصلت هذه الفرقة نتيجة الاختلاف الذي جرى حول إمامة «إسماعيل بن جعفر الصادق» مع أخيه موسى. وعُرف هؤلاء الراغبون في إبقاء الامام في آل اسماعيل بالاسماعيلية أو الباطنيّة ، ويعتقدون بأن الامامة انتقلت ( بعد جعفر ) من اسماعيل المتوفّى قبل أبيه إلى ابنه محمد ، والذي يُدعى بالسابع التام ، حيث تمّ به الدور السابع للأئمّة [3] .

---

(1) Cambridge:285

(2) « « :290

(٣) يرى الاسماعيليون أن الكون يشير الى أصول العقيدة ؛ فالسماوات سبع ، والنجوم السيارة سبعة ، والارضون سبع وأيام الاسبوع سبعة والفتحات في رأس الانسان سبع ، وفقرات الرقبة سبع ،والبحار سبعة ،وفاتحة القرآن من سبع آيات ،وهناك سبع فترات في=

وقد انقسم الأئمّة بعد محمد إلى فئتين: الأئمة المستورين،ويَدعو لهم دعاتهم، والأئمة الظاهرين وذلك بظهور « أبي عُبيد الله المهدي » حيث دعا للمذهب الاسماعيلي جَهراً ، وصرّح بأنّ من لم يؤمن بأن أولاده ( الواحد تلو الآخر ) إمام مات ميتة الجاهليّة [1] .

ومن بين الدعاة إلى هذا المذهب أثناء الغيبة « مَيمون القدّاح الأهوازي » ( توفي سنة ٢٦١ هـ = ٨٧٤ م ) الذي شغل هو وأولاده في الدعوة إلى المذهب الاسماعيلي في خوزستان والعراق والشام واليمن وبلاد المغرب [2] . ومن بين هؤلاء الدعاة كذلك « أبو عبد الله الشيعي » الذي استطاع أن يُزيح دولةَ الأغالبة ،ويطلق الامام«أبا عبيد الله المهدي»الذي كان سجيناً في « سِجلماسّة » وكان أولَ من دعاه بالمهدي المنتظر . وبعد إطلاقه تركّزت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيّة سنة ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م ولما دخل جوهرُ بلادَ مصر سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م في زمان « المعزّ لدين الله » الفاطمي كتب أماناً للمصريين ونصّ على أن يترك للمصريين حريتهم في اختيار المذاهب التي يرتضونها لأنفسهم، وأنهم لن يُكرهوا على تغيير مذاهبهم [3] . ولكن الفاطميين لم يحترموا هذه العهود ، إذ أقاموا دولتهم على أساس عقيدتهم المذهبيّة ، فكان من الطبيعي أن يعملوا على صبغ البلاد التي تخضع لحكمهم بهذه الصبغة المذهبية،فلا غرابةَ في أن

---

= فترات الانبياء والرسل( آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ، محمد بن اسماعيل)، وكل واحد من هؤلاء الانبياء السبعة أعقبه سبعة من الأئمة . وكل هذا يثبت على أن دور الأئمة يتمّ بسبعة . وهذا هو سبب تسمية الاسماعيلية والقرامطة بـ « السّبعيّة » .

دائرة المعارف الاسلامية مادة « أهل الحق ». فضائح الباطنية : ١٦ . تاريخ الأدب في ايران : ٢٤٣ . History of Islamic Peoples : 143

(١) تاريخ أدبيات در ايران : ١/٢٤٦

(٢) تاريخ الأدب في ايران : ٢٤٢

(٣) اتعاظ الحنفاء : ١٤٨

ينشط الدعاة في طول البلاد وعرضها ، حتى خُيِّل لبعض المؤرخين أن مصر غدت فاطمية كلّها ![1] .

وقد بدأ تأثير العقائد الفاطمية في نفوس المصريين يضعف منذ أن استلم الحاكم بأمر الله عرش الخلافة [2] ، ولا سيّما بعد أن وفد على مصر دعاةُ تأليه الحاكم أمثال الدرزي وحمزة والأخرم الفرغاني ( وكلهم فرس ) ، حيث ثار المصريون عليهم وقتلوا الأخير سنة ٤٠٨ ﻫ = ١٠١٧ م ، فهرب الآخرون من مصر كما أسلفنا . وعندما ازداد ضعف ايمان المصريين بالفاطميين ومعتقداتهم سهل على بدر الجمالي الأرمني تحويل الإمامة بعد المستنصر إلى المستعلي ، وحرم منها صاحبَ النص « النزار بن المستنصر » . فانقسمت الدعوة على أساسه إلى فرعين رئيسيين هما : الاسماعيلية النزارية التي عُرفت بالاسماعيلية الشرقية أحياناً ، وبالاسماعيلية الحشيشية أحياناً أخرى (ويعرفون اليوم بالآغاخانية ) . والفرع الآخر هو الاسماعيلية المستعلية أو الاسماعيلية الغربية ،وهي التي ظلّت في مصر واليمن [3] ، ويمثلهم اليوم في الهند جماعة « البهوريّة » .

وقد امتدّ سلطان الدولة الفاطمية الاسماعيلية في زمان « المستنصر » ( ٤٢٧ ﻫ –٤٨٧=١٠٣٥ م– ١٠٩٤ )إلى أقصى حدّ بلغته طوال مدة حكمهم . إذ توسّعت حدودها من شمال غرب إفريقيّة إلى الشام وآسية الصُغرى وسواحل البحر الأحمر وبغداد وواسط[4] ، كما كانت الدعوة الاسماعيلية قائمة على قدمٍ وساق في شرق العراق وما وراء النهر . فقد ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٤٣٦ ﻫ ( أي في أوج حكم السلاجقة ) أنّ عدداً من دعاتهم أخذوا يدعون إلى

---

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : ٥

(٢) توفي ٤١١ ﻫ – ١٠٢٠ م .

(٣) انظر « دراسات في الشعر في عصر الايوبيين » : ٦ فما بعد .

(٤) تاريخ أدبيات درايران : ٢/ ١٦٤

المستنصر العلوي فيما وراء النهر، فتبعهم خلق كثير وسمع ملك تلك البلاد (وهو بُغْراخان) خبرهم، وأراد الإيقاع بهم، ولكنه خاف أن يَسْلم منه بعض من أجابهم من أهل تلك البلاد، فأظهر لبعضهم أنه يميل إليهم ويريد الدخول في مذاهبهم، وأعلمهم ذلك، وأحضرهم مجالسه، وحينئذ قتل مَن بحضرته منهم، وكتب إلى سائر البلاد يأمر بقتل مَن فيها، فانقطعت آثار الدعوة الاسماعيلية فيها[1].

ويبدو أن الدعوة الاسماعيلية في خراسان والري والجبال كانت نشطة حوالي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأنّ دعاتها كانوا منتشرين في تلك البقاع. وقد تمكن الأمير خلف بن أحمد في سِجستان ٣٥٣ هـ – ٣٩٣ = ٩٦٤ م – ١٠٠٣ من الداعي «أبي يعقوب السجستاني» وقتله.

ومع أن بني بُويه الذين قدموا إلى بغداد انتصاراً للشيعة على السنة، وأنهم كانوا أقربَ إلى المذهب الفاطمي من السني، فانهم لم يسمحوا بعزل الخليفة العباسي والدعاء للخليفة الفاطمي. إذ يحكى أنّ معزّ الدولة كان يفكّر في عزل الخليفة ليبايع المعزّ لدين الله الفاطمي، غير أنّ أحد خواصه منعه من الاقدام، لأنه الآن، وهو أمام الخليفة العباسي يستطيع أن يخلعَه في كلّ لحظة، أما إذا بايع الخليفة الفاطمي فانه سيصبح تحت خدمته مطيعاً لتحكّمه بل لديه من الأشخاص مَن إذا طلب إليهم أن يقتلوه لفعلوا، لذا فانه عزف عن الفكرة، إلا أن عزوفه هذا لم يمنعه من أن يغض الطرف عن نشر الدعوة الفاطمية في البلاد[2]. وقد رأينا قبلاً كيف أن البساسيري كان يدعو للخليفة الفاطمي، وأن هذا الأخير كان يمده بكل عون لازاحة عرش الخلافة العباسية.

---

(1) The Ghaznavids : 199

(٢) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة (بويه).

**القرامطة :** إن دراسة تاريخ القرامطة صعبة لأسباب أهمها ضياع مؤلفاتهم وكثرة أعدائهم . لأن أغلب ما ندرسه لا يمثل إلا وجهة نظر خصومهم من أهل السنة ، لغلوهم في شروحهم وعرض اباحيتهم . كما أن الاسماعيليين ، وهم الذين أخذ القرامطة تعاليمهم، وأصول مذهبهم عنهم، يتحفظون كثيراً بمؤلفاتهم لدى ذكر القرامطة ، ناهيك عن منع العامة من الاطلاع عليها . كما أنهم يموّهون أسماء الدعاة ، فيطلقون مثلاً على « زكرويه بن مهرويـــه » اسم « أبي محمد الكوفي »[١] .

وقد اختلف المؤرخون العرب في بيان علاقة القرامطة بالاسماعيليين ، فعدد منهم كالمقريزي وابن النديم يعتبرون القرامطة من فروع الاسماعيلية ، وغيرهم ( وفيهم لامانس ونظام الملك ) يعتبر الاسماعيلية أصلاً والقرامطة فرعاً . وينفي بعضهم الصلة بين المذهبين مستندين إلى بُغض الفاطميين للقرامطة . والواقع أن القرامطة شيعة متطرفة تصلهم صلة نسب بالاسماعيليين والفاطميين[٢] .

تضاربت آراء المؤرخين في سبب تسميتهم بهذا الاسم ، فمن قائـــل إنهم ينسبون إلى فلاح عراقي كان داعية كبيراً واسمه « حَمْدان قرمط »[٣] . ومن قائل إن كلمة « قرمط » كلمة سريانية َتعني « المعلم السري » . أما القرامطـــة أنفسهم، فانهم لا يعترفون بهذا الاسم وانما أطلقه عليهم المؤرخون عامة وأعداؤهم خاصة . ويسمون أنفسهم بـ « المؤمنين المنصورين بالله ، والناصرين لدينـــه ، والمصلحين في الأرض »[٤] .

---

(١) قرامطة العراق : ٥ وانظر تفصيل أخبارهم في المنتظم: ٥/١١٠و٦/٤٣ و٢٢٢

(٢) تاريخ سورية : ٢/١٨٩ .

(3) Cambridge : 19

(٤) اتعاظ الحنفاء: ١٣٠

ظهر «حمدان قرمط» سنة ٢٧٧ هـ = ٨٩٠ م في المنطقة المحيطة بواسط ، حيث أُخمدت ثورة الزّنج[1] ، فدعا الناس إلى جمعيّة سرّية ذات مبدأ اشتراكي فتبعه سواد الكوفة [2] وأهل واسط .ولم تمض عدة سنوات على بدء نشر الدعوة حتى كان لهم في جنوب العراق دولة مستقلّة ،ومن هناك نشر القرامطةُ الخراب في كلّ مكان [3] . ومن أهمّ المبادىء التي دعا « حمدان » إليها نظام الألفة ، إذ تنازل كلّ واحد منهم عما يملكه للجماعة ، وأصبح ما يقدّمه الفرد من خدماتَ لأهل مذهبه ، وما يبذله من نشاط في نصرة الدعوة هو الذي يحدد مكانته ومركزه في المجتمع القرمطي [4] . وقد لاءم انتشار دعوة القرامطة في سواد الكوفة كثرة الشيعة فيها،وما اجتاح المنطقة من سوء للأحوال الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، وخاصة الفلاّحين منهم . ويصف المقدسي [5] بؤسهم وعوزهم ، كما يشرح وعد حمدان إياهم بامتلاك العالم مما حثّهم على الانضمام إلى هذه الفرقة بكلّ صدق وحماس .

ولم يكتف حمدان قرمط بنشر دعوته في سواد الكوفة ،بل بثّ دعاته في جنوب العراق وبادية السماوة . ومن أهمّ هؤلاء الدعاة « زكرويه الدّنداني » الذي اختص بمنطقة الشام حيث دُعي هناك بـ « صاحب الناقة » . فبعد أن انتصر على الطولونيين نوديَ به خليفة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وزعم أنه من نسل علي .

وقد عاثت فرقته فساداً في المدن الشامية كلها ، وقتلوا أهلها ، وساقوا أبناءها أسرى ، فدخلوا « سَلمية »و« بعلبك » وقتلوا أهلها أجمعين حتى صبيان

---

(1) The Origine of Ismailism«Camb: 19History of Islamic Peoples : 144 »

(٢) تاريخ أخبار السلاجقة : ١٤ .

(٣) تاريخ سورية : ٢ /١٨٩

(٤) تاريخ أخبار السلاجقة : ١٥

(٥) أحسن التقاسيم : ١١٩

الكتاتيب والبهائم [1] إلا دمشق فقد ظلّت منيعة عليهم ، أما حمص فقد فتحت لهم بسهولة واعتبروها أحد مراكزهم .

وعلى الرغم من انشغال بغداد واضطرابها فإنها لم تتوقّف مكتوفة الأيدي أمام هذا العدوّ الجديد خاصة عندما تحوّلت ثورة « زكرويه » القرمطي عن الشام إلى طريق الحجّاج ، حيث راحوا يقتلون الحجاج وينهبون أحمالهم . فأرسلت بغداد عدداً من الجيوش لمحاربتهم بقيادة كبار القوّاد . فقتل أحمدُ الجيوش ، وكان بقيادة ( وصيف ) ، عدداً عظيماً منهم ، واستطاع أحد الجنود أن يظفر بز كرويه ويقتله [2] . غير أن ثورتهم لم تخمد ، بل اتجهوا نحو الأحساء في الجزيرة حيث أنشأوا فيها دولتهم عاصمتها ( المؤمنيّة ) ( وهي الهفوف اليوم ) بعد أن نجحت دعوتهم هناك . وقد اختاروا تلك المنطقة لبُعدها عن جيوش الخليفة ولفقر قبائلها .

ومع أنّ الداخلين في المذهب يدفعون بعض المال لدى إعلان انتسابهم للدعوة ، فإنّ الدعاة سرعان ما يوزّعون عليهم الأموال ، حتى كاد المؤرخون يعدّون حركة « حمدان قرمط » حركة اقتصادية واجتماعية [3] . وكانوا من هناك يغيرون على بغداد وعلى قوافل الحجّاج بين ٣٠٢ - ٣٣٢هـ = ٩١٤ - ٩٤٣م ، وليس هذا فقط بل أغار ابن أبي سعيد على مكة ونزع الحجر الأسود من الكعبة ، كما اقتلع باب البيت وكسوته سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩م [4] ، وأنفذها إلى عاصمته بالأحساء حيث ظلّ الحجر الأسود ثلاثين سنة في حوزتهم [5] . ولم يقصّر

---

(١) تاريخ القرامطة : ٢٨٩ - ٢٩١

(٢) الطبري : حوادث سنة ٢٩٤

(٣) قرامطة العراق : ٢٧

(٤) الكامل ، حوادث سنة ٣١٧ ، ويقول ابن الأثير : بل بقي عندهم ٢٢ سنة .

(5) History of Islamic Peoples :144

البويهيون أيضاً في محاربتهم ، وكانوا يغيرون عليهم كلـمّا استفحل أمرهم ، فقد استطاع معزّ الدولة أن يستخلص البصرة منهم سنة ٣٣٦هـ = ٩٤٧م [١] .

ولقد اعتمد القرامطة والاسماعيليون في نشر دعوتهم على ما أعدّوه من تنظيم كامل للدعاية مُستقين معظم وسائل دعايتهم من نظام الكون ؛ فكما أن السنة تقسم إلى اثني عشر شهراً فالعـــالم يقسم كذلك إلى اثني عشر قسماً ويطلقون على كلّ قسم اسم « جزيرة » . ويعيِّنون لكلّ جزيرة داعيةً عاماً يسمونـــه « داعي دعاة الجزيرة » ، ويعرف أحيانـــاً بـ « حجة الجزيرة » أو « صاحب الجزيرة » . وكما أن الشهر يتألف من ثلاثين يوماً فقد أوجب الاسماعيلية أن يكون لحجة الجزيرة ثلاثون مساعداً ، وأطلق عليهم اسم « النقباء ».وأوجدوا تحت إشراف كل نقيب أربعة وعشرين داعياً بحسب ساعات اليوم ؛ اثنا عشر داعياً منهم ظاهرون كالشمس بالنهار ، واثنا عشر داعياً يختفون كاختفاء الشمس بالليل [٢] . ويهتمّ القرامطة بدعاتهم ، ويكنـّون لهم كل احترام ، ويعتبرونهم كالأنبياء ، مُعتمدين على الآية : « يا أيهـــا النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله » [٣] .

ويستخدم الدعاة وسائلَ معيَّـنة في جذب المُريدين إلى دعوتهم طبقاً لخطة معلومة محدودة ، وذلك في تسع مراحل [٤] ، تبدأ بـ « التفرُّس » لاختبـار الأشخاص الذين تبدو عليهم سرعة التأثـر وتنتهي بـ « السَّلخ » .

**الفرقة الصبّاحيّـة :** برز للسلاجقـة في أوج عظمتهم عدوّ داخلي ، نشر الذعر سنوات طويلةً ، هذا العدوّ هو « الفرقة الاسماعيلية الشرقيـة » التي

---

(١) الكامل ، حوادث سنة ٣٣٦ .
(٢) قرامطة العراق : ١٥٩ . وانظر كذلك ( تأويل دعائم الإسلام :١/٢٩٧ ) .
(٣) سورة الأحزاب : ٤٤ .
(٤) فضائح الباطنية : ٢٣ ، قرامطة العراق : ١٦٦ – ١٧٤ .

سميت بالحشيشيّة أو الصبّاحية . فقد ظهر داع فاطمي كبير اسمه « أحمد بن عبد الملك عطّاش »، وكان أبوه «عبد الملك» من كبار دعاة المذهب الاسماعيلي في العراق ، ومشهوراً بالأدب والشعر والزهد ، فكانت هذه الصفات سببَ شهرته ومحبة الناس له ، وقد اضطر أحمد إلى الرحيل عن اصفهان متّخذاً الريّ مقرّاً له عندما اشتدّ تعذيب الشعب لمُريديه ، وهناك اتصل بالحسن الصبّاح .

استفاد أحمد من اختلاف السلاجقة فيما بينهم، فاستولى على قلعة «شاه دُژ »، وهي من قلاع اصفهان الحصينة ، وملأها بالأسلحة والعتاد الحربي ، واتّخذها مركزاً للدعوة ، فتبعه خلق كثير من أهل أصفهان. وقد استخدم الذعر كوسيلة من وسائل بثّ دعوته ، وبعد حين تمكّن داعيتُه « الحسن الصبّاح » بالحيلة من الاستيلاء على قلعتَي « طَبَس » و « ألَمُوت » [1] . كما أن فرقته تمكنت ( فيما بعد ) من الاستيلاء على قلاع أخرى في فارس وسورية [2] .

يخبرنا الحسن الصباح أنه نشأ شيعيّاً ، وأنه « الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحِميَري » ويدّعي أنه ينحدر من الملوك الحميريين القدامى . ولكنّ « مِيرْخَوانْد » يرى ، حسب شهادة نظام الملك ، أن قوم طوس ينفون عنه هذا الادّعاء ، ويذكرون أن أصله من أسرة فقيرة في بلادهم ، وأما ابن الأثير فإنه ينسبه إلى بلدة الريّ . و « جامع التاريخ » يذكر أن والده جاء من الكوفة إلى إيران ، وهو ولد في « بلدة قُم » .

تبدأ معرفتنا به عندما كلّفه « ابن عطّاش » ٤٦٤هـ = ١٠٧٢م بالتوجّه

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران : ١٦٧/٢ .تاريخ گزيده : ٤٨٨/١ وتقع جنوب بحر قزوين. وهي لفظة مركبة من « آ له: نسر + آموت : عش » ؛ اللفظة الأولى پهلوية، والثانية لهجة محلية في قزوين . ولم يبق منها اليوم إلا بعض الخرائب .

(2) History of Islamic Peoples : 179

إلى القاهرة لمقابلة الخليفة الفاطمي المنصور . وقـد وصل إلى القاهرة فعلاً سنة ٤٧١هـ = ١٠٧٨م حيث كان الصراع على الخلافة قائماً، ووجد نفسه هناك مؤيِّداً نزاراً ، بينما كان الآخرون يريدون الابن الآخر ، وهو المنتصر [١] . وقـد قام بعدة حملات ضد السلاجقة عندما عاد إلى بلاده حتى تمكن في سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠م من الاستيلاء على قلعة « ألـموت » ( كما ذكرنا ) . وعلى الرغم من انتصاراته فإنّ حركاته كانت خاضعة لمراقبة نظام الملك ، وخاصة لما يقوم به من صلات ولقاءات بالمصريين القادمين إلى تلك البلاد .

وحوالي سنة ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م انعقد اجتماع الحشاشين في جلسة سرية لمناقشة الوسائل والأهداف التي من أجلها خططوا لما يسمى بفنّ الإجرام . وعلى الرغم مما كان يقوم به هؤلاء الحشاشون من فظائع فإنّ السلاجقة ظلوا يتابعونهم ويتعقّبونهم ، حتى تمكّن « بَرِكيارُق » من هدم « شاه دُژ » والقلاع المجاورة سنة ٥٠٠هـ = ١١٠٧م وقتل ابن عطاش . غير أن الرأس المفكّر ، وهو الحسن الصباح ، ظلّ يتابع اغتيالاته إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤م. وقد أخذت هذه الفرقة بعد وفاته في الضعف والانحلال [٢] .

ولعلّ من أهمّ أعمالهم التي قاموا بها قتل « نظام الملك » على اعتبار أنه ألدُّ أعدائهم ، كما تمكنوا من قتل ولديه بعده ، وهما أحمد في بغداد وفخر الدولة في نيشابور [٣]. وربما كانوا السبب في سمّ « ملكشاه » ، واغتيال عدد آخر من ذوي السلطة المناوئين لمبادئهم .

ومع أن الحسن الصباح ثالث الدعاة العظـام ( بعد عبد الملك وابنه أحمد «

---

(1) Ibid .

(٢) الموسوعة الاسلامية مادة ( الحسن الصباح ) .

(٣) تاريخ أدبيات در إيران : ٢/١٦٨ .

للمذهب الاسماعيلي في زمان السلاجقة [١] فإن هذه العقيدة تعزى بشكل خاص إلى الحسن الصباح بشكلها المتطور ، لأنه كان الشخصية المهيمنة على حياة الحشاشين ، ولأننا نملك عنه معلومات مفصلة [٢] دون غيره من أصحاب هذا المذهب . ومع أن ابن عطاش كان أكثر نشاطاً فكرياً وأكثر شهرة في تلك المرحلة ، إلا أننا لا نملك نموذجاً واحداً من كتاباته كي نقارنها بكتابات الحسن[٣].
أما الحسن فإنّ المؤرخين عثروا على مقالات كتبها بالفارسية تحلل مبدأه ، وتكشف النقاب عن نشاطه الزائد منذ أن كان داعية للديالمة قبل أن يرحل إلى مصر ، وبعدما دخل ألموت تحت اسم مستعار ، واحتلها [٤] .

وعلى هذا فقد اعترف بأنه أهمُّ الدعاة حجّة في المذهب . وكلمة «حجة» التي حظي بها ، واستُعملت بشكل غير رسمي تدلُّ على شخصيته حسب تسلسل المراتب الروحية التي تلي الإمام [٥]، كما كان بين قومه ومُريديه ذا مكانة عظيمة، إذ أنهم كانوا ينادونه بلقب اختصّ به هو « سيدنا » [٦] .

وقد نظم الحسن أتباعه طبقات ؛ تحيا الطبقة العُليا في إباحية تامة ، في حين أنّ الأتباع المنفذين كانوا يُنشَّأون على أشدّ ما يكون التعصّب، ويدخل في رَوعهم أنّ من يستجيب لأوامر الزعيم بقتل من يشاء يكسب رضواناً من الله تعالى !! [٧] .

---

(1) Cambridge : 123 .

(٢) تاريخ أدبيات در إيران : ٢/١٦٧

(3) Cambridge :125 .

(4) Cambridge : 429 .

(5) Gambridge : 438 .

(٦) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة( الحسن الصباح ).نظم ناصر خسرو الشاعر الفارسي الاسماعيلي قصيدة تروي حياة الحسن الصباح وعنوانها ، سرگذشت سيدنا : ماضي سيدنا » .

(٧) وصفَ الرحّالة ماركوبولو سنة ٦٧٠ هـ - ١٢٧١م عندما مرّ بقلعتهم ألموت حياتهم بشكل أقرب ما يكون إلى الخرافة .

والواقع أن نظام الملك الذي حذّر من ظهور القرامطة والباطنية في كتابه « سياستنامه » كان يعني أولئك الذين دخلوا في الإسلام مؤخراً ، وهدفهم القضاء على السياسة العربيّة الإسلاميّة [١] .

وتابعت هذه الفرقة جرائمها ونشر دعاياتها ( على الرغم من مساعي السلاجقة للحدّ من نشاط الأتباع ) إلى أن قدم المغول، وهدّموا قلاعهم، وأحرقوا كتبهم. فضاعت آراؤهم وتعاليمهم وكتبهم بفنائهم ، بعد أن أقلقوا مضاجع الزعماء وأثاروا الرعب بين الناس .

**الاسلام والتترك :**

دخل الإسلام آسية وانتشر بين الأتراك منذ أيام الخلافة الأموية ، وفي عهد عمر بن عبد العزيز ، وساعد المأمون والمعتصم في العصر العباسي على نشر الدين في أقصى الشرق بين القبائل التركية ، وزاد من انتشار الدين فيما بينهم عندما انخرطوا في الجيوش العربية . وعندما أسلم « ساتوق بُغراخان » مؤسس الدولة « الايلكخانيّة » سنة ٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م انتشر معه الإسلام بين القبائل حيث تبعته مئتا ألف أسرة مباشرة . ولا شك أنّ « سُبكتكين » مؤسس الدولة و (والد محمود) تأثر بهذا الجوّ الإسلامي الذي كان يسود موطنه « تُركِستان »، فاعتنق هذا الدينَ بقلب صادق حيث أتيحت له الفرصة عند سيده « نصر حاجي ؟ » ليحقق مع ابنه محمود أعظمَ انتصار للاسلام شهده ذلك العصر [٢] . ثم ما لبث أن تبعه السلاجقة في اعتناق الدين ونشره في الشرق وفي آسية الصغرى . وقد ظلّت الدولتان الكبيرتان تخضعان روحياً للخليفة في بغداد ،

---

(1) History of Islamic Peoples : 179

(٢) الأدب الفارسي في العصر الغزنوي : ٢١ – ٢٢ .

وتعتبرانه ظلَّ الدين الذي يجب أن يكون راضياً دوماً ، وخاصة لأن مذهبهم هو مذهب الخليفة السنّي ، ولذلك سعى لإطالة عمر هذه الخلافة تحدّياً للخلافة الفاطمية ، ونصروا السنّة ، وحدّوا من نشاط المذاهب الأخرى كالشيعة والاسماعيلية التي كانت تضغط على أتباع المذهب السني . ومن مظاهر هذا التمسُّك تقبُّل محمود أوامر الخليفة « القادر بالله »،وحضّه الأمراءَ الآخرين على الامتثال بها .

ولهذا فإننا نرى محموداً يؤدّب كلَّ من تحدّثه نفسه بالميل إلى أحد هذه المذاهب . ولم يقف عند هذا الحد بل إنه اتّخذ تهمة« الهَرطقة »أو«التشيُّع» ستاراً يخفي وراءه تنكيله بالمفكرين الذين ينزعون إلى الفلسفة وإعمال الرأي ، فقد قتل أستاذَ البيروني بتهمة القرمطة ،وكاد يفتك بالبيروني للسبب نفسه[1]. كما يقال إنه عزف عن تشجيع الفردوسي صاحبِ الشاهنامه لاتّهامه بالتشيُّع[2]. كما أمر عمّاله بخراسان وغيرها بقتل المُعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجَهَميّة والمشبّهة ، وصلبهم ولعنهم على المنابر . وكان كلما انتصر في واقعة أنبأ الخليفة أنّ « السنية » انتصرت على « الرافضة » فيصله التأييد والثناء والدعاء[3] .

أما السلاجقة فقد توقّف المؤرخون الشرقيون والغربيون حيال أسماء المؤسسين الأوائل ( ميكائيل ، يونس ، موسى ، إسرائيل )، فهي أسماء يهوديّة ! ويَفترض «دانلوب» أن سبب وجودها بينهم راجع إلى أن ملك الخزر اليهودي ! حاول أن يُدخل مؤسس الدولة السلجوقيّة في هذا الدين . ولكنَّ بعض علماء الروس اعتبروا هذه القضية كدلالة على أن السلاجقة اتخذوا المسيحية ديناً لهم

---

(١) الأدب الفارسي في العصر الغزنوي : ٣٩

(٢) المجموعة الفارسية : ١٦٧ .

(٣) المنتظم : ٧/٢٨٧ .

مستندين إلى ما أشار إليه القزويني من أن المسيحية كانت منتشرة بين الأتراك. ومن قائل إنهم أخذوا هذه الأسماء من التوراة التي كانوا يعرفونها من أمير الخزر[١]. والواقع، كما تقول المستشرقة الانكليزية (تامارة تالبوت)، أن حلّ هذه المعضلة صعب لأن الغزّ أصبحوا فريسة لأنواع مختلفة من البعثات التبشيرية منذ القديم. ومن المحتمل أن كُلاًّ من هذه البعثات هدَت الكثير من فئات هذا الشعب البدوي، ولكنّ المسيحية لم تجد تأثيراً كبيراً بينهم، كما أنّ البوذية كان عمرها قصيراً ومحدوداً بينهم. ولما لم يرَ المؤرخون أيّ أثر لهذه الديانات في آثارهم أو ثقافاتهم فإنهم عزفوا عنها، واعتبروا مناقشتها غير مجدية. أما الإسلام فقد َتغلغل بين صفوفهم منذ أن كان يخترق التجار المسلمون أواسط آسية في طريقهم إلى الصين أو في أثناء عودتهم منها. ولم ينتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حتى زوّدت المدن الكبيرة على أطراف نهر جيحون بالجوامع، فزاد تماسهم بالإسلام. ولم ينته القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى غدا السلاجقة متحمّسين للتعاليم المحمّديّة[٢].

وقد سجّل السلاجقة نصراً للاتجاه السني، وامتدّ نفوذهم على الشيعة الذين كانوا في مراتبَ أعلى من غيرهم في أيام البويهيين والفاطميين[٣]. ورأينا، في الوضع السياسي كيف أن طغرل قدم مرتين إلى بغداد منقذاً للخليفة العباسي، ومثبّتاً لدعائم خلافته. وكيف أن خلفاءه حاربوا دعاة الاسماعيلية الفاطمية والاسماعيلية الحشيشيّة[٤].

وقد أقبل الأتراك (والمغول) على المذهب الحنفي لأنهم رأوه أكثر المذاهب

---

(١) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة (سلجوق).

(2) The Seljucks : 21 - 29 .

(٣) الموسوعة الاسلامية الفرنسية مادة (سلجوق).

(4) Cambridge : 283

تحرُّراً وطواعية ، عازفين عن المذهب الشافعي ، خاصة ، لأنه في نظرهم أقلُّ تسامحاً باستعمال الرأي والقياس .

ولم يقتصر تعصّب السلاطين للسنّة ، بل تعدّاه إلى وزرائهم أيضاً ، فيذكر ابن الأثير أن عميد الملك الكندري خاطب السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان ، فأذن له في ذلك [١] . وأن نظام الملك أفنى سنيهِ في تعقّب الصبّاحيين حتى كانوا السبب في قتله [٢] .

وإذا كان فضل الغزنويين أن نشروا الإسلام في الهند ، وهدموا المعابد هناك ، فإن فضل السلاجقة يعود إلى أنهم استطاعوا أن ينشروه في آسية الصغرى ، وهذا ما جعل العربية والفارسية تمتدان من مضائق الدَّردنيل إلى مولتان في الهند .

ويُعدُّ السامانيون – بعد الأتراك طبعاً – أكثر هذه الولايات احتراماً للمذهب السني . فقد سعَوا إلى مرافقة العلماء السنيين ، مُعفين إياهم من ضرورة تقديم الاحترام المناسب للأمراء رفعاً لمقامهم ، وقد كان هؤلاء العلماء يشاركون الأمراء في الجلسات التي تبحث في الأمور الدينية ، كما يستشيرونهم في أمور الدولة ، ويُشركونهم باستمرار بقراراتهم ورغباتهم . ويُحكى أن العلماء والحجّاب الذين اغتالوا ( أحمدَ بن اسماعيل ) سنة ٣٠١ هـ = ٩١٤م إنما عللوا ذلك بتماديه بالاتصال بالعلماء مما سبّب ابتعادهم عنه [٣] .

### ج ـ الديانات الأخرى :

وإذا كان المسلمون في القرنين الرابع والخامس في خصام فيما بينهم ، فإنهم

---

(١) الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦

(2) Cambridge :291

(3) The Ghaznavids :28

كانوا متسامحين مع أصحاب الديانات الأخرى . إذ تحدّثنا كتب التاريخ العربية والفارسية أنه كان ببغداد وحدها ما بين أربعين إلى خمسين ألفاً من المسيحيين وألف من اليهود [١] . وقد جُبيت منهم في أوائل القرن الرابع الهجري ١٦٠ ألف درهم جزية [٢] . ولم يكن هناك قانون أو تشريع يمنعهم من تعاطي أي عمل . وبشكل عام كان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدرُّ ربحاً وفيراً ؛ فقد كان معظم الصيارفة يهوداً ، على حين كان أكثر الأطبّاء والكَتَبة نصارى . ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخَّلُ في الشعائر الدينيّة لأهل الذمّة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ، ويأمر بصيانتهم [٣] . وكان لكلّ فئة ( اليهود والنصارى ) رئيس يمثّلهم في قصر الخليفة [٤] .

أما الديانات التي كانت معروفة قبل انتشار الإسلام في بعض أطراف إيران وشاطىء بحر الخزر فقد ظلّت قائمة ، وكان معتنقوها أحراراً في اتّباع الديانة التي يريدون ، فنرى مثلاً أنّ التعاليم الزردشتية كانت معروفة في عدد من بلاد فارس [٥] ، كما أن اشارات المؤرخين تشير إلى أن المجوسيّة كانت منتشرة في طَبَرستان وخراسان وما وراء النهر وسجِستان وخوزستان .

صحيح أنه كانت تحدث بعض الفتن بين المجوس ومسلمي البلاد [٦] ( كما حصل في شيراز سنة ٣٦٩هـ = ٩٧٩م ) إلاّ أنهم كانوا أحراراً في إجراء طقوسهم [٧]

---

(١) يقول متز : « بلغ عدد اليهود في همدان ٣٠ ألفاً ، وفي اصفهان ١٥ ألفاً ، وفي شيراز ١٠ آلاف ، وفي غزنين ٨ آلاف ، وفي سمرقند ٣٠ ألفاً ( الحضارة الاسلامية : ١/٦٢ ) .

(٢) الحضارة الاسلامية : ١/٥١

(٣) المصدر نفسه : ١/٥٤

(٤) المصدر نفسه : ١/٤٦

(٥) صورة الأرض : ٢٦٤ ، المسالك والممالك : ١١٩

(٦) الحضارة الاسلامية : ١/٦٤

(٧) أحسن التقاسيم : ٤٢٩

وفي تزيين الأسواق والأحياء في أيام أعيـــادهم كأعياد النوروز والمهرگان والسذق . وكانت معابد النار متعددة ومُوقَـدة في أنحاء الشرق ، كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ والجغرافية [1] . وقد كان علماء الجغرافية يسمون بلاد الغور « دار الكفر » [2] لكثرة عدد المسلمين فيهـــا . وكانت بعض المجتمعات في بلاد ما وراء النهر تدين بالمانويّة ، وبعضها الآخر في آذربايجان تدين بالمزدكيّة [3] .

---

(١) انظر المراجع المذكورة في هذا الفصل ، فكلها أفاضت في وصف الأعياد .
(٢) صورة الأرض : ٤٤ ؛
(٣) الفرق بين الفرق : ١٦١ ، وانظر الملل والنحل وسياستنامه تفصيلاً لذلك .

# الباب الثاني

# جَولة أُدبيّة عَامّة

# الفصل الأول

# استطلاع أدبي

لسنا متجهين في سبيلنا الآن إلى تصوير عام وجامع للوضع الأدبي من أوائل القرن الخامس إلى أواسط القرن السادس ، فهذا أمر لا تكفيه صفحات ضيقة ، ولا يُنجز في سنوات قصيرة . كما أننا إذا حاولنا الاقتضاب في كلامنا قصَّرنا ، وأضعنا شيئاً مهماً على حساب شيء مهم آخر ، لكثرة الشعراء في هـذه المرحلة كثرة تجعل المطالع مذهولاً !.

ولكننا ماضون في جولتنا ، نشرح أموراً قد تكون واضحة المعالم – إلى حد كبير – عن الأدب العربي في عصر التألق السلجوقي ، ونشير إلى أبرز الكتب والموسوعات التي عُرفت في هـذا العصر ، ومَن هم أهم الشعراء الذين لمعوا . ثم نختم حديثنا بلُبابة نستعرض فيها أغراض الشعر الجارية في زمانهم .

ومما يلفت النظر – ونحب أن نشير إليه – أن الشرق الذي أوسع صدره لنهضة أدبية ( عربية ) هو نفسه الذي سخا على أدب أمة الشرق الفارسية . بل إن البلاط الذي عطف على الأديب الذي كتب بالعربية ، هو نفسه الذي أحيا

في كنفه الأديب الذي كان يكتب بالفارسية . وإذا قلنا قبل أسطر إن عدد الشعراء كثروا في هذه المرحلة ، فإنما عنينا النوعين معاً .. ونضم إليهما نوعاً ثالثاً هم الذين لهم تجارب أدبية في العربية وفي الفارسية .. وسنطلّ إطلالة بسيطة في معرض كلامنا على هـذا النوع الثالث ، وهم الذين يسمون بالأدباء ذوي اللسانين .

## ١ – الأدب والبلاطات :

ولعلّ خير ما يبرز في هذه المرحلة حسن حظّ الأدب ، ذلك أنّ وضع الأدب لم يتبع وضع السياسة في اضطرابه وانشقاقه كثيراً ، ولم يَنْجرّ إلى تلك الدَّرَكات السياسية المظلمة ، بل ظلّ رائجاً ومتداولاً ومنتشراً حتى سقوط بغداد . إنما كان حظُّ بغداد هو الحظ السيء ، ذلك أنها منذ أن خسرت نفوذها السياسي خسرت معه نفوذها الأدبي أيضاً. إلاّ أن هذه الخسارة لم تكن غيرَ رواج للأدب بشكل أوسع ، وغير انتشار للأدباء انتشاراً أكثر ، فقد كانت القصور كلها تأتَمُّ بنهج بغداد ، وتسترشد بمساعيها الأدبية . والحقُّ أنّ ما قامت به سائر القصور إنما كان مبعثها الغَيرة من بغداد ( على ضعفها ) ، والرغبة في تقليدها ، والسعي لمنافستها .

وأهمُّ ما كان الأمراء يتنافسون عليه هو جلب الأدباء ، وتعضيد العلماء ، وتَشييد المدارس ، وإنشاء المكاتب ، وتجهيز المكتبات. ولهذا فقد ظلّ الأدب رائجاً مرغوباً فيه ، يميل إليه الأمراء ، ويتسابقون إلى كسب رضى كلّ أديب لامع ، مهما كان أصله وعرقه .

ومنذ أن خفق العلم الأبيضُ على قباب القاهرة وقصورها في القرن الرابع ، عيَّن هدفه ضدّ منافسه العلم الأسود الخفّاق على ضفاف دجلة وأسوار عاصمة

العباسيين . لذلك فإنّ هذه الفترة فترة ازدهار للأدب (بالنسبة للوضع السياسي) في قصور الحمدانيين ، وازدهار للأدب في قصور الفاطميين ، وازدهار للأدب أيضاً في قصور الغزنويين والسلجوقيين وكانت كلّ عاصمة من عواصمهم بمثابة قِبلة للأدب والعلم يفد عليها روّادها ، وينهلون من مَعينها الثّرّ .

وإذا كان الأدب العربي في غرب العراق أنقى من الأدب في شرقه ؛ فلن ننسى طبعاً أنّ أهل الغرب عرب ، وأن أهل الشرق عشّاق للعرب وللعربية . وإذا كان للأمراء العرب فضل على تشجيع الأدباء ، فانّ الفضل الأكبر يعود إلى الذين لم يكونوا عرباً ، وأكاد أقول لا يعرفون العربية جيّداً ، ويشجعون الأدباء والشعراء والعلماء على التأليف باللغة العربية والنظم بها .. والأسماء التي أوردتها هذه المجموعات الأدبية ، كيتيمة الدهر ودمية القصر ، خير دليل على ازدهار الأدب العربي في تلك الأصقاع مهما قلنا في ضعفها وركاكتها .

وسنتوقّف في بعض البلاطات ، متعمّدين ألا تكون بلاطاتٍ عربية صرفة لشهرة الأدباء فيها . ولمعرفة النهضة التي حظي الأدب فيها ، كبلاط آل حمدان وبلاط الفاطميين وبلاط بغداد. انّما سنتنقل بين البلاطات البعيدة ، والتي عمل أمراؤها على تشجيع الأدب .

كان الأمراء الفرس (في بعض الأحيان) يحثّون الأدباء على الكتابة العربية ، ويقبلون عليها بأنفسهم ، ويتعلمونها ، ويقدّرون علماءها حقّ قدرهم. فقد حكى المقدسي [١] أن الطاهريين أحسن الملوك سيرة ونظراً واجلالاً للعلم وأهله ؛ فمن رسومهم أنهم لا يكلّفون أهل العلم تقبيلَ الأرض بين أيديهم . كما بلغ من حماس «عبد الله بن طاهر» ـ أمير خراسان ـ أن رجلاً قدم عليه في نيشاپور ، وقدّم إليه كتاباً فارسياً . فلما سأله الأمير عنه قال : هو قصّة « وامِق

(١) أحسن التقاسيم : ٣٣٣ ، ٣٣٧

وعذراء »[1] . وضعها حكماء الفرس وقُدّمت لكسرى أنو شروان . فأجابه الأمير : نحن قوم نتلو القرآن ، ولا حاجةَ بنا إلى مثل هذا الكتاب ، ويكفينا كتاب الله وسنّة رسوله» [2]. ولن ننسى طبعاً أنّ الدولة الطاهرية ميالة إلى الخلافة العباسية ، سنية المذهب أصلاً ، لذا فليس من المتوقّع أن تُقبل على الأدب الفارسي .

وإذا تابعنا رحلة « المقدسي » بين البلاطات وجدنا الأمراء السامانيين الفرس يُولون العلم والعلماء الولاء التام . والحقّ أنّ نهضة أدبية عربية وفارسية حصلت في زمانهم ، فلمع أدباء فرس عظام كبوشَكور ( ت ٣٤٠ هـ = ٩٥٠ م ) ، ورُودكي ( ت ٣٢٩ هـ = ٩٤٠ م ) ، ودَقيقي ( ت ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ) ، وعشرات من الأدباء ذوي اللسانين الذين ينظمون ( أو يكتبون ) باللغتين. ومن ينظم بالعربية فأحرِ به أن يتكلّمها بطلاقة ، ويعرف أنّ الشعب يفهم عليه ما يقول ، حتى إنّ بعض أمرائهم كانوا يجيدون العربية إلى جانب الفارسية كالأمير « منصور بن نوح الساماني « ٣٨٧هـ - ٣٨٩ = ٩٩٧ م - ٩٩٩ .

وكذا الأمر في الدولة الزيارية التي اشتهر أميرها « شمس المعالي قابوس بن وشمگير الزياري»٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م بشعره ونثره ورسائله العربية التي تُنبىء عن حسن إحاطته باللغة العربية . وقد أورد الثعالبيّ في يتيمته بعضاً من شعره ومن نثره [3] .

وإذا وجدنا ميلاً إلى اللغتين في بعض البلاطات الفارسية فاننا يجب أن نذكر نهضة للفارسية الصرفة التي من شأنها أن تشجع كلّ ما هو فارسي ،

---

(١) قصة شعرية فارسية أول من نظمها الشاعر العنصري ثم فصيحي الجرجاني .ويحكى أن أصلها پهلوي . لم يبق منها إلا جزء من الترجمة التركية التي قام بها « لمعي » .

(٢) صفحات عن ايران : ١٧٨

(٣) يتيمة الدهر : ٢٨٨/٣ - ٢٩٠ ، لباب الألباب: ٥/١

وتحارب كلّ ما هو عربي حتى اللغة ( والدين أيضاً ) . ولكن هذه الحملة لم تأتِ بنجاح تام ، لأنّ اللغة العربية تسرّبت إلى اللغة الفارسية تسرّباً لا يمكن فصمه مهما حاول بعض الشعوبيين قديماً وحديثاً . لذا فاننا نجد في الدواوين الفارسية المحبّة للعربية كديواني الشاعرين مَنُوچِهري وسَعدي الشيرازي ورباعيات الخيام أكثر من خمسين بالمئة من الألفاظ العربية وأكثر من عشرين بالمئــة في الدواوين التي يميل أصحابها إلى قوميتهم ،ويريدون أن يتخلّوا عن اللغة العربية ( الدخيلة ) . وتبرز الألفاظ العربية في القصائد ذات الروي الواحد خاصة .

وإذا انتقلنا إلى بلاط الأتراك وجدنا في الدولة « الايلَكْخانيّة » ميــلاً كاملاً إلى اللغة الفارسية ، فقد حدّثتنــا كتب الأدب عن ميلهم إلى الشعر وتقديرهم للشاعر ، كما قرض بعض الأمراء الشعر العربي . ومن بين هؤلاء الخانات الأمير « علي بوري تَكين » الذي يعتبره صاحب « ترجُمان البلاغـة » من شعراء القرن الخامس ، فلا عجب إذاً أن تزخر قصورهم بالعديد من الشعراء الفرس كالوطواط وعبد الواسع الجبلي ومحمد العُوفي والأنوري (١) ، وأن يظفر الأدباء بالتشجيع حيث ألفوا لتلك البلاطات الكثير من الكتب ، منها : تاريخ ملوك تركستان تأليف مجد الدين محمد عدنان ، وسِندباد نامه تأليف ظهير السّمرقندي .

وليس ببعيد أن تكون العربية ذات حظّ كبير في بلاطات هذه الأسرة ، فقد كانوا يدينون بالاسلام. ويتبع الاسلامَ عادة شغفٌ بالعربية من غير العرب كما أنّ عدداً من الشعراء الفرس الذين مدحوهم ، وعاشوا في قصورهم كانوا على علم بالعربية . بل إنّ الباخرزي صاحب دمية القصر ( والثعالبي أيضاً ) الذي جال في تلك الأصقاع ، ونقل عن عدد من رواتهم أشعارَ شعرائهم يبرهن ،

---

(١) تاريخ بيهقي : ١١٦٠ ، تاريخ أدبيات در ايران : ٢/٩

بكل تأكيد ، على انتشار اللغة العربية . غير أنّ الواجب يحدونا لأن نشير إلى أن الفارسية كانت صاحبة قصب السبق ، ثم إنها هي صاحبة الفضـــل في نشر العربية هناك .

ويحيجنا وضع الغزنويين المهم إلى الوقوف أكثر في بلاطهم ولدى أمرائهم ، فالأموال الكثيرة التي غنمها السلطان محمود عملت على ايجاد نهضة أدبيةوفكرية، وازدهار مادي عظيم في سائر المناطق التي سيطر عليها . ولا شكّ أنّ بـــلاط محمود وابنه مسعود في غزنة غدا من المراكز الثقافيّة اللامعة في العـالم الاسلامي آنئذ . ويقول « دَوْلَتشاه » إنّه كان في حضرة محمود عـدد كبير من الشعراء منهم العنصري ( ت ٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م ) والعسجدي( ت ٤٣٢ هـ – ١٠٤٠م) ومَنوچهري (ت ٤٣٢هـ ) وأبو الفتح البُستي (ت ٤٠٠هـ –١٠٠٩م ) والبِيروني صاحب العلوم المختلفة ، والذي خصّ الأميرَ مسعوداً [١] برسالته الفلكيّة والتي أسماها بـ « قانون المسعودي » ( ت ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ) والفردوسي صاحب الشاهنامة ( ت ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م)[٢] وصاحب القصة الشهيرة التي جرت بينه وبين السلطان محمود بشأن الشاهنامة نفسها . والثعالبي ( ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧م) والباخرزي (ت ٤٦٧ هـ =١٠٧٤ م) ، ودواوينهم مملوءة بمديحه ، عرباً وفرساً.

ويصف ابن الأثير عصر محمود فيقول إنه صُنّفت له كثـــير من الكتب في فنون العلم،وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويحسن إليهم [٣] ، وبذلك وصف ابنه مسعوداً أيضاً [٤] . ولكن العلماء الغربيـــين

---

(1) The Ghaznavids : 131

(2) Literary History of Persia : 142

(٣) الكامل : ٩/ ٤٠١

(٤) المصدر السابق : حوادث ٤٣٢

يرجعون رغبة محمود الجامحة في جمع العديد من الأدباء والعلماء في بلاطه إلى حرصه على الاستئثار بهم لتتألّق شهرته بهم. ويعتبره «براون» في هذا الحرص، خاطفاً لرجال الأدب والفن تباهياً بهم وبانتاجهم [1]، ولا مانعَ عنده من أن يضمّ الأدباء الذين يلقاهم أثناء فتوحه إلى بلاطه، بالقوة إذا لزم الأمر. كما أنّ عدداً آخرَ من المستشرقين، أمثال «أوغست موللر» و«بارتولد»، يعتبرون هذا الحرص نافعاً للنهضة الأدبية على أيّة حال [2]، فقد جمع من أجلهم أفضل الكتب في قصره بغزنة، وأغدق ابنُه على هؤلاء الأدباء في احتفالات الخريف (مِهرگان) الكثير، إذ دفع ألف دينار للعنصري، وخمسين ألف درهم للزّينبي العلوي، وعشرين ألف درهم لشعراء ليسوا من أهل البلاط.

أما الرأي الأخير في تشجيع الأمير محمود للأدباء والعلماء، فهو رأي المعجبين به (وخاصة العلماء الهنود المسلمين منهم)، فقد عدّوه حامياً للآداب، سخياً على أصحابها.. وما هذه النهضة الأدبية للفارسية والعربية في الشرق إلاّ من عنايته ورعايته [3].

ولم يكن حرصه على جمع الأدباء، على ما يعلم المؤرخون، ناجماً عن جهل، فانّ ثقافته الأولى عرفته بضرورة رعاية هذه الطبقة إذا أراد لاسمه الخلود. فتحدثنا الكتب التي اهتمّت بحياة محمود الأولى أنه درس علومه على علاّمة كبير هو القاضي «أبو نصر» الذي كان إماماً لأبيه «سُبكتكين»، فحفّظه القرآن ورعاه رعايةً أدبيّة ودينيّة في أيام نشأته، غير أن انشغال محمود

---

(١) يحكى أنه أنذر «خوارزمشاه أبا العباس مأموناً المأموني» بارسال أهل العلم الذين بلغه وجودهم في بلاطه «وعدد له أسماء بعضهم» كي يتشرّفوا بالمثول بين يديه وليستفيد من معرفتهم The Ghaznavids : 132

(2) The Ghaznavids : 132

(3) Ibid .

في إدارة الشؤون العسكرية والعامة حرمته من التفرغ التام لهذه العلوم . ويقال إنّ محموداً تعلّم العربيَّة جيداً مع أنه كان يكرهها !! أما معرفته للفارسية فكانت كافية ، ودليل المؤرخين على ذلك تشاورُه مع وزرائه الفرس كـأبي العباس الاسفراييني وأحمد بن حسن الميمندي وحسنك ميكائيل[١] .

وإذا حُرم محمود من متعة الدراسة الوافية في أيام نشأته فـإنه لم يَحرِم أبناءَه واخوته منها . فيحكي البيهقي أنه أعدّ لتثقيفهم خيرة المعلمين . ولم يبلغ ابنه مسعود سن الرابعة عشرة حتى كان على اطّلاع جيد على بعض الأمور الدينية والأدبيّة[٢] . ويعدّ الخصي «ريحان الخادم» أكثر المتمنين به وبتربيته وعندما عيَّن محمود ابنه مسعوداً والياً على هرات صحبه ريحان كمربٍّ وموجّه وواعظ بأمرٍ من سيده محمود . أما معرفته الفارسية فكانت أوسع من معرفة أبيه لأنه كان يكتب بعض الرسائل الجيدة الأسلوب بخطّ يده ، كما كان قادراً على المحادثة والكتابة باللغة العربية ؛ فقد كان يستقبل وفود الخليفة بنفسه ، ويخاطبونه بالعربية ويجيبهم بها . بالاضافة إلى لغتهم التركية الأصليّة التي كانوا يخاطبون بها جنودهم أو يتبادلون بها الأحاديث فيما بينهم[٣] .

وظلّت عناية الأمراء بجمع الأدباء في بلاطات الغزنويين موجودة ، أمـا اللغة العربية فكان حظهم بها يضعف كلما ابتعدوا عن البلاد العربية والفارسية وتغلغلوا في شبه جزيرة الهند .

ونُفاجأ إذا ما نظرنا إلى الأمراء السلاجقة الأوائل ، ذلك أنهم كانوا على جهل مطبق عكس ما كان عليه الأمراء الغزنويون الأوائل . ويتبع هذا الجهل

---

(1) History of Islamic People : 146

(٢) ويحكي العتبي أن مسعوداً كان يستطيع في هذه السن المبكرة أن يشرح بعض قصائد المتنبي وامرىء القيس .

(3) The Ghaznavids : 129 - 130

بالتالي ، قلّة عناية بالأدباء والعلماء ، لذلك فاننا سنصادف في زمن السلاجقة أن الوزراء الفرس هم الذين يرعون هؤلاء الأدباء للجهل الذي أشرنا إليه، ولأنهم كانوا مشغولين في تجوالهم الحربي ، وفتوحاتهم الواسعة .

ولا بأس من وقفة عجلى بين رِداهِ بلاط نظام الملك الذي حكم الامبراطورية السلجوقية من وراء أباطرتها مدة ثلاثين سنة ، لم يغفل فيها عن خدمة أهل العلم والأدب . لنرى ماذا فعل هذا الوزير في النواحي الأدبية ، بعد أن ذكرنا فضله في الأوضاع السابقة ، السياسية والادارية والدينية .

تحكي كتب التاريخ والأدب ، مما ترجمت له ، أنه كان متعلقاً بأهل العلم والأدب والدين أشد التعلق ، وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والصوفيين ، وأن دواوينه يؤمّها الأدباء وذوو المعرفة ، كما كان كثير الانعام عليهم . فلا غرابة إذا رأينا الشعراء ينظمون في مديحه ، والأدباء يؤلفون اعترافاً بفضله . ولم يكن نظام الملك بعيداً عن المجال الأدبي نفسه ، فقد كان في بادىء أمره كاتباً في الدواوين ؛ وله محاولات شعرية ونثرية .

أما أهم الصفات التي ذكره بها الادباء ؛ فهي عنايته بهم وبأدبهم ، وفتحه المدارس، وسعيه لشهرتهم وحدَبه عليهم، وبطولته الحربية ، وحسن إدارته في الحكم ، وإغداقه الزائد على المشتغلين في العلوم، وملؤه الخزائن بالكتب النفيسة ليسهّل أعمالهم ، ومن جملة من مدحه الخطيب التبريزي الشهير ، فقال في فتح « خرشنة » :

هنيئاً لمولانا العُلا وسعودُه　　وأُرغمَ شانيهِ وكُبّ حسودُهُ

هو الماجدُ المرجُوُّ فيضُ نوالهِ　　وكعبُ الندى والمنذرانِ عبيدُه

وما زلتُ أشكو من زماني صرفَه        إلى أن بدتْ لي من ذَراه سعودُه
فآمنني منه ذِمام عقدتُهُ        لدى خيرِ جارٍ لا تُحلُّ عقودُه

وسنمرّ بنظام الملك ثانية في « باب المديح » ، لنرى مكانة هذه الشخصية المدوحة بين غيره من الممدوحين .

وإذا أهمل السلاطين الأوائل الثقافة تاركين أمرها لوزرائهم فإنّ ألب أرسلان ومَن جاء بعده حَقّقوا للأدب والعلم ازدهاراً واسعاً ، وحَموا الأدباء حماية تامّة [١] ، حتى جعلوا أسرتهم أهم الأسر التركية التي أثّرت على التمدّن في الشرق . ومما يُحكى عن ألب أرسلان ميلُه الحقيقي إلى صحبة المثقفين والفنيين ، وسماع الأخبار منهم [٢] .

ولقد برز في عصرهم كثير من الأدباء الفرس والأدباء العرب والأدباء ذوي اللسانين ، أمثال الشاعر فخر الدين الكرگاني ( ت ٤٤٦هـ = ١٠٥٤م ) والثعالبي ( ت ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م ) والرحالة الفيلسوف ناصر خسرو ( ٤٨١هـ = ١٠٨٨م ) وبابا طاهر ( ٤١٠هـ = ١٠١٩م ) وعمر الخيام ( ٥٠٩هـ = ١١١٥ م ) وإمام الحرمين الجُويني ( ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥م ) والغزّالي وفخر الدين الرازي والباخرزي وفريد الدين العطّار .

ولم تقتصر عنايتهم على الأدب بل تعدّته إلى العلوم الرياضية والطبيعيّة . وأهمّ من حاول الخوض في هذه العلوم هو عمر الخيام الذي برز في علم الجبر وحلّ المعادلات التكعيبية . وشهرته الرياضية حملت ملكشاه على أن يعهد إليه

(١) فرهنگ معين : ٥/٧٨٣

(2) Seljucks : 33

بإصلاح التقويم الجلالي ناهيك عن رباعياته الفكرية والفلسفيّة [١] .

وقد أثـّر الغلمان والإماء الأتراك في الأدب ، والشعر منه خاصة ،بحيث مال الشعراء إلى هذا النوع من الجمال الجديد عليهم ، وراحوا يتغزّلون به . وطبيعي أن تؤثر هذه الفئة في المنزل الذي تحلّ فيه وهدفها الطهي والحياكة والفن . وكم عشق الشعراء هؤلاء الجواري ، وكم نظموا فيهنّ كأبي تمام وابن الرومي . ولقد أهدى الوليد بنُ يزيد ابنَ ميّادةَ الشاعر جارية طَبَرِسْتانيّة رائعة الجمال ، كان نقصها الوحيد في نظره أنها لا تحسن العربية ، فقال فيها :

بأهلي ما ألذَّكِ عندَ نفسي  لو انَّك بالكلامِ تُعرِّبينا [٢]

على أن صورةَ « التركي » تغيّرت بعد حين ، كما أسلفنا ، وغدت تعبّر عن الجور والعسف والتعذيب والقتل [٣] . وكثيراً ما نجد في الأدب الفارسي أنّ كلمة « تركي » تعني الظالم أو السفيه ، ويصفهم أبو العطاء الجويني بقوله [٤] :

قومٌ تَرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً  وتَستحلُّ دمَ الحُجّاجِ في الحرمِ

على أن هذه الصور التي يصوّر الفرس فيها مظالم الأتراك قليلة في الشعر العربي، ولكنّها موجودة على أيّة حال ، قال دِعبل الخُزاعي :

لقد ضاعَ أمرُ الناس إذ ساسَ ملكَهم
وصيفٌ وأشْناسٌ ، وقد عظم الكربُ [٥]

---

(1) History of Islamic people : I75

(٢) انظر أخبار ابن ميّادة في الأغاني : ٢/٢٦١ — ٣٤٠

(٣) انظر في ذلك دواوين : ناصر خسرو وعبد الواسع الجبلي وسنائي والأنوري والخاقاني والفاريابي .

(٤) تاريخ جِهانگُشاي : ٢/١٩٨

(٥) بائيّة دعبل ، انظر الديوان .

كما قال بعضهم :

خليفةٌ في قفص بينَ وصيفٍ وبُغا
يقولُ ما قالا له كما يقولُ الببّغا

وقد أورد الباخرزي في بعض أجزاء من الدمية ، والعماد الاصفهاني في الخريدة نماذج من الشعر العربي لعدد من الشعراء في مدح الأتراك وهجائهم والتغزّل بهم . ومن جملة هذه النماذج قولُ أبي جعفر البحّاثي في التغزل المكشوف بهم :

عليك بالتركِ وأولادِهم فالتركُ جيلٌ كلُّه لذّه[1]

## ٢ – اللغة العربية في الشرق :

والذي دفع هذه الجموع الكبيرة إلى تعلّم العربية والإجادة بها وقرض الشعر أو نثر النثر العربيَّين رغبتهم في ورود الدوائر الديوانيّة . فمن شرائط بعض الوظائف حسن الخطّ وكثرة الحفظ والبراعة بالكتابة العربية ، مما سنراه بعد حين .

ولهذا برزت طبقة من الأدباء سميت بذوي اللسانين ، بدأوا بالترجمات من الفارسية إلى العربية منذ أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي كابن المقفّع وعبد الحميد وآل نُوبَخْت ، وبالترجمات من العربية إلى الفارسية ليتعرّف الفرس إلى الأدب العربي ؛ شعره ونثره ، وليتثقّفوا به ، فقد نقل رودكي الشاعر الفارسي الكبير « كليلة ودمنة » إلى الفارسية شعراً سنة ٣٥٢هـ=

---

(١) الدمية : ٣٤٦/٢ ، وانظر كذلك في ٢٢٠/١

٩٦٣م ، كما تُرجم القرآن وبعضٌ من أجزاء التاريخ الطبري وكتاب ( الأبنية عن حقائق الأدوية ) للبيروني ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م . ليغدو اللسانان بعد حين من علامات البراعة والثقافة ، ولتصبح ( الملمّعات ) من علائم البراعة في النظم[١]. كما أفرد عدد من الأدباء الفرس ( القدماء والمحدثون ) فصولاً في كتبهم لهذه الطبقة الممتازة كمحمد العوفي في كتابه ( لباب الألباب ) .

وقد كان الفارسي يفخر بمعرفتِه العربية ، ويُمدح بإجادته هذه اللغةَ . من ذلك قولُ المتنبّي يمدح ابنَ العَميد :

عَربيٌّ لسانُه ، فلسفيٌّ رأيُهُ ، فارسيةٌ أعيادُهْ

أو قول ( أبي سعيد الرُستَمي ) يفخر بعروبته :

إذا نَسبوني كنتُ من آلِ رُستمٍ
ولكنَّ شعري من لُؤيِّ بنِ غالبِ

في هذا الجوّ الذي يضغط على اللغة الفارسية من الطرفَين ؛ العربِ ولغتهم ، والأتراك القادمين من الشرق ولغتهم ، تولّدت في فارس عداوة للغتين . وخاف بعض العلماء الفرس على أن تَهنَ لغتُهم أمام هذا الضغط ، فعمدوا إلى الحضّ على التمسّك باللغة الفارسية والقومية الإيرانية ( الشعوبية ) خشيةَ انهيار لغتها وعنصرها . ما جعلهم يعودون إلى عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم ، حتى إلى تقديس آلهتهم التي كانوا يعبدونها قبل الإسلام كتقديسهم ليوم( أورْمَزْد)[٢]،

---

(١) في اصطلاح علم البديع هي أن يكتب المصراع الأول أو البيت كله بالفارسية ويكتب المصراع الآخر أو البيت كله بلغة أخرى ( ويرجّح أن تكون اللغة الأخرى عربية ) .

(٢) اورمزد : مخففة من « أهُورا مَزْدا » وهو اسم إله لدى الزردشتيين. واسم اليوم الأول من كلّ شهر شمسي يُستحبّ فيه لبس الجديد والسّفر : ولا يستحبّ فيه الدَّين ( المعجم الذهبي)

كقول ( بو شكور ) :

روزِ اُورمَزدَ ستْ ، شاهاشادْ زِي

بركتِ شاهى نِشين وبادَه خورْ

وترجمته : امرح أيهـــا الملك في يوم اورمزد ، واجلس على سرير العرش واشرب الخمرة .

والحديث عن مساعي الفردوسي صاحب الشاهنامة لإعادة القومية الفارسية إلى ما كانت عليه قبل الإسلام ليس بغريب على المثقّفين .

أمّا من حيث اللغة فقد ظلت الفارسية ( على الرغم من انتشار العربية وضغط الدول التركية ) رائجة ومتطوّرة ، بل إنها تبعت جيوش الفتح شرقاً وغرباً ، فقطعت حدودها المرسومة لها ، حتى دخلت بلاد الهند ونزلت إلى جنوبهـا ، وحطّت رحالها كذلك على شواطىء الدّردنيل .

ولقد عرف الأتراكُ ( الغزنويون والسلاجقة ) أنّ لغتهم التركية ليس لهـا رصيد حضاري يسهّل لها دخول الدواوين ، أو يحثّ الأدباء على الكتابة والنظم بها ، لذلك شجعوا العربية والفارسية ، خاصة وأن اللغتين في نظرهما مقدّستان دينياً [١] ، وأن العربية لغة القرآن والحديث .

وإذا وجدنا أنّ الفارسية تأثرت بالعربية في القرن الأول فتحوّلت الأبجدية الفارسية ( البهلويّة ) إلى أبجدية عربية فيما بعد ، فإنّ اللغة التركية اتخـذت

---

( ١ ) عندما دخل الإسلام إيران اعتبر الفرسُ اللغة العربيةَ مقدسة دينياً لأنها لغة القرآن ، وحينما دخل الإسلام بلاد الترك والهند اعتبروا اللغتين معاً مقدّستين ، لأن غالبية الفقهاء ومبشري الدين كانوا فرساً .

الأبجدية العربية أداة للتعبير والكتابة بعـــد عدة قرون ، وذلك عن طريق الفارسية. وإذا استطاعت اللغة الفارسية أن تتسرّب إلى أقاصي الشرق والشمال الشرقي باسم الدين، فإنّ العربية لم تتوقف في انتشارها لأننا نجد أدباء ومؤرخين مسلمين في أقاصي البلاد يجيدون العربية وينظمون بها . وما هـذه الكتب التي أُلّفت وضمت تراجم لأعلام عاشوا في أقصى الشرق إلا برهان أكيد على انتشار العربية انتشاراً واسعاً في بخارا وبلاد ما وراء النهر وغيرها من الأصقاع التركية البعيدة . وإذا حاول الفرس في تلك البلاد أن يدرّسوا بعض العلوم بلغتهم فإنّ القدسية الدينية اضطرت العلماء الفرس أنفسهم إلى تدريس علوم أخرى بالعربية ، فقام بحّاثون يجيدون العربية بتدريس علوم القرآن والحديث ، والفقه والشرع والقضاء باللغة العربية (١) ويؤلفون بها ، ومؤلفاتهم الثمينة لا زالت في مكتباتنا وتعتبر من مراجعنا . كما أن اللغة الفارسيةَ نفسها ، والتي كان لها الحظّ الأوفر في الانتشار ، كانت تتسرّب إلى الشعوب التركية حاملة معها مئاتٍ من الألفاظ العربية التي طُعّمت تطعيماً فارسياً،وأخذت مكانها في معاجمها وقواعدها (٢) .

بقي شيء نحب أن نشير إليـــه ، وهو أن بين هذه الحركات اللغوية التي تصطرع فيما بينها ، برز أمران :

الأول : أن الشعور بالقوميات عمل على تمسك الناس بلغة الأم ، كالفارسية والتركية ، وهي بوادر الشعوبية عند بعضهم ، وهي أوسع نطاقاً من الشعوبية التي ظهرت في القرن الثاني على يد بشار ونظرائه .

الثاني : أن هذا الامتزاج بين اللغات ، أخرج لغة جديدة مزيجاً من لغـات الأمم المسلمة كالتركية والفارسية والهندية ، استرجحها الناس ، وهي التي كانت فاتحة للغة العامية .

---

(1) History of Islamic people : 173

(٢) انظر فصل « نظرة في الصلات العربية الفارسية » من كتابنا « المجموعـة الفارسية » تفصيلا لذلك .

## ٣ – المدارس والتعليم :

كانت بغداد ، كما أسلفنا ، محطّ أنظار الأمراء جميعاً ، وقِبلةَ تقليدهم في كلّ شيء ، فقد أنشأ « الحاكم بأمر الله » الفاطمي مكتبةً على نَسَق « بيت الحكمة » ببغداد وسماها « دار الحكمة » ، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأباح للناس دخولها ، فكثرت فيها المُناظرات وأُلقيت فيها المحاضرات [١] . ولم يمض طويل عهد حتى أخذ الأزهر يشعّ نورُه في عهد خلافة « العزيز بالله » ، فقد أمر وزيره « يعقوب » أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة ، ويؤيّدوا دعوى الخلافة ، وأن يجري عليهم الوظائف ، ويشيد لهم المساكن . فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الاقراء ، ومن المُدارسة إلى التّدريس [٢] ( تماماً كما فعل نظام الملك في مدارسِه ) .

ومثل هذه المدارس كثير في سائر العواصم العربية ، إذ تُحدّثنا حياة العديد من الأدباء أنهم وفدوا على مدارس حلب ودمشق وتعلّموا فيها . ويذكر صاحب كتاب « الدارس في أخبار المدارس » برهاناً آخر ، أسماءَ عشراتٍ من هذه المدارس بدمشق .

وإذا انتقلنا إلى العصر الغزنوي وجدنا أنّ عنايتهم بالتعليم ونشره لم تكن بأقلّ من عنايتهم بالأدب وتشجيعه . فقد كثرت المدارس التي أصبحت تُعرف باسم ( دبيرسْتان ) [٣] كثرة عظيمة ، حتى كانت غزنة وحدها في عهد محمود تضمّ أكثر من خمسين مدرسة . وغدا التنافس على إنشاء المدارس بين الموسرين

---

(١) يناقض هذا الكلام ما زعمه المؤرخون من أنه أصيب بلوثة .

(٢) تاريخ الأدب العربي : ٣٤٧

(٣) دبيرستان : لفظة فارسية معناها – اليوم – المدرسة الثانوية .

لا يقلّ عن حرص الأمراء أنفسهم على فتحهـا . حيث أخذوا ينشئون المباني الضخمة ، ويوقفونها لتكون مدارسَ ومعاهد للتعليم (١) .

وسرعان ما انتقل فضلُ إنشاء المدارس إلى السلاجقة ، ويُعزى هذا الفضل خاصة إلى وزيرهم الأديب ( نظام الملك الطوسي ). فقد نَعِمت فارس والعراق في ظلّ ملكشاه ونظام الملك بفترة رخاء ، عطف فيهـا الاثنان على الفقهاء والعلماء ، وضمنوا لهم مواردَ ثابتةً بإنشاء المدارس في جميع المدن الرئيسية في الامبراطورية السلجوقية ، والتي حمَل أغلبها اسم ( النظاميّة ) ، وخاصة في مدرستي بغداد ونيشاپور (٢) .

كان الشعراء يفدون على نظام الملك ، وينالون منه صلات كثيرة . وكما يقولون كان عندما يَنْدُو إليـه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني والإمام زين الإسلام أبو القاسم القُشيري ينهض ويُجلسها مكانه (٣) . ولقد أحسّ أنّ الدولة بحاجة إلى موظّفين مطيعين أكفاء ، يربّون تربية دينية على المذهب الشافعي (٤) ، ورأى ضرورة محاربة المذاهب الأخرى كالشيعية والباطنية ، فعمد إلى محاربتهم بفتح هذه المدارس على الأسس السنية ، اعتقاداً منه أنهـا خير وسيلة لحربهم . فشرعَ ببناء أول مدرسة نظامية في مدينة بغداد سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٤م (٥) ، واشترى لها الضياع والحمّامات والمخازن ووقفها عليها (٦) . وتقرّر التدريسُ

---

(١) صفحات عن إيران : ١٤٥

(2) History of Islamic People : 173

(٣) مجلة الدراسات الأدبية : ٦٨

(٤) تبعه الأمراء والسلاطين في هذا الطريق ، فبنى ملكشاه مدرسة في اصفهان على غرار نظامية بغداد ، إلا أنه حدّد التعليم فيها على أسس التعليم الحنفي ، تحدياً لمبدأ نظام الملك الشافعي ( تاريخ أدبيات : ٢/١٤٢ ) .

(٥) يقول براون إنه بدأ سنة ٤٥٨ هـ وانتهى سنة ٤٦٠ هـ .

(٦) مجلة الدراسات الأدبية : ٦٨ ، الكامل : ١٦٣/٨ .

فيها للشيخ « أبي اسحاق الشيرازي » ، ولما لم يحضر يومَ الدرس الأول عيّن مكانَه « أبو نصر بن الصبّاغ » صاحب كتاب « الشامل » . ولم يزل نظام الملك يرفق بأبي اسحاق حتى رضي بأن يدرّس بالمدرسة بعد أن درّس ( أبو نصر ) عشرين يوماً [١] . كما عيّن ( الخطيب التبريزي ) خازناً لدار الكتب ، وعهد بإدارة المدرسة إلى ابنه ( مؤيد الملك ) حيث ظلّت ولايتها بأيدي أبنائه حتى سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م .

ويقول الرحالة ابن جبير إنه لقي ببغداد ثلاثين مدرسة ، كانت ( النظامية ) أكبرها وأوسعها وأنشطها في التعليم [٢] . كما وصف المؤرخون حلقات الدرس ومجالس العلم في هذه المراكز وصفاً حيّاً أشبهَ ما تكون بالجامعات الحديثة ، فالحلقات المختلفة تنعقد لطلاّب العلم الذين يفدون من أقطار بعيدة ، بعد أن درسوا المبادىء العلمية الأولى في كتاتيب بلادهم . وتتوزّع الحلقات حسب الاختصاص الذي يَرتئيه الطالب لنفسه من فقه أو تفسير أو حديث أو نحو أو صرف أو لغة أو أدب أو غير ذلك من العلوم . وقد زار ابنُ بطّوطة بغدادَ سنة ٧٢٧هـ = ١٣٢٦م فوجد ( النظامية ) في سوق الثّلاثاء، وهو أعظم أسواقها ، فقال :

«وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها ، وفي آخره المدرسة ( المستنصرية )،ونسبتها إلى أمير المؤمنين (المستنصر بالله ) . وبها المذاهب الأربعة ، لكلّ مذهب إيوانٌ فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرّس في قبّة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط . ويقعد المدرّس وعليه السكينة والوقار لابساً ثيابَ السواد ، معتمّاً ، وعلى يمينه ويساره مُعيدان يُعيدان كلّ ما يمليه ، وهكذا ترتيبُ كلّ مجلس من

---

(١) الكامل . حوادث سنة ٤٥٧ .
(٢) رحله ابن جبير : ٢٠٦ - ٢١١

هذه المجالس الأربعة. وفي داخل هذه المدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء »[١].

وقد كانت طبقة المعلمين تنقسم بالنسبة إلى درجاتهم إلى ثلاث فئات : فئة المدرسين وكان لكل منهم نائبان ، وفئة المعيدين الذين يعيدون إعطاء الدروس ويكررونها ، وفئة ثالثة بمثابة الوعّاظ[٢]. ومن أهمّ المدرسين : أبو نصر محمد ابن عبد الواحد المعروف بابن الصبّاغ الشافعي ( ت ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤م ) ، وأبو سعيد عبد الرحمن بن محمد النيسابوري المعروف بالمتولي ( ت ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م ) وأبو اسحاق جمال الدين ابراهيم الشيرازي ( ت ٤٩٦ هـ = ١١٠٢م ) وأبو زكريا يحيى بن علي الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي ( ت ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م ) وهو أول خازنٍ لدار الكتب فيها ، والإمام زين الدين أبو حامد الغزالي ( ت ٥٠٥ هـ = ١١١١ م ) وموهوب بن أحمد الجَواليقي[٣] (٥٣٩هـ = ١١٤٤ م ) .

وقد كان يؤُمّ المدرسة حوالي خمسة عشر ألف طالب[٤] ، غدا بعضهم من كبار علماء الإسلام والعربية والفارسية ، منهم : شاعر الغزل سعدي الشيرازي وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى الكلبي وأبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر وكمال الدين عبد الرحمن بن الشافعي الأنباري وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد العماد الكاتب[٥] والغزّالي والأبِيوَرْدي[٦] .

---

(١) تحفة النظّار : ١٥٠

(٢) الدراسات الأدبية : ٨٧

(٣) هو صاحب كتاب « المعرّب » .

(٤) تاريخ أدبيات در إيران : ٢/٢٣٦

(٥) ومن شاء عدداً أكثر من هذه الأسماء التي ذكرناها هنا أو في قائمة المدرسين ، فليرجع إلى مقال العلاّمة الفارسي المرحوم سعيد نفيسي ( مجلة الدراسة الأدبية ) .

(٦) تاريخ أدبيات در ايران : ٢/٢٣٦

لا شكّ أنّ بناء نظام الملك للمدارس كان بدايةَ عصر جديد من الازدهار المدرسي ، كما غدت ( نظامية بغداد ) نموذجاً يُحتذى به [1] فيما بعد . وإلى جانب هذا الازدهار أوجد نظام الملك ثَغرةً في الصفّ الإسلامي بين السنّة والشيعة ، وبالتالي بين الشافعيين وغيرهم من ذوي المذاهب السنيّة الأخرى بالنظر إلى تشجيعه المذهب الشافعي في حين أن السلاجقة كانوا يشجعون المذهب الحنفي . فكان هذا التنافس من العوامل البارزة ، العاملة على إضعاف الدولة السلجوقيّة [2] .

ومن أهمّ المدارس الأخرى التي بناها نظام الملك على غرار نظامية بغداد [3] نظامية البصرة ، التي يعدّها صاحب ( تجارب السلف ) أحسن من نظامية بغداد وأكبر وأنها خُرّبت في أيام المستعصم بالله [4] . أما نظامية نيشاپور فقد كانت مدرسةً رفيعة اشتهرت بالعلاّمة ( عبد الملك الجويني ) ، ثم هناك ( نظامية إصفهان ) التي كانت تسمى ( المدرسة الصدرية ) [5] ، وغيرها من المدارس في عدد من البلاد [6] .

ويحسن أن نتوقّف فترة عند هذه المدارس التي انتشرت في زمانهم ، لنرى نوعيّة البناء وكيفيته ، إلا أنّ العلماء ، حتى الآن ، لم يستطيعوا أن يقرروا ما إذا كان هناك فنّ تركي خاص في بناء المدارس ، أو أنهم أسهموا إسهاماً فعّالاً بالفن ، عامة ، في المنطقة التي حكموها أو سيطروا عليها سياسياً أم لا .

---

(١) الموسوعة الاسلامية مادة (نظام الملك ) .

(٢) تاريخ العراق : ٢٢٦

(٣) الموسوعة الاسلامية مادة( نظام الملك ).

(٤) تجارب السلف : ٢٧١

(٥) مجلة الدراسات الأدبية : ٦٩

(٦) تاريخ أدبيات در ايران : ٣/٢٣٥

ولا يعني هذا أنه لم تنشأ في عهدهم حركة فنية بنائية، فبناء المدارس وحده حركة فنية ذات بال .

ومَن قرأ فتوحات محمود ظنّ أنه كان بعيداً عن الفنّ، والحقُّ أنه أحضر معه من البلاد المغزوّة (كما فعل مع الأدباء والعلماء) عدداً كبيراً من المعماريين والمهندسين لتحسين عاصمته وبناء المدارس فيها، مستفيداً من أحجار المعابد الهنديّة (١) الصخرية والكريمة .

أما السلاجقة فهم الذين برزوا بروزاً محسوساً في فن بناء المدارس والقصور، وخاصة بالآجر الملوّن وبزخرفات هندسية وأزهار نافرة وخطوط نسخية أو كوفية مستديرة (٢) في المحاريب والأفاريز (٣) . وقد امتازت أبنيتهم هذه بالضخامة في البناء، وبكثرة الرُّخام المستخدم في كل مجال . ولم يَتوانَوا عن الاستعانة بالمعماريين العرب أو الفرس في أبنيتهم الكبيرة هذه (٤) .

**أهم الكتب الأدبية والمجموعات الشعرية التي برزت في عصر السلاجقة :**

١ – دمية القصر وعصر أهل العصر : تأليف : الباخرزي ت ٤٦٧هـ = ١٠٧٤م

٢ – خريدة القصر وجريدة العصر : تأليف : العماد الاصفهاني ت٥٩٧هـ=١٢٠١م

٣ – يتيمة الدهر : تأليف : الثعالبي ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م

٤ – الأحكام السلطانية : تأليف : الماوردي ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م

---

(1) History of Islamic people : 170

(٢) صفحات عن ايران : ٢٧٨

(٣) فرهنگ فارسي : ٥/٧٨٣

(4) Pre - Ottoman : 50 - 51

٥ – لباب الألباب : تأليف : محمد العوفي ، ويتضمن منتخبات لشعراء الفرس ، وفيه نصوص عربية لشعراء عرب أو فرس .

٦ – تتمة اليتيمة : تأليف : الثعالبي

٧ – سر الفصاحة : تأليف : ابن سنان الخفاجي ت ٤٦٦ هـ = ١٠٧٣م

٨ – سقط الزند : تأليف : المعري ت ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧م

٩ – اللزوميات : » »

١٠ – رسالة الغفران : » »

١١ – الفصول والغايات : » »

## أهم الأدباء الذين برزوا في هذا العصر :

١ – الزوزني : وهو عالم لغوي ، اشتهر بتفسيره للمعلقات السبع ، وله معجمات بالعربية والفارسية .
ت ٤٨٦هـ = ١٠٩٣ م .

٢ – الزمخشري : صاحب الكشاف ، وجملة من المعاجم اللغوية العربية والفارسية كأساس البلاغة .
ت ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ .

٣ – السمعاني : مؤرخ لامع ، وصاحب كتاب الأنساب ، وهو معجم تراجم ، رتبه بحسب الألقاب والأنساب .
ت ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م .

٤ – الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني النيسابوري ، الأديب الضليع . وصاحب كتاب ( الأمثال )

و ( السامي في الأسامي ). ت ٥١٨هـ=١١٢٤م .

٥ – عبد القاهر الجرجاني : وهو المشهور بالنقد والبلاغة .
عرف بكتابيه : أسرار البلاغة ،ودلائل الاعجاز.
ت ٤٧١ هـ = ١٠٧٨م .

٦ – أبو زكريا التبريزي : عالم لغوي ، وتلميذ للمعري ،وهو شارح: المعلقات ، ديوان الحماسة ، ديوان أبي تمام ، سقط الزند .
ت ٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م .

٧ – ابن الشجري : كان إماماً بارعاً في النحو واللغة ومعرفة أشعار العرب ، وصاحب الحماسة .
ت ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م .

٨ – الخطيب التبريزي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت . كان من الأئمة الحفاظ والمؤرخين . له خمسة وخمسون كتاباً ، أشهرها ( تاريخ بغداد ) .
٤٢٧ هـ = ١٠٣٥ م .

٩ – الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد . اشتغل بعدة علوم . أهم مؤلفاته: الأحكام السلطانية و( أدب الدنيا والدين ).
ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨م .

١٠ – عبدالله الأنصاري : ابو اسماعيل الهروي . ينتسب إلى أصل عربي . له مؤلفات عديدة بالفارسية ، واثنان بالعربية هما : ( ذم الكلام ) و ( منازل السائرين ) .
ت ٤٨١ هـ – ١٠٨٨ م .

١١ – الجواليقي : موهوب. من علماء اللغة ،وصاحب كتاب ( المعرّب ) وهو معجم الألفاظ الأعجمية المستعملة في اللغة العربية . ت ٥٤٠ هـ – ١١٤٥ م .

وهناك آخرون جالوا في مجالات عديدة ، أهمهم :

الغزالي – الحوفي المصري – الثعلبي النيسابوري – البيروني – البيهقي – عمر الخيام – الشهرستاني – الفراء – النسفي – الطبرسي .

**أهم الشعراء الذين لمعوا في عصر السلاجقة :**

الباخرزي – الثعالبي – مِهيار – النْواساني – الشريف الرضي – المرتضى – المعري – ابراهيم بن يحيى أبو اسحاق – ابن التّعاويذي – التّهامي – الطُّغرائي – ابن كيغُلغ – عبـــد الله بن سنان الخفاجي – أبو زكريا التبريزي – الحسن الواسطي – أبو غالب القُمّي – أبو هلال العسكري – أبو الحسن البَلَنْخي – حَيْص َبَيْص َ – قابوس بن وشمگير – صَرّ دُرّ .

# الفصل الثاني

# الأغراض الشعريّة

**مقدمـــة :**

من البديهي قبـــل أن نستعرض الأغراض الشعرية التي راجت في زمان السلاجقة ، أن نمهّد لذلك تمهيداً بسيطاً إلى ماهية الشعر ، ذلك أن الشعر في هذه المرحلة غزير جداً وواسع الآفاق ، ولكنه متشابه الأفكار والأسلوب إلى حد كبير . لذا فإننا كثيراً ما نعثُر على الغث المدسوس بالجيد ، أو على الشعر الرفيع ضائعاً في النتاج السيء الضخم . ولعل مردّ ذلك راجع إلى أن هذه المرحلة من العصر العباسي تعتبر خاتمـــةً لعصر البراعة ، وفاتحة لعصر الجمود والتقليد . وليست صعوبة الدراسة في ماهية الشعر، إنما مردها إلى نزول الشعر إلى مستوى الشعب من ذوي الثقافة . ولن يكون استشهادنا للأغراض منتقى من حيث الجودة والإبداع أو التقليد والجمود ، إنما سيكون بما يناسب الموضوع الذي سنطرقه . وسنرى أن الشعراء لا يقاسون في ميزان واحد ، فهناك البارع المشهور كالمعري والتهامي والشريف الرضي ، وهناك المقلّ ، وغير المعروف ، وكل واحد منهم أدّى ما عليه نحو فنه .

ومن أهم ما اعترضنا من مشكلات ، اكتفاء أغلب مؤرخي الأدب بالمطالع الغزلية ، أو بقصائد المديح دون غير ذلك من الأغراض . إلا أننا استطعنا تذليل هذه المشكلة باستقراء المراجع ، وملاحقة القصائد وأصولها .

## الأغراض الشعرية :

لا بد لنا بعد هذا التقديم من أن نخوض الأغراض الشعرية ونتدارسها مضموناً وشكلاً . غير أن الذي لفت نظرنا ، أن الشعراء خاضوا الأغراض الشعرية العامة كلها ، وهي : الفخر ، المدح ، الحكمة ، الشكوى ، العتاب ، الموعظة ، الدين ، الهجاء ، الغزل ، مجالس الأنس ، الاخوانيات ، الوصف ، الأطلال ، الشيب ، الطيف ، المجون ، الخمرة ، الرثاء ، الألغاز . وبالطبع فإن نسبة الإقبال على هذه الأغراض متفاوتة من حيث الكثرة والقلة ، والإبداع والتجديد ، والجودة والاسفاف ، مما سنتعرض إليه لدى كل غرض .

وبالاضافة إلى هذه الأغراض المعروفة العامة ، هناك أغراض غير ذات أهمية ونادرة الاستعمال ؛ فهناك قصائد في : الأسْر ، والتهنئة ببناء منزل أو تقلّد عمل أو ختان أو شفاء من مرض ، أو موضوعات شخصية كشاعر يحبّ الوحدة ، أو يصرّح بأنه لا أهل له ، أو أنه غاضب من ابن آوى الذي سرق دجاجته . ويسأل آخر عن علف لدابّته ، أو يطلب الرحيل عن بلده لسوء الأوضاع السياسية أو المالية ، أو أنه يطلب من متنفّذٍ أن يسمّي وليده ، أو يحذّر من شخص سيء ، أو يدقّ البابَ فلا يُفتح له .. إلى غير ذلك من أمور شخصية لا يزيد ذكر الموضوع عن قصيدة أو بضع قصيدة .

### ١ – المديح :

كان المديح ، منذ أن عُرف ، أداةَ ارتزاق وحرفة تكسّب ، ازدادت وسائلها مع تقدم العصور التي تلي النابغة وزهيراً والحطيئة . وقد كانت مقاييس

المدح في عصر السلاجقة هي مقاييسها عند القدماء؛ فعدّةُ المادح وصف الممدوح بصفات المثل الأعلى للرجل الكامل .. بل أكثر من الكامل ، أكانت موجودة فيه هذه الصفات أو غير موجودة . وقد ظلت هذه المعايير متداولة في العصر العباسي المتأخر بعد أن َفدحَ أمرُ المبالغة ، وفُضح حالُ الشعراء .

ويعد المديح أغزر الموضوعات الشعرية كمية وأضعفها عاطفة، وأكثرها عناية أسلوبية ، وأقلّها صدقاً . بل إنها لا تمس شغاف القلب ولا حتى غشاءَه . قد يكون سبب ذلك هو تلك الهوة السحيقة بين المادح والممدوح ؛ فالممدوح غير عربي . وقد يكون عربياً ولكنه مشغول عن الشعراء بضعفه ، أو بضيق ذات يده ، أو بحربه المغيرين أو الطامعين . ولأن المادحَ لا يهمّه إلا كسب المال ليغطي حاجته ، فلا صلةَ بينهما ولا مودّة .

وقد كنا نتصور أن تكون شخصية السلاطين هي الطاغية على شعر المدح بعد أن خمدت شخصية الخليفة . وهـا هو « طغرلبك » يدك القلاع ، ويزحف بجموعه ، ويلمع نجمه ، ولا نجد له شاعراً خصّه بشعره ، كما فعل أبو تمام مع المعتصم ، أو البحتري مع المتوكل . وإذا عثرنا على شيء ، فعلى أبياتِ قصار لا تغني من جوع . ولعل أفضل من مدحه من الشعراء هو الباخرزي بقوله :

سِرنا ومرآةُ الزمان بحالها ... فالآنَ قد مُحقت وصارت منحلا
تخِذُ الركاب فلا تعوج بنا على ... طللِ الحبيب ،ولا تُحيِّي المنزلا
وتحرك الأعطاف تشميراً بنا ... وتيمّمُ الملك المظفر طغرُلا (١)

وربما أغفل ذكرُه لجهله باللغة العربية ، وقلّة اهتمامه بالأدب والأدباء ،

---

(١) ديوان الباخرزي : ١٧٥ لباب الألباب : ٦٨ .

وانشغاله بالفتوح . ولعل هذا ما يعلّل كثرة الشعر في السلطان محمود الذي كان يعرف العربية ، ويعطف على الأدباء .

ولما لم يعدِ الممدوح تلك الشخصية البارزة المتكئة على أريكة الخلافة ، أو المتصدّرة دست السلطنة ، فقد تدنّت مرتبتُه إلى الوزير ، بل إنه غدا الرمزَ الأعلى في المدح ، لمعرفته اللغة ، وتقديره الأدب ، ولأنه هو الحاكم القريب من الشعب . ولهذا برز اسم الكُنْدري ونظام الملك والصاحب اسماعيل بن عباد وغيرهم دون سادتهم من خلفاء هذه المرحلة وسلاطينها .

ذكرنا في الأوضاع السابقة أن نظام الملك هو الشخصية الطاغيـة على كل مناحي الحياة في العصر السلجوقي ، ولهذا فإن الشعراء سكبوا المثل العليا كلها فيه ، وذلك من النواحي الدينيـة والشخصية والإدارية ؛ فهو مصلح الفاسد ، ومذلّل الصعاب ، ثم هو وزير المشرق ، ومدبّر الأمور بحنكته السياسية ، والملك الواهب الكريم ، الكريم جداً !! :

إذا زاره العافي تهلل وجهه ... وبشّره منه التبسّمُ والبشرُ[(١)]

ولم يخلق الله مثله أبداً ؛ ففي الحكم هـاد ، وفي الحرب مرعب . وهو كالسيف بل أمضى ، وبهذا وصفه الشاعر هذّاب عندما وصل حلب ظافراً :

ما خلقَ اللهُ تعالى وجلّ ... مثلَ وزير الوزراء الأجلّ
أروعُ كالنَّصلِ ولكنَّه ... أمضى من النصل إذا ما بسَلْ[(٢)]

ثم هو بطل مقدام ، يخوض المعارك ، وينتصر على الأعداء ، كقول أبي طاهر الأصفهاني :

---

(١) الشاعر محمد الخيري ، دمية القصر : ١/٤٩٤ .
(٢) دمية القصر : ١/٧٨ .

تعوَّدَ ردَّ الطعنِ حتى كأنَّه يُديرُ على قــدر الأسنَّة مفصِلا
هزبرٌ اذا ما الروعُ أجَّج نارَهُ يخوضُ من الرمح الردينيِّ مَعقلا[1]

وقد قرأنا مثل هذه الأوصاف كثيراً عند من سبق هذا العصرَ من الشعراء. إلا أن الممدوح لم يعد عربياً كالمعتصم وسيف الدولة، بــل هو فارسي يعتز بقوميته. ولهذا نراهُ – كما يفعل غيره من الوزراء الفرس – يرحِّب بأن يوصف بكونه كالوزراء الفرس القدماء، وخاصة إذا كان المادحُ أبا بكر الفيروز آبادي ( غير صاحب القاموس )، وهو أيضاً من بني جلدته :

ليت البرامكــةَ الأُلى كانوا الجحاجحَ والخُضارمْ
حتى يروا مثلَ جــعـفرهم ويحيى ألفَ خادم[2]

وإذا جمعنا الأوصاف التي سكبها الشعراء في شخص نظام الملك خاصــة، رأينا أنهم لم يتركوا معنى قاله القدماء إلا لاكوهُ وأعادوه وحطّوا من قدره. وإذا جدَّدوا فبالمبالغة والتلاعب بالألفاظ.

ولم يكن هذا الوزير وحدَه صاحب المدح، فهناك آخرون أصابتهم غيوم الإثارة ومُدحوا، علّهم يقدمون لمادحيهم أكسير الحياة !!.. فقد مدح تميم ابن المعز خليفةَ مصر، وسبغ عليه شمائل أقرب ما تكون إلى الصفات العربية الصافية ( وكلاهما عربي ) ؛ فهو عفيف كريم، ومحارب قوي، وذو هيبة ووقار:

منعتَ الخلافةَ منع الأسودِ إذا مــا غضبْنَ لأشبالهنَّهْ

(١) دمية القصر : ١/٤٥٨ .
(٢) دمية القصر : ١/٤٩٥ .

وأمضيتَ عزمك حتى أخفتَ ... به في بطون النساء الأجِنَّه
كلا راحتيك ندًى أو ردًى ... كأنَّك للناس نار وجَنَّه[1]

كما كثرت العناية بالأوصاف الدينية ، فالشاعر وجده سلاحاً ذا حدين ؛ الأول أن الممدوح قد لا يكون عربياً ، والثاني أن الممدوح يتقبله على أية حال ( ولو لم يكن متمسكاً بدينه ) ليُظهر للناس أنه غيور على مصالحهم ، متمثل بشعائرهم ، قال ابن الخياط في وجيه الدولة أبي الذوّاد المفرج :

أنتَ للمسلمينَ حصنٌ وحِرزٌ ... ولراجي نداكَ ذُخرٌ وكنزُ
أبداً ما تزالُ عطفاً عليهم ... ودِفاعاً عنهمْ تحجُّ وتغزو[2]

وقد لا يكون الشاعر عربياً ، ولكنه يعتني بالمديح ، فيسبغ على ممدوحه ألواناً من الأوصاف الجليلة ، كقول الطغرائي :

لجلال قدرك تخضع الأقدارُ ... وبيمن جدك يحكم المقدارُ
والدهر كيف أمرتَه لك طائع ... والله حيث حللتَه لك جار
ولك البسيطةُ حيث مدَّ غطاءَه ... ليلٌ وما كشف الغطاء نهارُ
عمّ البريَّةَ والبسيطةَ عدلُه ... فالخلق شخص والبسيطةُ دارُ[3]

---

(١) ديوان تميم : ٤٤٢ .
(٢) ديوان ابن الخياط : ٢٦٨ .
(٣) ديوان الطغرائي : ٣ .

كان المثلُ الأعلى للمدوح هو البطل الهمام الذي يتقلد السيف ، وفي هذا العصر غدا المثل الأعلى هو البراعة في مسك القلم والسيف معاً ، لأن الوزير يجب أن يحمل السيف بيد والقلم بيد أخرى، ولهذا سمي الواحد منهم بذي الوزارتين. لذا نراهم يُجرون المقارناتِ الشعريةَ والنثرية بين السيف والقلم .

وبعد أن استقرّ الأمرُ تحوّل المدحُ إلى البراعة في مسك القلم ، لأن السيف لم يعد ذا أهمية كبيرة أمام السلاح الجديد ، أو لأن صاحب السيف صار شخصاً آخر . فها هو علي بن محمد الكاتب يمدح أميراً ، فيقول له :

إن هزّ أقلامَه يوماً ليعملها ... أنساك كلّ كميٍّ هزّ عامله

وإنْ أمرَّ على رقٍّ أناملَهُ ... أقرَّ بالرقِّ كتابُ الأنامِ لهُ[1]

وكثيراً ما نلقى الشاعر يصف ممدوحه ، ثم يختم قصيدَه بوصفٍ للقلم على أنه جزءٌ لصيق به ، كقول محمد الخميس يصف كاتباً :

يا كاتباً قد عُدَّ واحدَ عصرِهِ ... ببيانِهِ وبنظمِهِ وبنثرِهِ

فاقَ الأنامَ فصاحةً وحصافةً ... وعلا النجومَ بجاهه وبقدره

فجميلُ نقش الصين أقبحُ خطِّهِ ... وثمينُ درِّ السمط أحقرُ درِّهِ[2]

ومال الشعراء إلى هذا الاتجاه ، وأوغلوا في قضية القلم ، حتى صار مديحُ

---

(١) البداية والنهاية : ١١/٣٤٥ .

(٢) دمية القصر : ٢/١٢٩٠ .

الكتاب وذوي الخط الحسن غرضاً قائماً بذاته يتسابق إليه الشعراء . ويجعلون قصبة الكتابة هي قصب السبق في البراعة والإجادة. ولم يكتف الشعراء بذلك بل عكفوا على الأوصاف الكتابية يستغلونها في مدحهم الحربي . فلم يعد البطلُ يرمي أعداءَه بالحراب والجيوش بل يرسل عليهم كتبه ، فإذا هي كتائب. وقد أجاد التهامي في تلك الصورة الكتابية الحربية :

يرمي الكتيبةَ بالكتاب إليهمُ ... فيرَون أحرفَه الخميسَ كفاحا
من نقشه دُهماً ومن ميماتِهِ ... زرَداً .. ومن ألفاتِـه أرماحا
ساست أقاليمَ الورى أقلامُه ... فأجمَّ أطرافَ القنا وأراحا [1]

ولكن مكانة الممدوح تدنـت أكثر !! ، وما كل شاعر يبلـغ الوزراء ، فتحولت إلى وصف الأمير وكاتب الديوان والقاضي والفقيه . كقول الوائليّ يمدح فقيهاً :

كم قطعتُ البلادَ شرقاً وغرباً ... وسلكتُ الخطوبَ حَزناً وسهلا
قاصداً مُحييَ السحابِ أبا يحـ ... ـيىٰ الفقيهَ الحبرَ الامام الأجلاّ [2]

حتى العلماء وهم ، على ما نعلم ، أقلُّ الطبقة المثقفة مالاً ، مُدحـوا أكثر ، وهي ظاهرة تجلت في هذا العصر بشكل فاضح .

---

(١) ديوان التهامي : ١٢ .

(٢) دمية القصر : ١/٨٩ .

والشاعرُ ، بعد ، لبقٌ مع سائر الممدوحين ؛ فنراه يمدح الواحد منهم بما يناسب وضعه ومهنته وشهرته ورغبته . فيطلقون على الأمير القوة . وعلى الوزير الحنكة . والفقيه الفقه ، والعالم الرأي والتدبير. وقد يكون الممدوحُ أحد الشعراء ، عجباً ! أيمدح شاعرٌ شاعراً ؟ ويسترفدُه ؟ إنه كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولكننا قلنا في مطلع دراستنا إن هذا العصر عجيب ، فلا غرابةَ إذاً أن نجد مثل هذا يجري . فعطاء الغزنوي يثني على شعر أبي سهل الجنيدي ( وكلاهما غير معروف ) بشعرٍ من عنده ، فيقول :

نظامُك المعجزُ المباركُ فالا  قد سقانا من عينِه سلسالا

فروينا وما رَوِينا ولكنْ  قد سَقينا بها القلوب النِّهالا

واجتنَينا لآلىء العقدِ منه  واجتلَينا السعودَ والاقبالا (1)

وماعونُ الحضارة العباسية وسيع ، غرف الشاعر منه ما غرف . راغباً في تجديد الصورة ، أو على الأقل في تغيير معالمها أو تحسينها . فالشطرنج مثلاً من وسائل التسلية والمتعة ، وأحجاره في الوقت نفسه أداة طيعة للمدح . قال أبو علي العثماني يمدح أحد العلماء :

شاهَتْ وجوهُ الطالبينَ لشأوِهِ  فهمُ البياذقُ ، وهو مثْلُ الشاهِ (2)

وقول ابن بديع الأصفهاني :

لقيتُ لهذا الشاهِ فرزانَ دولةً  تخرّ لديهِ ساجدينَ رُخاخُه (3)

(1) دمية القصر : ٢/ ٩٤٠.

(2) البياذق: فارسية معربة أصلها: پياده أي المشاة من الجيش. شاه: ملك. دمية القصر: ٢/١٠١١

(3) دمية القصر : ١/٤٢٨ . فرزان : فارسية غير معربة قبل هذا النص . ومعناها العاقل والحكيم . الرخاخ : مفردها الرخ وهو البرج في الشطرنج .

ولكنّ الصفات المُسبغة على الممدوح ليست كلها مما تبلغ مرتبة المثل الأعلى، فقد لا يجد الشاعر شيئاً في ممدوحه . وبما أنه مضطر لجني قوتِهِ فسيمدحُه بأي شيء ، فإذا كان سميناً مدحه لأنه سمين، وإذا كان نحيلاً أبدى اعجابه لنحوله، كقول أبي بكر القُهستاني في ممدوح :

فإلا تلقَهُ جسماً قوياً فقد تلقى به الروحَ الأمينا
براهُ هوى العُلا حتى تراهُ كنصلِ حُسامِه حَدّاً ولينا
وليس الطبلُ في الهيجاء يُغني غناءَ السيف فاعلمه يَقينا[1]

ويتبع هذا بالطبع مغالاة في المدح ، فلم يعد يكفيهم أن يوصَفوا بأنهم مثل حاتم أو كعب أو سحبان أو أسد . كما أنّ ضرع الممدوح لم يعد يدرّ الدنانير ! إذا قال له : أنت سحاب أو أنت بحر . مما اضطر الشعراء إلى تخطّي هـــذه الأوصاف واستهجانها . قال الفيروز آبادي محاولاً أن ينال من ممدوحه جداه :

مَن حاتمٌ قل لي؟ ومَن كعبٌ ؟ومن قيس بن عاصمْ؟[2]
فيها تفرّقه يميـ نُك كلّ يومٍ ألف حاتم
كم خالعٍ غادرتَه جزرَ الخوامع والقشاعم[3]
ومؤمّلٍ أعطيتَهُ ما لا يمرُّ بعين حالمْ[4]

(١) دمية القصر : ٧٨١/٢

(٢) قيس بن عاصم : أحد أمراء العرب والموصوفين بالحلم والشجاعة . وفد مع بني تميم على الرسول سنة ٩ هـ وأسلم .

(٣) الخوامع : الذئاب . القشاعم : النسور

(٤) دمية القصر : ٤٩٦/١

واشتدت المغالاة لضَنانة الممدوح ، واستكانت نفس الشاعر طمعاً بالمال . فراح يرمي ممدوحه بكل ما حوى شعر المدح من أوصاف . فانظر إلى قصيدة العماد الاصفهاني يمدح عمادُ الدين أبا نصر علي بن الوزير عضد الدين ليتوضح لك الاغراق في المدح :

واحد العصر، ثالث الشمس والبد ... رِ وثاني الحيا بغير مزاحم
ان يكن مانحَ المراحم بالجـو ... دِ فبالبأس مانعٌ للمحارم[1]

وتذلُ نفسُ المادح أكثر ، ويأخذ الجشع بمجامع قلبه ، ويُقبل على يدي الممدوح ليقبلها عله يعطيه شيئاً يلهي به اللهى كقول أبي سعيد الطبسي :

يُعطى اللُّهى وتفدى ... يمينه وتُباسُ
ما دامَ للطيرِ جَوٌّ ... وللظباءِ كِناس[2]

وما هذه القُبلة المرمية على يدي الممدوح إلا واحدة منمئات القبل المنثورة في قصائد شعراء العصر السلجوقي. وهذا ما جعل بعضهم يستنكر المدح ويهجره لأنه لم يجد من يستحق أن يُمدح به لأنهم وجدوا الأمراء السلجوقيين يضنون بالمال على الشعر ، وعندهم منه أطنان وأكداس . فمن الطبيعي أن يعزف بعضهم عن قول الشعر وإن كان مُقلاً وغير معروف كالشاعر أبي اسحاق إبراهيم بن يحيى البغدادي الغزي :

قالوا: هجرتَ الشعرَ؟ قلت: ضرورةٌ ... باب الدواعي والبواعث مغلق

---

(١) خريدة العراق : ١/١٧٠

(٢) دمية القصر: رقم ١٥ من الجزء الثالث

خلت الديار فلا كريمٌ يرتجى منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشق
ومن العجائب أنه لا يُشترى ، ويُخان فيه مع الكسادِ ويسرق[1]

إلا أننا نعثر بين ثنايا الدواوين، وفي القسم الغربي من الامبراطورية الاسلامية على بعض القصائد المدحية ، يبرز فيها جود الرجل الكريم الذي يهزه الكرم ، وتنعشه السماحة ، تماماً كأجداده الأوائل . ولا عجب في ذلك فالكريم المعني هو علي بن موسى الموسوي ، عربي من آل البيت . قد أيقظته النخوة العربية ، ورفدته شمائلها ؛ فراح يعبر عن رغبته بالجود بقوله :

إذا أنا لم أهتزَّ للجود والندى فمن ذا الذي يهتز يا أم مالكِ ؟
ذريني وِانفاقي لمالي على العلا ورأيكِ فيما اختَرتِ في حفظ مالك
فجودُ يميني عادة عرفتُ بها وكلُّ يمينٍ لم تَجُد كشمالكِ
وما أنا ممن ينتهي عن سماحةٍ بنهيكِ ، إذ نبهتِني بجمالكِ[2]

وقد وردت إلينا قصائد المديح منفردةً أحياناً ، وبمطالع تقليدية أحيانـــاً أخرى . غير أن القسم الأعظم من قصائد المديح مسبوق بالمطلع التقليـــدي ، خاصة إذا كان الممدوح شخصية علية كوزير أو أمير ، استعلاءً لمقامه وتقليداً لعظام الشعراء . وقد كان الشاعر منهم يسعى إلى خلق المطالع خلقاً . فنرى أحدهم يختلق قصة وقوف غراب البين على أماكن المحبوبة ، وآخر يتذكر لحظة

---

(١) وفيات الأعيان : ٨/رقم ١٧
(٢) دمية القصر : ٢/٧٣٦ .

الوداع ، والرياح الهائجة التي سفت الرمال والآل والبرد. ونراهم كذلك يرسلون الحكم كما كان يفعل الشعراء الأوائل . وكان الغزل هو اللون الطاغي على المقدمات الشعرية ، غير أننا كنا نرى الهجاء والطيف والخمرة والساقي والجواد والشاكي ، ووصف الربيع ، ووصف القلم مدرجاً مع الغزل أو عوضاً عنه .

نحن نعلم أن المطالع الغزلية عادة تقليدية جرّت الشعراء إلى قول الغزل ، لذا فإنّ عاطفة أصحاب هذه المطامع غالباً ما تكون معدومة. وهم إنما يقلدون من سبقهم ، ومثلُهم كمثل زهير بن أبي سلمى شيخِ المدح في العصر الجاهلي، الذي تذكرَ ديار محبوبته بعد مضي عشرين عاماً فقال :

وقفتُ بها من بعدِ عشرين حجةً　　　فلأْياً عرفتُ الدارَ بعد توهُّمِ[1]

بل إن أحدَهم ، وهو اسماعيل الشاشي ، بعد أن أورد ستة أبيات غزلية مطلعاً لمدح فخر الدولة قال :

وما بي حبُّ غانيــةٍ ولكنْ　　　طرازُ الشعرِ شوقٌ وادّكارُ
وهل من هِمَّتي فضلٌ لقلبي　　　فتسكنَهُ سعادُ أو نوارُ؟[2]

ومقام الممدوح الرفيع ، يضطر الشاعرَ ، بعد المطلع ، إلى أن يبحث في ذاكرته عن أصعب الألفاظ وأقربها إلى البادية العربية ؛ منبعِ الشعر ، تقديراً للموقف الجليل الذي يقفه ! . وهو بذلك يقلد سابقيه من شعراء المدح كبشار وأبي تمام والبحتري . ولهذا فإننا نجد أسلوب القصيدة المدحية يتخذ شكلاً جدياً أمام الشخصية العظيمة . ويكفي أن نطلع على بيتين من قصيدة قالها

---

(١) شرح المعلقات السبع : ٨٦ .
(٢) دمية القصر : ١/٦٧٥ .

حمد الهمذاني في أبي سهل الموفقي ، لنقدر ما كان يعانيه بعض الشعراء في نظم القصائد المدحية :

مجدٌ على مفرقِ العيّوقِ كالتاجِ    ومنصبٌ كالثريّا جِدُّ وهّاجِ
وطودُ عزٍّ تطول النجمَ قِمّتُهُ    ويزحمُ الفلَكَ الأعلى بأثباجِ (١)

## ٢ - الهجـــاء :

الهجاء تبعُ المدحِ وتوأمه ، والشاعر يمدحُ فإن لم يعطَ هجا . وما الحطيئة بغريب عن ذي بال . ولكن هذا الأمر فشا في هذا العصر بشكل واسع جداً . وعاطفة الشاعر هاجياً أصدق بكثير من عاطفته مادحاً . ومع ذلك فإن هذا الفن قليل في هذا العصر ، ولعله الخنوع الذي مُني به أكثر الناس في زمانهم .

ولعل **الهجاء الساخر** الذي يبعث على الضحك أكثر هذه الألوان إلهابـاً وشهرة ورواجاً ، وأقلته انفعالاً في هذا العصر . فقد هجا عبد القاهر الجرجاني صديقاً له اسمه « خليل » وصوّره صورة مضحكة فقال :

لم ترَ خلقاً رأى الخليلَ فلم    يعتبْ عليه لقُبـحِ منظرهِ
كأنَّهُ رامَ من سفاهتـهِ    عضَّ شبا أذْنه بمشْفرهِ (٢)

ويقول له كذلك مدّعياً نعمه :

كبِّرْ على العقل يا خليلي    وملْ إلى الجهلِ ميلَ هائمْ

(١) الأثباج : مفردها الثبج وهو وسط كل شيء . دمية القصر : ١/٥٣٢ .
(٢) دمية القصر : ١/٥٨٦ .

وكن حماراً تعش بخيرٍ فالسعد في طالعِ البهائم[1]

ويهجون أشخاصاً بمهنهم ، ولا يتورعون عن النيل منه من وراء المهنة التي اتخذها ، كقول ابن التعاويذي يهجو حمامياً ، وقد جاءت صوره ساخرة :

قد دخلْنا حمّامكم فرأينا عجباً من تجمُّــع الضدّينِ
باردُ الماء والوقودِ جميعاً فهْوَ للمُستحمِّ سُخنةُ عينِ
وبه قيّمٌ بغيضٌ غليظٌ عابسُ الوجه قالصُ المنخرينِ
قيِّمٌ غيرُ قيِّمٍ خشُنت مُدْ يتُه ، وهْوَ ناعمُ الكفين[2]

وكأن حاجتهم ( أو جشعهم ) إلى المال ساقتهم إلى **تصوير البخل** ، فكان أن رسم أبو علي الخواري ، في هجاء البرگزدري ، حال الشعراء الذين كانوا يحملون قصيدة مدح بيد وقصيدة هجاء بيد أخرى . فنراهُ يقدم الأولى ، فإذا نال ما تمنى أخفى الثانية لمناسبة أخرى . وإذا صُدَّ دونه العطاء قدم الثانية دونما وجل . وها هو ابنُ عيسى الذي ضن بمالِه ، قَلّ به هذا الهجاء :

يلوم الناس بالبخل ابنَ عيسى وفيهِ لهمْ ، لوِ اعتبروا ، صفاتُ
أناملُه بخيط البخلِ شُدّت وكيفَ تجودُ وهْيَ معقّداتُ؟[3]

والبخيل تكشفه اللقمة ، **والهجاء الكاريكاتوري** يفضحها. وهذه « اللقمة »

---

(١) فوات الوفيات : ٦١٢/١ .
(٢) ديوان ابن التعاويذي : ٤٥٠ .
(٣) البيتان لأبي علي الخواري ، انظر دمية القصر : ١١٢٣/٢ .

كثيرة الورود في شعر الهجاء عندهم ، كقول أبي الحسن البلخي :

وطوَّل الشاربَ كي لا تُرى ، إذا تغدّى ، حركاتُ الشفَهْ [1]

وعدمُ العطاء هو الذي جرهم إلى الاستخفاف بالشخصيات ، حتى انهم تجرأوا على الوزراء ، وتطاولوا عليهم بهجوهم ، ونسبوا إليهم أشنع الصفات كقول أبي نصر المهلبي في وزير :

إنّ المقابحَ والفضائح كلَّها ... مُستجمعاتٌ في ابنِ عبد اللهِ
كلبٌ تصدَّر الوزارةَ وهْوَ عن ... أمٌّ العزيزِ وخالتيهِ ساهِ
أضحت أمورُ الملك واهيةً به ... وكذاك إن بقيت كما هِي [2]

بل إنهم هجوا العلماء ، وحطوا من شأنهم ، واستهجنوا اتجاهَ بعض العلماء وجهة دينية ، وسخروا من شهر رمضان بعد أن صاموهُ ، كقول أبي العباس الخوزاني :

أقول لشهرِ الصومِ لما قضيتُهُ : عليك سلامُ الله بوركتَ راحِلا
وقد كنتُ من سَحبان أفصحَ لهجةً فغيّر طبعي باقلاؤك باقلا [3]

وقد نرى الهجاء ينصب على الحُجاب الذين يمنعون الشعراء الطارقين الأبواب ، الطارئين من كل فج . ولهذا فإننا نرى الشاعر يهجو الوزير حيناً ،

---

(١) دمية القصر : ٢/١٠٥٣ .
(٢) » » : ٢/١١٤٩ .
(٣) » » : ١/٢١٩ .

ويهجو البواب دائماً ، كقول أبي طاهر الشيرازي :

صار ذا البوابُ مِحْنَهْ　　مانِعي من غيرِ اِحْنَهْ
كلّما جئتُ كأنّي　　عندَه صاحبُ ظِنَّهْ (١)

وإذا كان الهجاء في بعض الأحيان يُعنى بصفات ليست في المهجوّ ، فإنه غالباً ما يهجوه بما فيه ، تماماً كحديثنا عن المدح ؛ فإذا كان أصلخَ هجاهُ به . وإذا كان اسمُه مما يمكن أن يكون عــدةً للشاعر وسلاحاً فلا يقصر . وما أسهلَ أن يُستغل اسم الشاعر « صَربعر » في الهجاء ! :

لئن نبذ الناس قِدماً أباك　　وسمَّوه من شحِّه « صَرَّبعرا »
فإنَّك تنثرُ مــا صرَّهُ　　عقوقاً (٢) له ، وتسمِّيهِ شعرا

وإذا مدح الشعراءُ شعر غيرهم ، فإنه من البديهي أن يُهجى هذا الشعر . وهجاءُ الشعر أغلبُ عاطفةً من مدحه . أما أهم الأوصاف التي يوصَمُ بها الشعر فهي الضعف وقلة الشهرة والصنعة ، وبالبرودة الشبيهة ببرودة الشتاءِ ، وبهذا هجا أبو الفتح الهروي الشاعرَ عبدَ الكريم :

شعرُ عبد الكريم قد يترك الصيفَ ،
إذا أنشدوهُ ، مثــلَ الشتاءِ

(١) دمية القصر : ٤٩١/١ .

(٢) الشعر لأبي جعفر البياضي ، وفيات الأعيان : ٣٨٦/٣ . ورواية أخرى هي : خلافاً .

ما رووهُ في مجلسٍ قطُّ إلا
أخِذَ الناسُ فيهِ بالعُرواءِ[1]

ولعل بعضهم تشرب دمُه بالهجاء ، ولا يرى أحـــداً فيعمد إلى أقرب أقربائه – كما فعل الحطيئة – أو إلى نفسه ، وقد يسخر من شاعريته ، وهـذا لعَمري أسوأ أنواع الهجاء . ومَن من الشعراء يقدر على ذلـك غير ابن الحجاج السليط اللسان ! ، قال يصف شعره :

باللهِ يا أحمــدُ بنُ عمرٍو تعرِف للناسِ مثلَ شعري
شِعرٌ يفيضُ الكنيفُ منه من جانبيْ خاطِري وفكري
فلفظُه مُنتِنُ المعــاني كأنَّه فلتةٌ بجُحرِ[2]

وقد تكون وسيلة الهجاء الكلام البذيء ، والفاحش من القول ، والطعن في العرض ، مما لا يصدر عن سوقيٍّ أحمق . ونعجب أشد العجب عندمـــا نرى عبد القاهر الجرجاني ( إمامَ البلاغـة ) يتفنن في ذكر ألوان من الهجاء ، وينبو بألفاظه إلى حدٍ يجعله يستطرد في ذكر سوءات الذكور والإناث صراحةً . وقد ساعد على هذه الصراحة ضياع القيم أو قلة الاهتمام بها على الأقل . وبما أن النساء شرف المرء العربي وعرضه ، فإن الشاعر يستخدمهن سلاحاً محطماً ، **فيقذف المحصنات** وقصده من ذلك إغاظة مهجوِّه . كقول ابن الدُّوَيدة المعري في بني المهذب :

---

(١) دمية القصر : ٢/٨٥٤ .

(٢) معجم الأدباء : ٩/٢٠٩ .

لبني المهذّب من فروج نسائهم نسب يقودُهم إلى الفحشاء

تحت الحضيض جباهم، وقرونُهم مقرونةٌ بكواكب الجوزاء[1]

وإذا لم يجد الشاعر في الهجو ما يطعن به ، رمى عرضه ، وحاول فضحه بأنبى الألفاظ ، كقول ابن الخياط في هجاء مستوفي الري واسمه « َفخراور » :

قولا لفخراور قولَ امرىء في عِرضهِ عاثَ وفي الريش راثْ

يا جبلَ اللؤم الثقيـــلِ الذي ليس لهُ في الصالحات انبعاث[2]

على أن الديار لم تنجُ من هجاء الشعراء . فإذا مـــا نزل الشاعر ببلدةٍ لم يحببها ، أو لم يرحّب به أهلها كما كان ينتظر ، أو أن فيها شخصاً مستكرهاً ولا يحبه الشاعر ولا يميل إليه ، هجاها وأوسع في شتمها . فقد هجا الباخرزي بلدة « مالين » من أجل « حداد » لعين فيها ، وهجاهُ معها ، فقال :

وما لي إلى « مالينَ » شوقٌ فإنها
منغّصةٌ من جورِ « حدّادها » الكلبِ

هو القينُ ما ينفكّ في الكير نافخاً
مُمالاً بلفظ العجم لا لغةِ العُربِ[3]

---

(١) دمية القصر : ١/١٨٠ ، وانظر أخباره في خريدة الشام : ٢/٥٢ .

(٢) ديوان ابن الخياط : ١٥٣ .

(٣) انظر الديوان ص : ٧١ . يعني بذلك سودته بالغة الفُرس .

وكم هجا الشعراء بلدة « بخارا » لحمأتها القذرة ، فنعتوها بأردأ النعوت ، وكتابا معجم البلدان وتقويم البلدان ممتلئان بأمثال هذه الأوصاف .

رأينا ، مما سبق ، أن الهجاء كثير الرواج ، نافق السوق في هذا العصر ، إلا أنه قليـــل من حيث الكمية بالنسبة إلى غيره من الأغراض . وإذا وجدنا بعض الصفات مكررة كالوصف الكاريكاتوري الذي نلمسه في هجاء ابن الرومي ، والهجاء الفاحش الذي يمرّ في شعر ابن الحجّاج (وهو مذكور في معجم الأدباء)، نرى العصر يستخدم ما مرّ ، ويبتكر فيه ، بحيث يزيـــد الوصفَ إضحاكاً والمعنى ابتذالاً، ولكن ابتكاره هذا يجيء خاصة في قذف المحصنات والحرائر ، أو في كلام السوقة ، أو في هجاء المدن .

## ٣ - الفخر :

الفخر تعبير عن تنازع الوجود وتحقيق الذات ، وهو تعبير أيضاً عن واقع الإنسان منتصراً أو معتزاً أو متّصفاً بأشياء تندُر عند غيره. وقد كانت طبيعة الفخر مناسبة للعصر الجاهلي بما فيه من حب للمجد والفروسية، ومن سعيٍ لبلوغ أرفع المراتب في الكرم والنجدة والغوث بين بني جلدته . ولم يتوقف الفخر في عصر الراشدين ، بل غدا التحلّـي بالدين والسبْق إلى نصرته من أهم دعائمه.

ويزداد الفخر التهاباً في العصر الأموي ، ويتمثّل في شعر العصبيات(الممتدة جذوره من الجاهلية ) والنقائض وأشعار الأحزاب . ويبلـغ الفخرُ أوجـه في شخص أبي تمام والمتنبي وأبي فراس في العصر العباسي ( وكلهم عرب ) . ويقلّ الفخر بعدئذ ، كلما سرنا قُدُماً في تطور العرب الحضاري لبُعدهم عن الأرض العربية ، ولانعدام الشخصية العربية ( في الشرق خاصة ) ، وضياع الشمائـل التي يتحلى بها الفردُ منهم ، ولوجود عنصر غير عربي يسابق الآخرين بافتخاره، ويتّصف بأوصاف خاصة قد تكون عربية ، وقد تكون معاكسة لها . ولقد

تحنّط الفخر ، وتجمّدت معانيه في المراحل المتأخرة من العصر العباسي. ونادراً ما نلحظ بصيصاً من التجديد في الفخر ، وعنفواناً في الشخصية المفتخرة ، مما سنراه في الأمثال القادمة .

وعلى هذا ، فمادّة الفخر انشطرت ، وراح كل طرفٍ يعتز بما لديه . ولمّا توزّعت القوى وهَنَت . وقد يجيء الفخرُ مدسوساً ضمن قصيدة مدح أو شكوى أو هجاء ، أو يكون غرضاً من أغراض القصيدة ذات المطلع التقليدي كما يجيء في قصيدة على حدة ، أو بأبياتٍ متناثرة ، دفع وضعٌ ماليّ إلى التعبير بها .وأبيات الفخر في هذا العصر على أية حال قليلة ، أو ما وصل إلينا قليل .

ومن أهم ما يعتز به العربي سيرورته على ما بنى أجداده من تحلٍّ **بالخصال الكريمة** ، وإغاثةٍ لملهوفٍ مستجير . قال الوزير محمد بن جرّاح البكري مفتخراً :

إنا لنبني على ما شيدتْهُ لنا ... آباؤنا الغرُّ من مجدٍ ومن كرمِ

لا يرفعُ الضيفُ عنا في منازلنا ... إلا إلى ضاحكٍ منّا ومبتسمِ(١)

وقد يتّضح تعبير الشاعر في فخره ، إذ نراه يعتدّ بنسبه ، ويهتز لجوده ، ويعتز بفصاحته وبيانه وانتصاره . كقول الشاعر « الحيص بيص » :

نحن قوم من بني تميم بن مُرٍّ ... نُمطر العافينَ والعامُ مَحْلُ

نُفصح الُخطبةَ والقومُ لُكْنٌ ... ونردّ الجيش والخيلُ قُبلُ(٢)

---

(١) دمية القصر : ١/٥٧ .

(٢) خريدة العراق : ١/٣٠٦ .

والاعتزاز بالفروسية والحرب ، وما إليهما ، كركوب الخيل والإقدام على العدو بجراءَة ، والإجادة بالضرب بالسيف والرمح ، كقول التهامي :

وُيسعدني سيفي على كل ُبغيةٍ إذا لم أَجِدْ في العالمينَ ُمساعدا
وكنتُ إذا مارمتُ رعيَ قرارةٍ من المجدِ أرسلتُ الردينيَّ رائدا(١)

ومثل هذا الاعتزاز بحمل السيف يشبه اعتزاز الشعراء الفرسان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، مع التحفظ في مستوى الأسلوب طبعاً . ولا نستطيع أن نقول هنا إنهم يقلدون ( على الرغم من ذلك ) ، لأن الفارس فارس في كل آن ، والمقدام مقدام في كل صولة . وإذا افتخر أحدهم بما فعله في ساحة الوغى ، فإنه لا يفكّر آنئذ بالتقليد أو التجديد ، لأنه يصف الواقع ويصوّر المشهد الذي غمر عينيه ، إلا إذا كان فخره كاذباً ، أو جاء نظمه مصطنعاً .

ولعل الأمير الصُّليحي العربي ، من أفضل مَن جسّد شخصية الفارس العربي المقدام الذي يعتبر الصّول والجَول يسريان في عروقه الثائرة :

أقولُ ، إذا باهوا بجرٍّ الذلاذلِ : لباسيَ درعي لا لباسُ الغلائلِ
وسرجي فراشي، والحسامُ ُمضاجعي وُعدَّةُ حربي، لا ذواتُ الخَلاخلِ
ورُمحي يعاطيني البعيدَ لأنني تناولتُ ما أَعيا على المتناوَلِ(٢)

والـ « أنا » سلاح المفتخر الأول لدى كل أمة . ولا يبوح به إلا المعتدّ بما عنده ، والمعتز بما يقول . وإذا وجدنا الـ « أنا » كثيرة في الشعر العربي ( حتى عند الحطيئة ) ، فإنها قليلة جداً ، بل نادرة ، عند الفرس ( والمتعرّبين منهم

(١) ديوان التهامي : ١٨٢ .
(٢) دمية القصر : ١/٥١ .

كذلك ) وخاصة في شعرهم ، ذلك أنهم يستميضون عنها بكلمات تدلّ على التواضع وتحقير النفس ، كقولهم : العبد أو الحقير ( وعنهم أخذ أدباء عصر الانحطاط بقولهم : كتبه العبد الحقير ... ) . ولكننا إذا وجدنا واحداً منهم يقول : « أنا » ، فمعنى هذا أنه كثير الاعتداد ، ومنهم أبو القاسم الاصفهاني :

لا تحسبِ الصدرَ حيثُ الدستُ مطَّرحٌ
إذا حضرتُ ، فالدستُ حيث « أنا »(1)

ولكن الحيص بيص ، الذي وجدناه معتزاً بأرومته ، ومتمسكاً بأصالته العربية ، يريد من الفخر بالشعر شيئاً آخر ؛ شيئاً يربطه بالأرومة وبالشاعرية معاً ، اسمعه ينشد :

نكّبا صمْتي ، وخافا صخَبي ... لا ركبتُ الخيل إن لم أغضبِ(2)
واحذرا آخر حلمي ، إنما ... لهْذَمُ الذابل أقصى الأكعُبِ
يا رواةَ الشعر ، لا ترووه لي ... فبغيرِ الشعر شِيدت رُتبي
لستُ بالقاعد عن مكرُمةٍ ... وأبو رَغوانَ ذو المجد أبي(3)

وكانت قضية **الشعر والشاعرية** مطرح المدح والهجاء والفخر . ولنا في أبي تمام والمتنبي ( وغيرهما من شعراء العصر العباسي ) مثالانِ على الاعتزاز بما يقول

---

(1) دمية القصر : ١/٤٥٦ .

(2) خريدة العراق : ١/٢١٣ .

(3) اللهذم : الماضي من الأسنّة . الذابل : صفة للرمح . الأكعب : ج كعب وهو هنا العقدة الناشزة بين الأنبوبين من القصب . يقصد برغوان، مجاشع بن دارم ، وهو لقبه . لقب به لفصاحته وجهارة صوته . وقد افتخر به لأن نسبه من تميم .

المفتخرون في شاعريتهم ، إلا أن الأمر استفحل في العصر السلجوقي وطما . إذ لم يتوقفوا عن الافتخار بشعرهم بل غالوا في ذلك ، وهم دون أبي تمام بمراتب ، ولا يقاسون بالمتنبي أصلاً . وإذا نظرنا إلى شعرهم وجدناه غير أهـــل للافتخار فكرة وأسلوباً غالباً . والذي حداهُم على هـــذا أنهم لم يستطيعوا المباهاة بعروبيّتهم بعد الآن لضياع مفهومها في زحمــة الأغراب ، ولوجود منافس لهم وهم الترك والفرس ، فعكفوا على الأشعار يُضفون عليها ألواناً من الافتخار ، وهم في كل معانيهم في هـــذا المجال مقلدون غير مجدِّدين ؛ إذ سبقهم إلى ذلك آخرون كالمتنبي . فإذا أراد أحدهم الافتخار بقصيدِهِ ساقَه إليك كما يسوقــه كبارُ المعتدّين بشعرهم ، كقول علي المعرّي :

خذها إليك قصيدةً من ناظم زهراءَ مثلَ الروضةِ الزهراءِ
غرّاءَ تُزهر كالربيــع نضارةً جمعتْ صفاتِ خليقة غَرّاءِ[1]

وقد يكون الفخر في أن الشاعر ينقّح قصيدته ويزينها ، وهذا يدلنا على قلة الشعر المفتخر بـه ، وكثرة الشعر الركيك ، وقلة الشعر المنقّح ، قال أبو بكر أحمد بن محمد :

وقافيةٍ حذّاء ألقيتُ حشوَهـا وصحّحتُ معناها،فجاءت مُهذّبهْ
مُصدَّقةً في كلِّ ما نطقتْ بهِ وإن كذَبَتْ أيضاً فغير مُكذّبه[2]

وإذا وجدنا قصائد كثيرةً يفتخر أصحابها **بأنهم من آل البيت** ؛ من محتدِ الدين ، كالشريفين الرضي والمرتضى، فعلينا أن نتذكّر أيضاً أن هذا الفخر نشأ

---

(١) دمية القصر : ٢٣٥/١ .
(٢) « « : ١٣٣٧/٢

بعد الإسلام مباشرة ، وبالأصح بعد تألّب الحكام على أبناء علي ، وحرمانهم من أحقّيتهم بالولاية والإمامة . إلا أنّ آل البيت لم يعودوا عرباً خلّصاً بعد التزاوج الذي حصل على مرّ السنين . ولعلّ هذا من أسباب تخلّي الشاعر عن القومية العربية التي كان يعتزّ بها . فغدا كثير منهم من الفرس ، وأبو الحسن البلخي من أشهر مَن أعلى كلمتهم ، وهو الذي يقول :

بنى اللهُ فوقَ السارياتِ بيوتَنا بأحمدِه المحمودِ ثمَّ بحيدرِ
ونحن كسرنا الوُثْنَ والصُّلْبَ كلَّها ونحن وسَمْنا أنفَ كسرى وقيصرِ [1]

ويفتخر الفرس ( خاصة ) **بمعرفتهم اللسانين** ( العربي والفارسي ) ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً . ولكنّ الافتخار بثلاثٍ ( بإضافة التركية ) إلى السابقتين قليل . فالباخرزي يمدح عميد الملك الكندري ، وهو الذي يجيد العربية كفارسيته ، بمعرفته التركية ، فيقول فيه :

مُستظهِرٌ بعباراتٍ وألسنةٍ تَفنَّنتْ كالرِّياضِ الغُرِّ ألوانا
هدى إلى لغةِ الأعراب تُبَّعها وزَفَّ بالمنطقِ التركيِّ خاقانا [2]

وإذا وجدنا بشاراً ( وهو شعوبي ) في العصر العباسي الأول **يفخر بجدوده الفرس** ، فإن الشعوبية تطغى بعد حين ، ويُعلن أصحابُها سخطهم على العرب . ولهذا ينهض الجاحظ بدفاعه عن العروبيّة ، ضدَّ تهجُّم أصحاب الشعوبية ( وهم رقيقو الدين من الفرس غالباً ) . ولكن الأمر استفحل فيما بعد ، باشتداد المفاخرات بين العرب والفرس ، وخاصة على أرضٍ عربية . قال أبو المفاخر

---

(١) دمية القصر : ٢/٧٧٣
(٢) ديوان الباخرزي : ١٨٤.

حمد النيرماني ، وقد عيّـر بأنه أعجمي على جودة شعره :

فإنْ لم يكن في العُرب أصلي ومنصبي
ولا من جدودي يَعربٌ وإيـــادُ
فقد تَسجعُ الورقاءُ ، وهْي حمامـــةٌ ،
وقد تنطقُ الأوتارُ ، وهي جمـــادُ !

وتبتعد فكرة الشعوبية عن الأذهان ، إذا كان المرءُ تركياً ، أو فارسيّ الأب تركيّ الأم ، لأن الأتراك كانوا حديثي الانتساب إلى الدين ، ولأنّ أصولهم غير عريقة كعراقة الفرس ، لذا فإن افتخارَه سيكون **بتعلّقه بالدين المحمدي** السامي الذي يدين به ، وبدفاعه عنه . ولا يمكننا ، عندئذ ، وصمُ صاحب الفخر هذا بالشعوبية ، لأنه لم يطعن بالعرب ، كما فعل أولئك . قال أبو عبدالله الديلمي ، والديالمة أتراك :

إني امرؤ كسرويٌّ حين تُنميني ... وفي الذوائب منهمْ والعَرانينِ
أخواليَ التركُ لا أبغي بهم بدلاً ... وليس رأيُ الرضى مني بمغبونِ
والدينُ مني إن حاولتَ معرفةً ... دينُ التهاميِّ ، ما أحلاهُ من دين![1]

وهناك **أوصاف فخرية** ، غير ما ذكرنا ، تطرّق الشعراءُ إليها كالافتخار بالكرم ، والافتخار بأن الشاعر حرٌ وإن كان مفلساً ، وانه سيبحث عن المجد أو يلقى حتفَه . وبما أن الأدباء والعلماء طرقوا فنون الشعر ، وجرّبوا حظهم بالقريض ، فمن البديهي أن يعتزّوا بما لديهم من علوم وفنون ، كقول الحاكم

---

(١) دمية القصر : ١/٢ : ٤

أبي سعد بن دوست :

ولقد شربتُ من العلومِ بأنقعٍ وسقيتُ غيري من علوميَ أنقعا
وحَويتُ آداباً لبستُ جمالها وبهاءها وحلفتُ ألّا أنزعا[1]

وهذا هو الطغرائي يشمخ بأنفه لمعرفته العلوم وتبحّره بها ، فيقول:

أما العلومُ فقد ظفرتُ ببغيتي منها فما أحتاجُ أن أتعلَّما
وعرفتُ أسرار الخليقة كلها علماً أنار لي البهيم المظلما
وورثت «هرمس» سر حكمته التي ما زال ظناً في الغيوب مرجما
وملكتُ مفتاح الكنوزِ بحكمةٍ كشفت ليَ السرَّ الخفيَّ المبهما[2]

وقد نجد الشاعر ، وهو أعجمي أمير ، يريد أن يصدّ كيد العائرين فيعكف على الافتخار سلاحاً لذلك . فيأتينا بأفكار تُرسم على الأفئدة وتحفظ :

قل للذي بصروف الدهر عيَّرنا : هل حارب الدهرُ إلا من له خطرُ ؟
أما ترى البحرَ تعلو فوقَه جيفٌ وتستقرُّ بأقصى قعره الدررُ ؟
فإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا ومسَّنا من تمادي بؤسه ضررُ
ففي السماء نجومٌ لا عدادَ لها وليس يُكسفُ إلا الشمسُ والقمرُ[3]

---

(١) دمية القصر : ٢/٩٧٢

(٢) ديوان الطغرائي : ٧٩

(٣) وفيات الأعيان : ٣/٢٤٢ . وانظر البداية والنهاية : ١١/٣٤٨ لاختلاف الروايات .

وبعدُ ، فهذه صورةٌ للفخر مجبولةٌ بما أخذوا وما أعطوا ، فيها الركيك ، وفيها الجيد المحلق . غير أن الطابع الذي تتّسم به القصائدُ إنمـا هو التقليدُ العام كما لمسنا . ولعلّ من أجمل ما علقت به يدي في هذا الموضوع قصيدة الوزير المصري أبي القاسم المغربي،قالها يخاطب أمه بعد أن أحسَّ بدنوّ الأجل. فاقرأها وتذكر أبا فراس الحمْداني :

أيا أمَّتَـــا ، إن غالني غائلُ الردى
فلا تجزعي ، بـــل أحسني بعديَ الصبرا

فمـــا مُتُّ حتى شَيَّد المجدَ والعُلا
فعـــاليَ ، واستوفَت منـــاقبيَ الفَخرا

وحتى شفَيتُ النفسَ من كل حاسدٍ
وأبقيتُ في أعقابِ أولادِك الذكرى[١]

## ٤ – الرثاء :

الرثاءُ من أقل الأغراض كمية شعر ، لانعـدام العاطفة الصادقة ، ولوهن الربط بين المادح والممدوح . فهو يمدحه ليقتطر منه العطاء ، ما دام حياً ، ولا يرثيه بعد موته إلا إذا علم أن خليفته يدفع على ذلك أجراً . ونستثني من ذلك عاطفـة بعض الشعراء الذين ربطتهم صلة الصداقة المتينة ببعض ذوي الأمر ، كالصلة التي ربطت بين الباخرزي والوزير الكُندري ، لما بينهما من وداد ، وما لقضية موته من أسى ناجم عن الدسائس . وإذا صدق الشاعر في عاطفته في هذا

---

(١) دمية القصر : ١١٩/١

الغرض ، فسيطغى جو التشاؤم والشكوى من الدهر الغاصب الخؤون على قصيدة الرثاء .

ومع أن قصائد رثاء الأهل والأقربين قليلة في المجموعات الشعرية ، فإنها استطاعت أن تصور جوانب من الهلع الناجم عنهذا المصاب وعن هذا المفؤود. من ذلك رثاء أبي خداش ابنَه سعيداً :

برزءِ سعيدٍ قصَّ دهري قوادمي وأطفأ نوري واجتنىٰ ثَمر الصدرِ
أبانَ يدي يومَ التصاوُل من يدي وهدَّ به ركني وأوهى به أزري
ومـا كان إلا روحَ جسمي فانقضى
وكيفَ بقاءُ الجسمِ والروحِ في القبرِ ؟[1]

أما المعاني العامة فلا تقارَن برثاء أبي تمام الطوسيّ البطل ، ولا رثاء ابن الرومي ابنَه محمداً . ولا تتعدّى هذه المعاني : همع الدموع ، تفتّت الأكباد ، الوهن لدي الفجيعة . فإذا بكى أبو الحسن البلخي أمّه ، فإنه يصورها أُسّاً قد هُدّ ، يقول :

أيدري الذي ينعاكِ ،منِ الذي ينعىٰ ؟
وأيَّ لهيبٍ يودعُ القلبَ والسمعا ؟
فيا عينُ جودي وانزفي كلَّ مدمعٍ
وجودي بانسانَيْك إن عدما الدمعا [2]

---

(١) دمية القصر : ٢/٢٢١٨

(٢) دمية القصر : ٢/٧٧٥

ولا يعني قولنا إن العاطفة كانت منعدمة ، ينطبق على من يبكي ابنَه أو أمّه ، فهي موجودة ومجروحة كما رأينا ، وإنما قولنا هذا ينطبق على أشخاصٍ لا يمتّون إلى المرثيّ بصلة نسب ، كقول الماهر الدمشقي في شخص لا نعرفه :

برغمي أن أعنِّفَ فيكَ دهراً قليـلاً همُّـهُ بمعنِّفيهِ
وأن أرعى النجوم ولستَ فيها وأن أطأَ الترابَ وأنتَ فيه [1]

ولقد رثى الشعراءُ الأمراءَ والعلماء بضياع المقـام وفقدان العلم . ونراهم يُكثرون من الألفاظ : النور ، العلوم الرفيعـة ، تداعي مباني الدين والعلم ، كسوف الشمس ، ذوت دوحة الاسلام... وكنا نرى دموعاً ، ولكنها كانت مكتوبة على الأسطر لا مرقومة في الأفئدة ، أو حتى على الوجنات . كقول أحدهم يرثي ابنَ البواب :

استشعرت الكتابُ فقدكَ سالفاً وقضت بصحَّة ذلك الأيامُ
فلذاكَ سُودت الدُّويُّ كآبةً أسفاً عليك وشقَّت الأقلامُ [2]

أو رثاء حمد الهمذاني للإمام الجويني :

علومٌ علَتْ أعلامها غبراتُها وأعينُ أعيانٍ طغَتْ عَبَراتُها
تداعتْ مباني الدينِ وانْهدَّ ركنُه ودُهْدِهَ من أَطوادِهِ صخَراتُها [3]

ولعلّ من ألطف ما مرّ بنا من قصائد في هذا الباب، مرثيةَ السنجاني نفسَه !؛

---

(١) دمية القصر : ١/١٨٧
(٢) البداية والنهاية : ١٢/١٤
(٣) دمية القصر : ١/٥٣٦

فعندما أحسَّ بدنوِّ الأجل راح يعزّي روحَه بقوله :

دَبَّتْ إليَّ بنـاتُ الدهرِ مُسرعةً
حتى تمشَّينَ في قلبي وفي كبِدي
قد وُسِّد الترب خدِّي فهو مضطجعي
وصارَ فيه مِهـادي أوعرَ المُهُدِ[1]

لم ينتهِ حديثنا عن الرثاء ، فهناك فاجعة أصابت الأدب ، وروّعت الأفئدة ، وجعلت النقاد يتحدّثون عنها ، إنها مقتلُ المتنبي . كلنا نعلم أن فاتكاً الرومي قتل المتنبي ، بعد أن كان ممدوحَه ، مستعيناً ببني أسد . ولكن قليلاً من يعلم أن قصائد عديدة قيلت في هـذه الفاجعة أهمها لثلاثة شعراء هم : ثابت بن هارون الرقّي النصراني ، ومحمد بن عبيد الله بن محمد الكاتب النصيبي وأبو القاسم يوسف بن أحمد . والقصائد الثلاث تعدّ مئة بيت ، وكلّها تحثّ عضد الدولة البويهي على طلب الثأر واسترداد ثمن دم هذا الشاعر المهدور . وهي مشاركة جليلة لشعراء غدر بزميلهم بعض الأعداء ، وقد رفعت هذه القصائد سوية الرثاء في العصر السلجوقي .

وصف ثابت مقتل المتنبي المؤلم فقال :

الدهرُ أغدرُ والليالي أنكدُ من أن تعيشَ لأهلها يا أحمدُ
ذقتَ الكريهـةَ بغتةً وفقدتَها وكريهُ فقدِك في الورى لا يُفقدُ[2]

---

(١) دمية القصر : ٢/ رقم ٩ من الجزء الثالث .
(٢) دمية القصر : ١/١٣٠

ثم خاطب عضد الدولة بقلب جريح طالباً منه أخذ الثأر ، وبأن عليه حقّ الذمام :

هذي بنو أسدٍ بضيفك أوقعتْ     وحوتْ عطاءك إذ حواه الفرقدُ

ارْعَ الحقوقَ لقصدِهِ وقصيدِهِ،     عضُدَ الملوكِ، فليس غيركُ يُقصدُ

ويرثيه النصيبي ، ويستجيشُ عضد الدولة على قاتلي المتنبي ، لأن الأعداء استراحوا منه ، وهو بطل حارب ببسالة :

قرَّتْ عيونُ الأعادي يومَ مصرعِهِ     وطالما سخِنتَ فيه من الحسدِ

يا يومَ صافيةِ الكدراء قد كدرتْ     مشاربي بعد مقتولٍ بلا قَوَدِ[1]

ثم يقول :

هذي بنو أَسدٍ جاءتْ بمؤْيدةٍ     صمّاءَ بائحةٍ هدَّتْ ذرا أُحدِ

سطت على المتنبي من فوارِسِها     سبعونَ جاءته في موجٍ من الزردِ

وقال يوسف بن أحمد فيه :

لم يألُ جُهداً في الجلادِ بسيفِهِ     والضربِ للهاماتِ والأعضادِ

طلباً لنُصحك في الحياة بنفسه     والجود عند الموت بالإسعادِ

فثوى خضيباً بالدماء وسيفهِ     مُلقىً بغيرِ حمائلٍ ونجادِ[2]

(١) دمية القصر : ١٣٢/١

(٢) دمية القصر : ٣٣١/١

والرثاء يذكّر بالموت ، وحديث الموت يتبعه الموعظة والإرشاد ، وكثيراً ما اتّبع الشعراء هذا المنهج ، فوعظوا بالرثاء ، ورثوا مع الموعظة . والشريف الرضي يعظ الإنسان عندما يرثي أبا الفتح بن الطائع لله ، فيقول :

أيُّ العيون تُجانبُ الأقذاءَ أم أيُّ قلبٍ يقطع البُرحاءَ !
والموتُ يقنِصُ جمعَ كلِّ قبيلةٍ قنْصَ المُريعِ جَآذراً وظِباءَ
إنا بنو الدنيا تسيرُ ركابُنا وتُغالطُ الإدلاجَ والإسراء[1]
أينَ المَقاولُ ، والغطارفةُ الألى ؟ هَجروا الديارَ ، وعطّلوا الأفناءَ
فاخلط بصوتك كلَّ صوتٍ واستمع
هل في المنازلِ من يُجيبُ دعاءَ ؟ [2]

رأينا ، مما مرّ – عدا ما جاء في رثاء المتنبي ، وبعض المرثيين غيره – أن العاطفة تجلّت واهيةً ، وهي التي جعلت مادة الرثاء قليلة ومعانيها ضحلةً ، وأنفاس أصحابها – القليلين – قصيرة . شيءٌ آخر تحسن الإشارة إليه ، أن الرثاء يندر في المجموعات الشعرية ، ويكثر في الدواوين الخاصة ، ولعل سبب ذلك أن الجُمّاعَ يحرصون على المدح والهجاء والغزل لرواج هذه الألوان ، ويعزفون عن الرثاء لكساد سوقه ، والدواوين تضم آثار الشاعر كلها .

(١) البرحاء : شدة الأذى . المُريع : المخيف . الإدلاج : السير أول الليل . الاسراء : سير الليل كله .

(٢) ديوان الشريف الرضي : ٢١ – ٢٢ .

## ٥ – الشكوى :

موضوع الشكوى من أهم الموضوعات الشعرية التي تلمس عاطفة الشاعر ، وتتحسّس أحواله . وهي تعبير ذاتي عن آلام حاقت بالشاعر من فعل امرىءٍ أو عدوٍّ أو دهر . ولذلك نرى قصائد الشكوى في أي عصر زاخرة بالتحرّق والأسى والصبر على الهوان ، وذلك كله بتعبير صادق ولوعة ظاهرة. فالعاطفة، على هذا ، تبرق من خلال أبيات الشاعر غالباً .

وموضوع الشكوى قديم العهد في الشعر منذ الجاهلية ، واشتدّ أوارُه في شعر شعراء العصر العباسي كعندعلي بن الجهم وابن الرومي وأبي فراس والمتنبي. وازداد أكثر ، وعمّ بين الشعراء ، منذ أوائل عصر السلاجقة بتعقّد المجتمع ، والشاعر منه بخاصة . فالمتناقضاتُ تُقلقهم ، والدهر يحاربهم ، والحظ يعاكسهم ، ومتحكّمون ليسوا بذي تفهُّم للعلوم والآداب ، حيث يسيطرون على مقاليد الأمور ، والشاعر الطموح هو الذي يشعر بهذا الجدار القائم بينه وبين ما يرنو إليه . وعلى هذا تنبع شكواهم من نفوس متألمة ومتشائمة . وقد كانت حرقةُ أذنهم تمورُ بين طيّات مرارة عيشهم .

ولعل **الشكوى من الزمان** القُلّب ، ومن الدهر الغَشوم ، ومن كرّ الليالي التي لا ترحم ، من أعمق ما يحثّ الشعراء على نَفث آهاتهم بأبياتهم . وقد نرى الشاعر يبرر غلبة الدهر عليه بما يلقاه منه ، كما قال سعيد بن علي :

أكلَّ زماني من زماني شكاية ؟ أطولَ حياتي من حياتي تعتُّبُ ؟
خُلقتُ حمولاً للخطوب فلو جرى لها مِقولٌ قامت بصبريَ تخطبُ
خليليَّ مهلاً لا تلوما أخاكما فما يَعرِفُ الأيامَ من لا يجرِّبُ

لقِيتُ من الأيام مــــا لو قرنتُـهُ
بثهلانَ أضحى وهو في التُّربِ يُحسبُ[1]

وقد يصرِّح بعضهم **بفعل الدهر** ، فهو بنظرهم يصدُّ الطامحين إلى العُلا ، المستحقـِّين لما يرمونَ إليه ، فيفتح جناحيه لأنذالٍ ، ويحنو عليهم ، وهم في الواقع لا يستحقون أية رعاية ، كقول محمد الخيري :

زمانٌ يعادي الحرَّ حتى كأنما   لهُ عند مَن يأوي إلى حسبٍ وترُ
ويحنو على الأنذالِ تعساً لَجدِّهِ   كأنهم الأبناءُ وهو الأبُ البرُّ[2]

ونلمس لدى أغلب الشعراء الذين شكوا من الدهر طواعيةً للنائبـــات وانصياعاً لضَـرَبانِ الدهر ، كقول أبي المنيع قرواش :

للهِ درُّ النائباتِ فإنهـــا   صدأُ اللئام وصَيقلُ الأحرارِ
ما كنتُ إلا زُبرةً فطبعْنَني   سيفاً ، وأطلقَ صرفهنَّ غِراري[3]

وكأنهم أيقنوا بحتميّة المصاب ، وهذا الخنوعُ أصاب العديد من الشعراء ، ومنهم أبو الحسن الحمداني :

قد قنِعنا باليأسِ منه وقُلنا :   حسبُنا ربُّنا ونعم الوكيلُ[4]

---

(١) دمية القصر : ١/٢٢٩ .
(٢) » » : ١/٤٩٤ .
(٣) » » : ١/٤٩ .
(٤) » » : ١/٥٩٨ .

ولعل تحمُّلهم هذا جعلهم يستكينونَ ويقنعون بأتفه ما في الحياة ، حتى العلم . بل إن طالبيه يُقبلون عليه من دون تعشُّق أو رغبةٍ ، أو كما قال الشاعر :

لستَ ترى في الكلِّ ذا همةٍ　　　يهزُّه الشوقُ وفَرطُ الولوعْ
لكنْ ترى حين ترى قارئاً　　　كالآكلِ الشيءَ على غيرِ جوعْ (١)

وربما كان ذلك واقعاً لمسوهُ ، إذ أنهم رأوا العديد من الأدباء يعيشون حياة كلها شظف دونما فائدة من هــــذا العلم الثمين الذي حصّلوه !. لذا نرى بعضهم يشتم القلم ويلعنه ، إذ أنــه مسبب هذا الفقر ، وإلى هــذا أشار أبو هلال العسكري :

فأين انتفاعي بالأصالة والِحجـــا ؟
وما ربحت كفّي على العـــلم والحكمْ
ومَن ذا الذي في الناس يُبصر حالتي
فلا يلعنُ القِرطاسَ والحبرَ والقلمْ !(٢)

ونرى الشعراء يثورون من **كيد الأصدقاء** ، بل نرى الناس جميعاً يعبّرون عن مرارة معاملة هذه الفئة القريبة منهم . فالناس هم سبب اليأس ، كقول إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني :

ما في زمانِكَ ماجدٌ　　　لو قد تأمّلتَ الشواهدْ

---

(١) الشاعر أبو المجد ، دمية القصر : ٥٦٦/١ .
(٢) دمية القصر : ٥٠٦/١ .

فاشهدْ بصـــدقِ مقالتي أوْ فكذّبني بواحد[1]

والبلوى تأتي منهم أكثر من غيرهم ، وقلة الأصدقـاء هي التي تُضيع قوةَ المرء. وأدباءُ العصر إذ نفروا من أصدقائهم فلا يعني أنهم اقتبسوا ذلك عن بشار وعن غيره من الذين كتبوا في الصداقة والصديق ، لأن الصديق موجود وأفعاله الحسنة والسيئة أيضاً ملموسة . فالطغرائي ـ كغيره ـ بحّ صوته إذ يبحث عن صديق لا يخونه ، فقال :

إذا قلتُ إني قد ظفرتُ بصاحبٍ
سلكت إليـــه ، خانني وأرابا
أقلّبُ عيني لا أرى غير صاحبٍ
ظننتُ بـــه الظنَّ الجميل فخابا
وكيف ثوائي بالعراقِ وقد غدا
عليَّ بـــه روح النسيم عذابا ؟

بل إنه يؤدي صورة تنزف منها المرارة لواقع لمسه من أصدقائه الألدّاء ! الذين لم يتحوّلوا عنـه فقط لانقلاب الدهر عليه ، بل مالوا مـع الدهر ، وتكاتلوا عليه :

متى ما نبا دهرٌ نبوا وتصرّفوا على حالتيهِ جيئة وذهـابا
مناكيدُ تأبى أن تجود لقاحُهم بدرّ بكيءٍ أو تشدّ عصابا[2]

(١) دمية القصر : ١/٥٨١ ، وينسبان إلى التميمي .
(٢) ديوان الطغرائي : ٥٧ – ٥٨ . البكيء : القليل .

وبما أننا في معرض الأصدقاء ، فلنجرِّب قلمنا في الحديث عن الشامتين ، ولنجرّه ليحدثنا عن أولئك المتربصين بالعاثرين أو المصابين بضَرَبانِ الزمان . يعبّر الطغرائي عن ذلك فيقول :

يا شامتاً لزمانٍ قد تنكر لي فيمَ الشماتةُ إن زلّت بي القدمُ ؟
ما ساءَني ذمُّ جهال تنغصني سيانِ عندي إن ساءوا وإن كرموا
الوجهُ أزهرُ لم يعرض له كلف والعرضُ أملسُ لم يحلم له أدمُ
لا تشتمنّ الأعادي وقعةٌ وقعتْ لي بغتةً ، ولصرف الدهر مصطدم
فإنها سطوة السلطان ليس بهـا
عار وان نيل عرضٌ أو أريقَ دمُ (١)

ولعل الحسد سبب يؤدي إلى قلة الأصدقاء ، ولا يحسد الناسُ إلا المرءَ الفعالَ ، ولا يكسر إلاّ الغصنُ المثمر ، والعودُ لولا طيبُه لم يحرق . ولهذا مدح الواثليُّ الفقيهَ الخوافيّ ، وذكر الحسّاد الذين يحومون حوله ، فقال لهم:

قُل : فموتوا بغيظكم ، كلُّ هذا أنْ رآهُ الإلهُ للفضل أهلا (٢)

وإذا شكا الشعراءُ من الأصدقاء ، فالشكوى تكون أكثر ألماً إذا جاءت من الأقارب ، وكأنهم استندوا على قول العامة : « الأقارب عقارب » ، وبذا لهج شعراء تلك المرحلة ، وهم يبثّون آلامهم من فعل أهليهم ، وقد عبّر أبو

---

(١) ديوان الطغرائي : ٦٣ .
(٢) دمية القصر : ١/٩٠ .

جعفر المختار عن ذلك بقوله :

ما للأقارب آذتني عقاربُهم
وعيّروني الحجا والعلمَ والفِطَنا !
إذا أساءت ذوو القربى مُجاورتي
كنتُ الغريب، وإنْ لم أهجرِ الوَطَنا[1]

ونلقى من شكواهم عجباً ، وذلك عندما يضجرون من الحيـاة الزوجية . فالإنسان إذا ظلمه الدهر أنِس بأهله، وإن تضافر عليه الحسّاد استنجد بحليلته. ولكن ما بالُ شعرائنا يصرّحون علناً بضيقهم من أزواجهم ؟ أهي شكوى خاصة مرّت ببعضهم، ولم تمرّ بآخرين ؟ أم أنّ لسانهم تعوّد الشكوى فنسبوها إلى كلّ من حولهم ، كمن لم يجد من يهجو فهجا أمّه ؟ . فنرى الكيا الديلمي - كغيره من الشعراء - يحضّ على عدم الزواج ، وينصح بالتنقّل في رحاب الهوى ، فيقول :

يا طالبَ التزويج إنك بالذي     تَبغيهِ منهُ جاهلٌ مغرورُ
لا تبغِ في الدنيا نكاحاً لازماً     وافعلْ بها ما يفعل الزنبورُ[2]

أما الباخرزي فكان أشدّ عنفواناً ، فقد طالب بوأد المرأة ، لأن وأدها - كما يقول - من المكرمات :

ألقبرُ أخفى سترةً للبنـات     ودفنُها ، يُروى منَ المكرُماتْ

(١) دمية القصر : ٢/ ١٤١٨ .
(٢) » » : ١/ ٤٤٥ .

أما رأيتَ اللهَ ــ عزَّ اسمُه ــ قد وضع النعشَ بجنبِ البنات[1]؟

ونرجّح أن تكون شكاواهم هذه أتَتْ من ضيق ذات اليد أمام غلاء المهر وتكاليف الأولاد ، أو ارتفاع الأسعار ، أو كما قلنا أمور شخصية غير عامّة .

أما حديثُ السنين فربّما كان من أهم ما شكَوْا ، كقول أبي عامر النَّسوي :

وما تركتْ ستٌّ وستّونَ حجَّةً
لنا حُجَّةً أن نركبَ اللهوَ مركبا [2]

إلا أن سنّ «الأربعين» هي السنُّ التي توقّف عندها الأدباء والشعراء قديماً وحديثاً ؛ السنُّ التي يقف عندها من يبلغها ، ويفكّر مليّاً بما أمضى ، ويُمعن في الآتي . فيرى أنه فقد الكثير ، ويلمح الشيب على فوديه ، فينظر إلى الحياة نظرةً ذاتَ معانٍ . وما أحلى قولَ علي النيسابوري ، وهو يحلّل هذه السن :

أَلَمتْ بُعيدَ الأربعين مفاصلي وعَدا يعاديني الطباعُ الأربعُ
عجِل المشيبُ إليَّ قبل أوانهِ إن المشيبَ إلى المُعنَّى أسرعُ [3]

وتأخذهم الجرأة عندما تضيق نفوسهم من الحكام السيئين ، الذين يظلمون الناس فيرفعون الأنذال ويُخفضون العقلاء. وقد أجاد أبو منصور الكاتب وصف

(١) ديوان الباخرزي ٨٢ .
(٢) دمية القصر ، ١/ ٦٤٠ .
(٣) » » ١١١٩/٢ .

الحاكم الجائر بقوله :

أَرضٌ يسودُ بها القرودُ أسودَها    فيطيعهنَّ من الشقاءِ أسودُ(١)

وأبو منصور هذا ، كاتب في بعض دواوينهم ، وعلى علم بأفاعيلهم فوصفهم نثراً بقوله : « كبيرها متورطٌ بالجهالة، وصغيرها متمخّط في الضلالة . أفضلهم عييٌّ ، وأغفلهم غبيٌّ ، وأعفّهم سارق ، وأسدُّهم مارق . وما خيرُ موطنٍ تصيدُك فيه حبائل الحقود ، ولا تأمن به غوائلَ الحسود » .

وكم كان يسعى الشعراء إلى التعبير عن جورهم، وتبيان ما يفعلون. ولكنهم إذا لمسوا أنّ الحاكم الظالم لا زال على ظلمه لم يَسكتوا – ولعلها بادرة جديرة بالاعتبار – بل فضحوا ألوان جوره ، وأرجأوا الحكم عليه إلى خالقه حيث يوسّعُ له السعير ، فقال الحسن بن أبي الطيّب :

إذا أبى السلطانُ أن يعدِلا    فارحمْه ، واستغفر له في الملا

فإنّما النـــارُ لهم موعدٌ    لم يجدوا من دونه موئلا(٢)

ولا يقلّ الأديب الغزي شكاية عن إخوانه من الحكام السيئين ، فهو يتضايق من تعجرفهم ، وتصعير خدهم وهم على سدّة الحكم ، فيقول :

وحتّامَ أرجو دولةً ، وزراؤها    يردّون، إن حيّيتَهم ، بالحواجب ؟

مصيبون في تخجيلهم كلَّ مادحٍ    وعينُ صواب الرأي تخجيلُ كاذب(٣)

(١) دمية القصر : ٢ / ١٢٣٠ .
(٢) دمية القصر : ٢/ ١٢٦٤ .
(٣) خريدة الشام : ١٦/١ .

وبعدَ هذا ، لم يكن ما عرضناهُ من موضوعات الشكوى هو الذي ذكروهُ وحسب ، بل هناك مَن شكا الوطن والأهل ، فامتطى متنَ جواده ، واتّخذه وطناً يحلّ به حيث يشاء ، وبعضُهم شكا من العِلل المُلازمة ، والتعاسة الحالّة به ، ومن النفاق الذي يعمُّ أغلبَ الناس ، ومن غلاء الأسعار ، كقول المحسن بن أحمد الكاتب :

دقّ عظمي عنِ الدقيقِ ، وشَعري صار كالقطن من غلاءِ الشعيرِ [1]

ومن سوء الأخلاق التي يتصف بها بعضهم.. إلى غير ذلك من شكاوى ، قد تمرّ أكثر من مرّة في ديوان الشاعر الواحد. والذي تحسنُ الإشارة إليه أن الشكوى قد تأتي في قصيدة خاصة ، كما تردُ أحياناً مسبوقة بمقدمة . إلا أن هذه المقدمة امتازت بما يناسب المقام كالحديث عن الفراق والحنين والدموع والأنين .

لمسنا من هذا العرض ، صدق شعراء العصر في هذا الغرض ، وجودة ما قدّموا بالنسبة إلى الأغراض الأخرى . وهذا بديهي ، ذلك أن ما ينبعث من الفؤاد يسدّدُ أثره بلا شك ، وأنّ ما يخرج من اللسان لا يؤثر في أي إنسان .

## ٦ – الشيب :

الشيب تبعُ الشكوى ، أو هو جزءٌ منه. وقد تعمّدنا فصلها لوجود شعراء عرضوا موضوع الشيب بشكل لا يمتّ إلى الشكوى بصلة ، أو شكوى ولكن من نوعٍ آخر . وهو ، بعدُ ، قديم قِدَم شيب الشعراء ، ولكنه لم يكن كثير العرض ، كما كان يؤتى به عرَضاً إذا ما احتاج المقام إلى مثل هذا المقال. وككل غرض شعري ازداد باهتمامهم للتقليد وبكثرة عدد الشعراء . ومن ميزة أدباء هذا

---

(١) دمية القصر : ٢/١١٧٥ .

العصر تمسُّكُهم بالموضوع القديم واعتصاره ، وتقليدهم إياه وتفنُّنُهم بهـــذا التقليد .. وإن كانت تعوزهم المقدرة التي كانت طبيعية لدى سابقيهم .

والشعراء الذين ذكروا موضوع الشيب عديدون على الرغم من قلّته من حيث الكم ، ذلك أن كل شاعر تقريبــاً جرّب حظّه به ، وشكاهُ من باب الواجب أو الواقع . وقد استخدموه موضوعاً لذاته حيناً ، كما استغلّوهُ مطالع لأغراض أخرى كالمديح أو الهجاء أو الرثاء ، ولكن استخدامهم إياه في المطالع المدحية أقل من الرثاء ، من ذلك قول الطغرائي يمدح مؤيد الملك بن نظام الملك :

لك اللهُ هل عهدُ الشبيبة يرجع ... وهل بعده في خلّة البيضِ مطمعُ ؟
فقد راعني أن المشيب مسلم ... كما رابني أن الشباب مودّعُ
تجلّى شباباً كنتُ أخبط ليلَه ... سنا قمر من جانب الغور يطلع
وأفنى جميم الشعر بعـــد التفافهِ ... قطيعانِ عاثا فيه جَون ونصّعُ[1]

وكذلك أوردوهُ بين ثنايا الغزل ، وما أكثره ! ، أو بين غيرِهِ من الأغراض الأخرى .

والشيب عند شعراء عصر السلاجقة ، ومَن بعدهم ، نذير الموت غالبــاً ، وأحياناً هو لمسامرة الغواني ، واستعادة الذكرياتِ الجميلة ، فقد أكثروا منه في الحديث عن الموتى والقبور ودنوّ الأجل . وبذا خاطبه البَرْدْسيري :

قلتُ : عاجلتَني ، لماذا ؟ أجبني ... قال : إني أنا النذيرُ المبينُ[2] !

---

(١) ديوان الطغرائي : ٢١ .
(٢) دمية القصر : ٢ / ١٣١٢ .

واعتبروه من علائم الاقتراب من القبور كقول الحسن بن بركة :

وماشنآنُ الشيب من أجل لونِهِ ... ولكنّه حادٍ إلى الموتِ أسرعُ
إذا ما بدت منه الطليعةُ آذنت ... بأنّ المنايا بعدهــــا تتطلّع[1]

غير أن بعضهم عدّه سبباً في استعادةِ الذكرياتِ الحبيبة ، أو لونـــاً من ألوان التغزل وإتيان الصور الفنية ، ومن ألطف هذه الصور تلك التي رواهـا الشريف الرضي ، مُستغلاً نسبه الهاشمي :

رأتْ شَعَراتي في عذاري طفلةٌ[2] ... كما افترّ طفلُ الروض من لؤلؤ الوسمي
فقلت لها: ما الشّعر سالَ بعارضي ... ولكنّها نبتُ السيادةِ والحِلمِ
يزيدُ به وجهي ضياءً وبهجةً ... وما تُنقصُ الظلماءُ من بهجةِ النجمِ

وله وقفة أخرى حائرة بين الشيب والغزل ، تـُفصح عن ميل الشعراء إلى ذكره وقت الغزل :

مَن شافعي ،وذنوبي عندها الكبرُ، ... إن المشيبَ لذَنبٌ ليس يُغتفرُ
راحت تُريحُ عليكَ الهمَّ صاحيةً ... وعند قلبك من غيٍّ الهوى سَكَرُ
رأت بياضَك مُسودّاً مَطالعُهُ ... ما فيه للحُبِّ لا عينٌ ولا أثرُ[3]

---

(١) حاشية معجم الأدباء : ٩/٠٤ .

(٢) ديوان الشريف الرضي : ٤١٢ . وفي رواية : طلقة .

(٣) ديوان الشريف الرضي : ٥٢٥ .

ويمن الشعراء في حديثهم مع الغواني ، ويسعون إلى إفهامهنّ أن خضاب الشيب ليس أمراً شنيعاً ، كقول عبد الكريم القشيري :

مـــا خضابي بياضَ شَعريَ إلا ‏ ‏ ‏ ‏ حذاراً أن يقال : شيخٌ خليع [1]

ويشرحون لهن أن الشيب لا يوهن من عزيمة الرجولة — وهـــذا تمادٍ في الخلاعة — ، غير أنهن لا يقنعْنَ ، ويهربْنَ حالما يريْنَ مطلع البياض . وقـد يكون الشاعر — وهو يُقنع محبوبته — في خليَّة نفسه قانعاً بما شكّ فيه الحسان، كقول المظفر الجرجاني :

قلاكَ الغواني أنْ علاكَ مشيبُ ‏ ‏ ‏ ‏ فما لكَ في ودٍّ الحسانِ نصيبُ

أتطمعُ أن تلقى حبيباً مُساعداً ؟ ‏ ‏ ‏ ‏ وهل بعدَ شيبِ العارضينِ حبيبُ؟

معاهدُ قضَينا بهـا وطرَ الصبا ‏ ‏ ‏ ‏ إذِ العيشُ غضٌّ والشبابُ قشيبُ [2]

## ٧ – الحكمة والزّهد :

الحكمة العربية عميقة الجذور ، فقد عرفها الأدب في الأمثال قبل أن ينطقها العرب في الأشعار. وسُمعت من أفواه الكهّان قبل أن تُسرد في شعر الشعراء. ولكنها كانت محدودةَ المجـال لضيق أفق العربي المحصور في باديته . وازدادَ أفقها اتساعاً على مرّ السنين والقرون بازديادِ تجاربِ الحياة ، وتعدُّدِ الخبرات التي تمرُّ بالمرء . واتسعت أضواءُ الحكمة عند شعراء هذه الحقبة لاطّلاعهم على ما سبقهم من حِكم بشار وأبي نواس وأبي العتاهية والمتنبي والخيّام والمعري ،

---

(١) دمية القصر : ٢/ رقم ٧١ .

(٢) دمية القصر : ١/٦٠٢ .

ومواعظهم ومطالعتهم الثقافات المعاصرة والفلسفة منها بخاصّة ؛ فقد انتشرت في زمانهم الكتب اليونانية والحكم البهلويّة والهندية التي ترجمت منذ أكثر من مئتي سنة ، وتسرّبت إلى كتب الأدب المتداولة . لذا نرى أن الحكمة كانت أوفرَ حظاً من الحكم السابقة . إلا أن شيئاً من السوداويّة قد علاها ، إذ رَفدت حكمَهم حياتُهم القاسية ، التي نوّهنا إليها ، والويلات التي حاقت بهم بسببها، وانعزالهم عن الحاكم أو عن الناس، فابتكروا وغرفوا من فنون الحياة،وقدّموا سجلاً خاصاً يستطيع ناقدُ المجتمع أن يكشف من ورائه سرَّ حياتهم ، وسبب شقائهم . ولهذا فإن الوتر الذي عزفوا عليه حكمهم كان يتّسم بالنُّصح والموعظة والإرشاد غالباً ، أو بالحثّ على التعلم ، كقول البارع الجُرجاني :

نصحتُ أخي وهو لا يعلمُ ... وقلتُ له قولَ من يفهمُ :
تعلَّمْ إذا كنتَ ذا ثروةٍ ... فبالمـــالِ يحسُن مـــا تعلمُ
وفي العلم زَينٌ لذي درهمٍ ... وشَينٌ إذا لم يكُن درهمُ
ترى أعلمَ الناسِ في عصرِنا ... يقومُ لذي المـــالِ أو يخدمُ
فقد أصبحَ المـــالُ مُستخدَماً ... على الرغمِ ، والمالُ يستخدِمُ[1]

وهم إذا ذلّوا في طلب المال والمديح ، فإنهم عفّوا في الحكمة .. ولعل هذه نتيجةُ تلك . فحثّوا على عدم جمع المال لأنه يودِي بشرف المرءِ ، وعلى عدم مدّ اليد إلى غيرِ الله تعالى ، بعد أن نضبت يدُ المادح ، كقول الإمام عبد القاهر الجرجاني :

---

(١) دمية القصر : ٥٩٤/١ .

استرزقِ اللهَ فالأرزاقُ في يدِهِ ولا تمــدّ إلى غيرِ الإلهِ يَدا
وحاذرِ الدهرَ أن يلقاكَ مُنفرداً فمهرقُ النردِ مأخوذٌ إذا انفردا[1]

وهو ينصحه في البيت الثاني - كما نرى - بألا يقف تجاه تيار الدهر وحيداً، حتى لا يؤخذ ويضيع . ولعل أبرع من هذه النصيحة كلمة الطغرائي لأبنائه وهو يعظهم بالتمسّك والتآزر ، وقد حفظت من ايام الطغرائي في القلوب ، ولا زالت على سُطرة الأمم :

كونوا جميعاً يا بَنيّ إذا اعترى خطبٌ ، ولا تتفرّقوا آحادا
تأبى القداحُ إذا اجتمعْنَ تكسُّراً وإذا افترقن تكسّرت آحادا[2]

ومن الحكم المسبوكة بقالب الموعظة تحذيرُ الحيص بيص من كثرة الهزل ، ومن معاشرته أهله ، فيقول :

احذرِ الهزلَ وجانبْ أهله إنه يُنقص من قدرِ النبيـلْ
إنْ يُجَبْ أو لا يُجبْ قائلُه فسفيهٌ أَنتَ منه أو ذليـلْ[3]

وابن الشبلي يعظ صاحبَه بالتكتم،ويحضّه على ألاّ يبوح بسروره أو ضرره:

لا تُظهرنّ لعاذلٍ أو عاذرٍ حالَيْكَ في السرّاء والضرّاءِ
فلرحمــةِ المتوجّعينَ مرارةٌ في القلبِ ، مثلُ شماتةِ الأعداءِ[4]

---

(١) مهرق النرد : صحيفته . و « مهرق » معربة . دمية القصر ج ٣ .
(٢) ديوان الطغرائي : ٧١ .
(٣) خريدة العراق : ٣٠٤/١ .
(٤) البداية والنهاية : ١٢١/١٢ .

ويحلّل محمد بن فتّوح الأزدي سبب ذلك ، ولكن من ناحية أخرى ؛ أن الصداقة الصريحة لا تفيد شيئاً ، وأن البعد عن الناس راحة ، إلا لسببين جديرين :

لقاء الناس ليس يفيدُ شيئاً سوى الهَذَيانِ من قيلٍ وقال
فأَقْلِلْ من لقاء النـــاس إلا لأخذ العلم أو إصلاحِ حالِ[1]

كما كانوا يدفعون الناس إلى عدم اليأس والتحكم بالرأي والاتّعاظ بالآخرين . ونجد بعضهم يعظون بالتعبُّد والانعزال ، وعدمِ إنجاب الأولاد ، والانشغال بنظم الأشعار ؛ فهي أولاد لا تموتُ ، وإذا ضاعت فلا يحزن المرءُ لفقدها .

أما التمنّي بعودةِ الشباب ! فسلاحُ العديـــد للحثّ على التفكير بالأيام القادمة . وقد تكون حكمتهم ممزوجة بالشكوى من الناس أو الزمان أو تقصير الأصحاب كما سبق وعرضنا.. وتتسم هذه الموعظةُ في أنها تأتي من خلف منظار المرءِ ، وبعد تجربته العمليّة ، كما عبّر عنها أحمد الديلمي :

النَّاسُ أعداءٌ إذا جرّبتَهم لِمُقِلّهم ، وأصادقُ المتموّلِ
كالريح قد تطفي السراج لضَعفهِ وتُزيدُ في ضوءِ الحريقِ المُشعَلِ[2]

ونطالعُ حكماً كثيرة نشعر أنها مقتبسة ، أو أنهم يكررونها ويعيدونها بثوبها الأصيل ، أو بشيءٍ من التحريف . وقد لا يكون اقتباساً ، إنما الحياة هي التي أعادت نفسها ، فحكمةُ التهامي :

وكم رجلٍ أثوابُه دونَ[3] قدرِهِ ! وقد يلبس السلكُ الجمانَ الفرائدا[3]

---

(١) معجم الأدباء : ١٨/٢٨٤ .
(٢) دمية القصر .
(٣) ديوان التهامي : ١٨٢ . وهناك رواية : فوق .

تذكرنا بحكم كثيرة قديمة -تشبه ما قاله أبو نواس -ومعاصرة له ، تبيّن وضع أناس ضعيفي الإمكانية واسعي السيطرة . فقد وزن الشعراءُ الحكامَ بدقة ، وأعطوهم حقّهم بعد أن رأوا منهم تسلّط من لا يستحقّ ، وتسنُّم مقاليد الأمور من قِبَل أناسٍ لا يعرفونَ قيادةَ دفّة الحياة ، فقال أبو الفرج الاستراباذي :

ما لي أرى الدهرَ كالميزان معتلياً بناقصٍ، وبأهلِ الفضلِ مُستفِلا؟[1]

وقريبٌ من هاتين الحكمتين حكمةُ المتنبي المشهورة التي تقول :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوةِ ينعمُ،[2]

ونحن إذا قرأنا حكم العصر برزت لنا حكم أبي العلاء ، وعمر الخيام ( وكلاهما عاش في زمن السلاجقة ) إلى الأذهان، وكلاهما كذلك قريب من عصر التهامي؛ فالدنيا دارُ انتقال لا دارُ استقرار ، والإنسان ينتهي أجلُه فيها بسرعة :

حكم المنيةِ في البريّةِ جارِ ما هذهِ الدنيا بدارِ قرارِ
بينا يُرى الإنسانُ فيها مُخبراً حتى يُرى خبراً من الأخبارِ[3]

وليست الدنيا فانية عند هؤلاء الشعراء فقط ، فقد قال عيسى عليه السلام: الدنيا محلُّ مَثُلَةٍ ، ومنزل نَقَلَةٍ ، فكونوا فيها سيّاحين ، واعتبروا ببقيّة آثار الأولين . وينسب إلى الإمام علي رضي الله عنه : الناسُ سفرٌ والدنيا دار ممرّ لا دار مقرّ .

---

(١) دمية القصر : ١/٦٣٠ .
(٢) ديوان المتنبي : ٢١٨ .
(٣) ديوان التهامي : ٢٧ . والقصيدة طويلة .

ويقول التهامي كذلك في مرثيته ابنَه أبا الفضل : إن الكون طُبِع على غير ما نشتهي فلمَ نطلب منه صفوَ العيش ؟ وكلنا يعلم أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفنُ ! وليس التهامي وزميلاه المعري والخيام فقط هم الذين تبنّوا هذه الأفكار ، فالعصر كله – كما أسلفنا – عصر تشاؤم من الحياة وما حَوت، ومرحلة تفكير بالفناءِ والموت ، ونهاية للمسرّات . ومثلُ هذا قال أبو هلال العسكري في بعض زهده :

ما بالُ نفسِكِ لا تهوىٰ سلامتَها ! وأنتَ في عرضِ الدنيا ترغّبها ؟
دارٌ إذا جاءتِ الآمالُ تعمرُها جاءت مقدّمةُ الآجالِ تُخربُها
أراكَ تطلبُ دنيا لستَ تدركُها
فكيف تدركُ أخرى لستَ تطلبُها ؟(١)

لن نطيل الحديث في شواهد الحكمة ، لأن أغلبها يدقّ على وتر السوداويّة وقصرِ الحياة والإسراعِ إلى نهل اللذّات . والحكمةُ كذلك تبقى على مرّ الأيام حكمةً لا يبطل مفعولها ، ولا تنعدم ضرورتُها . وما يقوله شعراء هذه المرحلة يناسبُ زماناً آخر إذا لاءَمها الجوُّ أو أُلبست الثوبِ المعاصر . فنحن نعرف المثل السائر : « لا كرامةَ لنبيٍّ في قومه » . بل إننا نعلم هذا المثل منذ قبل بعثة الرسول الكريم في قومه ، ولم يؤمنوا به . ويجيء عصر السلاجقة – كما جاء الذي قبله – لترى هذه الحكمة أرضاً خصبة لها ، وليعبّر عنها أبو نصر الاصبهاني بقوله :

شرّق وغرّب واغتربْ تلقَ الذي تهوى، وتُعززْ أيَّ وجهٍ تشخصُ

---

(١) دمية القصر : ١/٥٠٧ .

وأرى المهانةَ في اللزوم مُخلَّةً　　إن المتاعَ بأرضِه يُسترخص[1]

وهم دمجوا الفخر بالحكمة ، وأرادوا أن يرفعوا بأنفسهم من المهاوي المُحيقة بهم . لذا طالبوا بالجد الصعب المرام ، كقول محمد بن الحسن الاصفهاني :

لا تُعطِ عينَكَ إلّا غفوةَ الحذرِ　　وصِلْ بعزمك حدَّ الصارمِ الذكرِ

ولا تكُنْ في طِلابِ العزِّ مُعتمداً　　إلّا على مركبٍ صعبٍ من الخطرِ

فما ينال العُلا إلّا امروٌ قُرنت　　آراؤه بركوب الخوفِ والغَررِ

والندبُ من لم يبِت إلّا وهمَّتُه　　في المجدِ يُسلم عينيه إلى السهرِ[2]

ولا نعلم أهيَ نفوسُ الشعراء حقاً ، أم أنها ترجمةٌ لقول المتنبي :

لأستسهلنَّ الصعبَ ، أو أدركَ المُنى

فما انقادتِ الآمـــالُ إلا لصابرِ

وقد اختصّوا بآراء هي من نبع حياتهم ومن واقعهم الذي عاشوهُ . فعمرُ المرءِ يعدّ بأيام سروره لا بالسنين التي أمضاها ، كقول جعفر بن دُرُسْتَوَيْه :

لي خمسٌ وثمانونَ سنَه　　فإذا قدّرتُها كانتْ سَنَه

إنّ عمرَ المرء ما قد سرَّه　　ليس عمرُ المرء مرَّ الأزمنه[3]

(١) دمية القصر : ٤٣٣/١ .
(٢) » » : ٤٢٣/١ .
(٣) » » : ٥٠٤/١ .

وكذا الذي يبحث عن المال – في نظرهم – سيتغاضى عن أشياء كثيرة لأنّ:

يا مرزُبانُ[1] نداءٌ من أخي ثقة :
من يعمرِ الكيسَ يتركْ عِرضَه خرِبا[2]

قد يكون قولهم هذا صحيحاً وقد لا يكون ، والمهم أن الشاعر لمس شيئاً فصوّره ، وعدّه بنظره حكمةً تستحق الاعتبار .

ولهم رأي بالصديق ، وهو موجودٌ منذ أن عرفنا أكثر من إنسان على وجه هذه البسيطة . وأغلب الشعراء تكلموا عن تجربتهم هذه ، وخير مَن قال هذا في هذا الموضوع بشار الأعمى . والصديق من « الصدق » ، ولكنهم يضيفون على صفاته الأمانةَ وحفظ السر والإخلاص . ونادراً ما اجتمعت كلها في واحد ، ولهذا اعتبروا « الخلّ الوفيّ » ثالثَ المستحيلات . ولا يُعرف الصديقُ إلا بعد التجربة ، وهذا أمر بديهي ، وإلى هذا أشار أبو الفتح الحاتمي بقوله :

إذا ما كنتَ معتقداً صديقاً فجرّبه بأحوالٍ ثلاثِ :
مشاركةٍ إذا ما عنَّ خطبٌ وإسعافٍ بعَينٍ أَو أثاثِ
وسرِّك فأْتمنْه عليه وانظرْ أيكتُمُ أَم يُذيعُ بلا اكتراثِ؟
فإن صادفتَ ما ترضى، وإلا فإن المرءَ ذو عُقدٍ رِثاثِ[3]

---

(١) المرزبان : فارسية معربة ، معناها حامي الحدود . وهي مركبة من « مرز : الحدّ + بان : الحامي والحارس » . ولفظها الأصلي بسكون الراء والزاي .
(٢) البيت لحمد الزعفراني ، دمية القصر : ١/٥٢٢ .
(٣) دمية القصر : ٢/٧٣٠ .

هذه هي أغلب آرائهم في الحياة وفي الإنسان، وهما دعامتا الحِكم التي يصبّ الشاعر فيهما تجاربه ، ولا يُؤتاها إلا من خبر إحداهما ، وقطع من العمر مرحلته العسيرة . وعلى الرغم من تجاربهم الواسعة في هـذا الميدان فقد امتدّت أيديهم إلى الدواوين والتقطت الحكم . غير أنهم ، بعد أن اقتبسوها ، ألبسوها الثوب الموائم لواقعهم ، فكان ما أوردوه عصارة تجاربهم، وخُلاصة ثقافتهم، ونتيجة اطلاعهم .. وقد جاءت حكمهم طيّ أغراضهم غالباً ، أو أرسلوها حكماً لوحدها .

أما **الزهد** ، فعَيفٌ لحياةٍ ملّوها أو استصغروهـا ، وتعلّقوا بأخرى وُعدوا بها وتعشّقوها . ولا يأتي فنّ الزهد إلا بالاحتكاك بفنٍّ آخر هو فنّ « الفجور » ، إذا سمح لنا النقاد بإطلاق هذه اللفظة على الحياة الصاخبة الناضحة بالإلحاد والتمسُّك بالمادة والملذّات والبهْرجات. وعلى الرغم من أنّ موضوع الزهد لم يروِ الغليل لقلته بين الشعراء ، ولندرة الشعراء القائلين فيه في هذا العصر ، على الرغم من كل هذا فقد حاولوا تأدية الصورة الزاهدة مقابل المجون الفاشي ، إذ حثّوا على ترك الملذات ، وحضّوا على الاتجاه نحو الآخرة الدائمة ، وكذا قال أبو الفرج القمّي :

ومَن لحظَ الدنيا بعينٍ حقيرةٍ     فقد حفظ الدنيا بعينٍ حقيقة (١)

وإذا سبقهم أبو العتاهية ، فإنهم لم يستطيعوا اللحاقَ به ، بـل لعلهم لم يفكروا بأن يبلغوا شأوه . وهم إذا « قرفوا » من الحياة ، فإن عزوفهم عنها لم يجيء بجميل الشعر المعبّر عن الزهد بها ، فلم يقولوا إلا أدعية ونداءات إلى العليّ القدير أن ينقذهم مما هم فيه من مذلّة ومهانة . قال أبو الفتح الحاتمي :

يا ربٌ أذللتَ قومـاً     يا ربٌ كُنْ لي مُعِزّا

(١) دمية القصر : ٦١٣/١ .

سمَّيتني لك عبـــداً حسبي بذلك عزّا[1]

أو أن يغفر لهم ذنوبهم، ويعفو عنهم سيئاتهم كقول أبي عبد الرحمن الأشقر:

إلهي حاجاتي إليك كثيرةٌ وأنتَ بحـــالي عالمٌ وخبيرُ
وأنتَ رحيمٌ بالبريَّةِ فاقضِهـا جميعاً ، وذا سهل عليك يسيرُ
ذنوبي ذنوبي ، حُطَّ عني ثِقلَها فقد أنقضتْ ظهري، وأنتَ غفورُ[2]

بل إنهم يقفون على العتبة المقدسة، ويستغفرون الله على خطاياهم، ويسترحمونه، ويطلبون منه العطف ، كقول الحافظ بن الفرضي :

أَسيرُ الخطايا عند بابك واقفُ على وجلٍ ممّا به أنت عارفُ
يخافُ ذنوباً لم يغب عنك غيبها ويرجوك فيها وهو راجٍ وخائف
فيا سيدي لا تُخزني في صحيفتي إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القمر عندما يصدّ ذوو القربى ويجفو المؤالفُ[3]

كما أنهم يعزفون عن ملذات الدنيا ، ويزهدون عنها ، ويحضّون على التمسك بما يوصِل إلى الآخرة ، ويمثل هذه الفكرة ابن بشران النحوي :

يا شائداً للقصور مهلاً أقصرْ فقصرُ الفتى المماتْ

---

(١) دمية القصر : ٢/٧٣١ .
(٢) » » : ٢/رقم ١٠٣٠ .
(٣) البداية والنهاية : ٣٥١/١١.

لم يجتمع شملُ أهل قصرٍ إلا قصاراهم الشتات
وإنما العيشُ مثلُ ظلٍّ منتقلٍ ما له ثبـــات[1]

وكأننا – بعد هذا العرض – لا نقرأ زهداً بل تزهّداً ، ولا نرى عابـداً يبتهل بل عبداً يدعو ، لتكون هـذه الأدعية بذرة ترفد الشعر الديني الذي انتشر وتوسّع في أواخر العصر العباسي وفي العصر المملوكي .

## ٨ – الاخوانيات والمراسلات :

لا تـَعني « قلـّة الأصدقاء » انعدامَ أثرهم ، كما لا يدلّ الحسّادُ على عـدم وجودِ مخلِصين . والفراغ الذي كان يحطُّ ثقلـَه عليهم كانوا يزجونه بالمراسلات الاخوانية والمكاتبات الشعرية . وساعد على انتشاره – بعد الفراغ – قلـّةُ من يخاطبون من كبـار الأمراء ، فراحوا يكاتبون شعراءَ ، أو يتكاتبون شعراً ناهيك عن الرسائل النثرية . ومثل هذا الغرض عادة يكون خفيفَ الظل ، سهل الأسلوب ، قصير النفس الشعري ، فنرى أن القصائد في هذا المجال كثيرة ، إلا أنها تمتاز بقصر نفَس أصحابها ، إذ لا تزيد الرسالة الواحدة عن بضعة أبيات .

أما الموضوعات التي تناولوها فأغلبها اعتذار عن تأخر الزيارة ، كما في رسالة أبي الحسن القصري التي وجّهها إلى يعقوب النيسابوري ، والتي جاء فيها :

ملّنا الشيخُ أم أَبى أن نراهُ في ظلالِ الوصالِ يَبغي هوانا ؟
إنَّ إعراضَه كسانا ، وكنّا نرتجي الاحتشامَ منه ، هوانا

---

(١) البداية والنهاية : ١٢/١٠٠ .

فأجابه يعقوب هذا متعللاً :

خدمةُ الدهخُدا[1] عليَّ علوٌّ ... حاشَ للحرِّ أن تمــلَّ مكانَهْ
غيرَ أَنَّ الزمانَ ، واللهُ يبلوهُ ، ... رمــاني بشائبــات الزّمانَه[2]

أو شوق إلى لقاء صديق ، أو في طلب استعارة كتاب ، أو إرسال تحيــة محبة ، أو تكون طلباً لشيء . فقد كتب ابن التعاويذي إلى عمــاد الدين بن الشهر زوري وهو بدمشق يتقاضاه وعداً كان وعده إياه ، وأنفذهــا إليه من بغداد :

أَلا أَبلغْ عمادَ الدين عني ... وقبِّل عند رؤيته الترابا
وصِفْ شوقي وأَهدِ له سلامي ... وأَحسِنْ في الدعاءِ له المثابا
وقُل يا خيرَ أهلِ الأرضِ نفساً ... وآباءً وأرحبَهم رحابا
بعثت أَبا الفتوح إليك فاجلس ... له وارفع لمقْدِمه الحجــابا
وزده منك إِكراماً وقُربــاً ... وأوردْه خلائقك العذابا
فقد وافاك من بلدٍ بعيدٍ ... وقد أنضى الرواحلَ والركابا
فإني قد بعثت به رسولاً ... إليك وقد ختمتُ له الكتابا[3]

(١) دهخُدا : المختار أو شيخ القرية. صاحب القرية ، دمية القصر : ١/٦٤٧ .
(٢) الزمانه : الكراهة .
(٣) ديوان ابن التعاويذي : ٥٠ – ٥١ .

وقد يُشفع الشاعر رسالته بمدحةٍ أو موعظة تَبعاً للموضوع . وبالطبع فإن المرسل إليه سيجيبه – إن فعل – بعدد أبيات الرسالة، أو تقلّ قليلاً، أما البحر فنفسه، وأما القافية فكأنها متابعة للرسالة الأولى. وهذا ما أشار إليه الباخرزي بقوله عن أبيه عندما أراد ردّ رسالة الفقيه الشجاعي : « فأجابه والدي بأبيات محذوّة على الابتداء وزناً وقافية » . غير أنهم قد يضطرون أحيانـاً إلى تغيير القافية والرويّ أو البحر أو كليهما .

وأكثر المراسلات والمكاتبات الواردة في المجموعـات الشعرية موجودة في يتيمة الدهر للثعالبي، ودمية القصر للباخرزي، وخريدة القصر للعماد الاصبهاني، وغير ذلك من هذه الكتب التي تضمّ مختـــارات شعرية كثيرة ، أو الدواوين الخاصة بشعراء العصر السلجوقي .

ويدخل في هذا الباب **العتابُ** ، فقد يترامى إلى أحدهم أن أحد الأصدقاء قصّر في حقّه ، أو تأخر في ردّ الزيارة ، أو صُدَّ دونه البـــاب . كما تُنظم القصيدة عُقيب أعتوبة تجري بين شاعرين ، كما فعل ابنُ الخياط الدمشقي الذي كتب لصديقه بعد جفوة فقال :

أمنّي النفسَ وصلاً من سعادِ وأين من المُنى دركُ المرادِ ؟
وكيف يصحُّ وصلٌ من خليلٍ إذا ما كان معتلَّ الودادِ ؟
تمادى في القطيعـــة لا لجرمٍ وأجفى الهاجرين ذوو التمادي[1]

وقد يضطرُّ الشاعر إلى المدح والثناء إذا كان هناك سوءُ تفاهم ويريد محوَه. وقد لا يكتفي بالمدح بل يعكف على إذلال نفسه وإظهار ضعفها ، حتى يؤثر في

(١) خريدة بداية بلاد الشام : ١٦٠ .

المرسل إليه علّه يلين قلبه ، كقول الحاكم أبي الفضل علي الاستراباذي في رسالة بعث بها إلى بعض الأشراف بعد أن اعتذر عن هذه الزيارة :

هجرتَ الصديقَ الفقيرَ العليلا وقلت: الذي نالَه لن يزولا
وأعرضتَ إعراضَ مستحقرٍ ومَن ذا يُجِلُّ الفقيرَ المُعيلا؟
وحدثتَ نفسك أني أموت ولن يتعدّى المنون العليلا
فتُلغى العيادةُ والاعتـذارُ إذا ستر التربُ هـذا الخليلا[1]

وقد يجري العتاب في مـا بين الأمراء . فهذا الأمير علي بن المستظهر بالله كتب يعتب على دُبيس بن صدقة :

فأشمتَّ أعدائي ، وأوهنتَ جانبي
وهِضتَ جناحاً رَيَّشتْه يدُ الفخرِ
وما أنتَ عندي بالملومِ ، ولا الذي
له الذنب، هذا قدْرُ حظي من الدهرِ![2]

هذا ، ولم تضمَّ القطع التي جمعناها في الاخوانيات والمراسلات والأعتوبات معاني ناضجة يستحق الوقوف عليها ، أفضل ممّا ذكرنا . بل لم تكن أكثرَ من كلامٍ عادي . يقوله الناس لأصحابهم ، غير أنه جاء موزوناً .

(١) دمية القصر : ٦٣٨/١ .
(٢) خريدة العراق : ٣٥/١ .

## ٩ - الوصف :

وصف الشاعر العربي باديته ، وأشبعها دقة وتصويراً . فلم يترك فيها شيئاً رآه إلا وصفه لنا وصفاً بريئاً وواقعياً . ولما انطلق من معقله متابعاً الحضارات المزدهرة المجاورة غرباً إلى الشام ، ومصر وما بعد مصر ، وشرقاً إلى العراق وفارس وما بعد فارس، تنوّع وصفُه ، وازدادت موادُّه، وحسُنت صورتُه، وتلمّعت ودقت ورقّت . ثم ما لبثت أن علتها طبقة من المغالاة .

وقد ازدانت قصورُهم بالألوان والأزهار والزخرفة، ورأوا البحار والأنهار والبرك . فوصف البحتري بركة المتوكل بقوله :

يا مَن رأى البركةَ الحسناءَ رُؤيتَها … والآنساتِ إذا لاحت مغانيها

بحَسبِها أنها في فضلِ رُتبتِها … تُعدُّ واحدةً ، والبحرُ ثانيها[1]

ووصف ابن المعتز ( وهو خليفة ابن خليفة ) ما حولَه من علائم الحضارة. وازداد الوصفُ بدخولنا العصرَ العباسي الثاني ، حيث وُلدَ الشاعر في جوٍّ لا يمتّ إلى الجزيرة العربية بصلة ، ولا يعرف عنها شيئاً إلا ما قرأه في قصائد الشعراء .

على أن الوصف ، على كثرته ، جاء أغلبُه مطالع لقصائد المديح أو الغزل ، كما أورده الشعراء على شكل قطع خاصة . وقد تجمّع لدينا عدد وافٍ من الوصف بشكل يمهّد لنا إعطاء صورة مناسبة للعصر السلجوقي من حيث الوصفُ بشتى أنواعه حتى جزئيات بسيطة من الطبيعة ، من ذلك :

**وصف الأطلال :** وصفوا الأطلال تحدّياً ، وجعلوها مطالعَ لقصائد المديح

(١) ديوان البحتري ( طبعة مصر عام ١٩١١ ) : ٣١٩ .

تماماً ، كما فعل الأقدمون . وأدخلوا وصفَ الناقة وديار المحبوبة ، والعناء الذي يلاقونه حتى يبلغوا الممدوح . ونحن عندمـــا نقرأ وصف الديار لأبي المظفر البُستي نشعر أننا حيالَ وصف الطلل الذي كنا نراه في الشعر الجاهلي ، وكأن هذا اللون أمر طبيعي :

قِف بالديارِ فنادِها بسلامِ : حُيِّيتِ من دمنٍ ورسمِ خيامِ
كانت ربوعُك للظباء أوانساً ما بالُها لنوافرِ الأرآمِ ؟
يا دارَ جيرتِنا عهدتُكِ جنّةً بنعيمِها لو دمتِ دارَ مقامِ [١]

ونفَس الشعراء في المطالع الغزلية طويل ، بحيث تبلغ القصيدة الواحدة في بعض الأحيان عشرين بيتاً . ويسعى الشاعر جاهداً إلى إيجاد مَخرجٍ من الغزل والأطلال إلى الممدوح ، وهو الذي يسمّونه « حسن التخلّص » بل إنهم أكثروا منه كثيراً ، كقول تميم بن المعز في مديح العزيز :

تروحُ علينا بأقداحها حِسانٌ حكتهُنَّ من نشرِهنّه
نواعمُ لا يستطعنَ النهوضَ إذا قمنَ من ثِقلِ أردافهنّه
حسُنَّ كحسنِ ليالي العزيز وجئن ببهجـــةِ أيامهنّه [٢]

حيث انتقل من الخمرة إلى وصف الساقيات ، إلى مديح العزيز .

وهم عندما يقلّدون أصحاب الطلل يذكرون الركاب ، وكيف أنها عاجت

---

(١) دمية القصر : ٢ /رقم ٥٦ .
(٢) ديوان تميم بن المعز : ٤٤٢ .

لتسأل الحيّ . ثم يُكثرون من ذكر إناث مرّ ذكرهن في الشعر الجاهلي كزينب وعلوة وسُعدى وجُمل إمعاناً في التقليد ، كقول نعمة الله الخطيب :

مِلْ بالرِّكابِ فقد لاحت لنا الحِللُ  لنسألَ الحيَّ من عُسفانَ ما فعلوا
أيامَ تُسعدني سُعدى وتَجملُ بي  جملٌ ،وتُنعمُ لي نُعمٌ بما أسَلُ[1]

كما يذكرون أسماء الأمكنة كعسفانَ ونجد وذاتِ الجرعاء . وقصدُهم إشعارُنا بمعرفتهم للجو البدوي ، وإظهارُ مقدرتهم على خلق مكانٍ صحراوي عربي مناسب . غير أنهم يَحشرون في بعض الأحيان ، أشياء كثيرة تُنفِّرنا من الأطلال وصفوها ، كوصف أبي منصور السمعاني :

نعيبُ الغرابِ ، ونبحُ الذئابِ  وحَرشُ الضباب،ووخدُ المطي[2]

وكما أنهم خرجوا في أغلب موضوعاتهم على منهج القدماء – بعد تقليدهم – فقد تخطّوا هنا أيضاً المنهج الكلاسيكي ليجدّدوا ، فأحلّوا الغلام محلّ المحبوبة – وأبو نواس قبلهم فعل ذلك – كما فعل أحمد المورّي الأديبي يمدح كافي الكفاة :

أطلعَ للناسِ وجهُه قَمرا  بطرفهِ قلبُ ذي التقى قمرا
بستانُ حسنٍ إن بُستَ مَبسمَهُ  بسَّم في صحن خدِّه الزَّهرا[3]

ثم إنهم في محاولتهم التجديد في وصف الأطلال-جمعوا الجوادَ والناقة معاً،

---

(١) دمية القصر : ١/٢٧٤

(٢) دمية القصر : ٢/٨٤٤

(٣) بستَ : قبّلتَ ، وهي فارسية معربة ومصدرها بوسيدن : التقبيل . دمية القصر : ١/٢٧٣

وأدخلوا في الطلل المسك والاقحوان ، كقصيدة التهامي في مـــدح بشر بن شبيب ، ومطلعها :

بكَيتُ فحنَّتْ ناقتي فأجابها صهيلُ جوادي حينَ لاحتْ ديارُها[1]

ولم ينسَوا إدخال طيف المحبوبة في الأطلال ، كما فعل أميّة الهذلي وكعب ابن زهير مثلاً . وربما زار طيف زينب – وهي محبوبة الشاعر أبي الحسن البلخي – عندما يمرُ بأطلال منازلها ، ويجدها قد انتقلت إلى مكان آخر :

أقامتْ على نأيِها زينبُ وساعَدها طيفُها الخلَّبُ[2]

أما **نسيم الصّبا**: فهو كثير الورود في شعرهم مع المطالع ، ولمَ لا يذكرونه وقد استعمله العرب في شعرهم ؟ وهو الذي ينقل السلامَ إلى الأحبّة ؟ ويحمل أرَجهم وذكراهم ؟ .وقد لا يلائم اتجاهُ نسيم الصبا الشاعرَ ، فيكتفي بأي نسيم كان . فالشاعر أبو القاسم المغربي في مصر ، ومحبوبته في حلب ، إلا أن اتجاه « نسيم الصبا » كان مخالفاً ، فقال :

يا صاحبيَّ إذا أعياكُما سَقَمي فلقّياني نسيمَ الريح في حلبِ

منَ الديار التي كان الصبا وطَري

فيها ، وكان الهوى العذري من أرَبي[1]

**وصف المدن** : نظراً إلى كثرة تجوال الأُدباء بين المدن بحثاً عن الممدوحين ، أو عن الوظائف ، أو حباً في السياحة ، فإن الشعراء وصفوها متأثرين بنوعية

---

(١) ديوان التهامي : ١٨٧

(٢) دمية القصر : ٢/٧٧١

(٣) دمية القصر : ١/١١٥

انطباع صورة المدينة في نفس الشاعر التي يحلّ فيها ، والدوافع المؤدية إلى هذا الانطباع . وكان وصفهم لها وصف ثناء أو هجاء أو لمجرد الوصف . وهم في كل الأحوال يُبرزون أهمّ ما فيها . فإذا لم يُسرّ أحدهم بواحدة ، أو لم يلق ما يبغي من أهلها كشّف سيئاتها، وضخّم في ذلك كقول تميم الغزنوي في خراسان :

خراسان اعتلى فيها الجفاءُ — وأكثر أمرِ سادتهم جُفـاءُ
نَبَتْ بي أرضُها فرحلتُ عنها — وقلت : على خراسانَ العفاءُ[1]

أما إذا وافته خيراتها ، ولقي فيها ما يصبو إليه اعتبرها جنة ، وكذلك فعل العماد الاصبهاني في وصف دمشق فقال :

دمشقُ عندي لا تُحصى فضائلها — عداً وحصراً ،ويُحصى رملُ يبرينِ[2]
وما أرى بلدةً أخرى تماثلُها — في الحسن من مصرَ حتى منتهى الصين
ترى جواسقها[3] في الجو شاهقة — كأنهن قصورٌ للسلاطين
دارُ النعيم ، ومن ادنى محاسنها — ثمارُ تموزَ في أيام كانونِ
نعيمُها غيرُ ممنوع لساكنها — كالخُلد ، والمن فيها غير ممنون[4]

أو قول رضي الدين بن المطلب في بلدة واسط ، مُدخلاً شيئاً من السخرية ، أو كما يسمى في البلاغة : الذم بما يشبه المدح :

---

(١) دمية القصر : ٢ / رقم ٥٨

(٢) يبرين : قرية من قرى حلب « معجم البلدان ».

(٣) جواسقها : مفردها جوسق : القصر ، فارسية معربة .

(٤) خريدة بلاد الشام : ٣١

للهِ واسطُ !ما أشهى المقامَ بها! إلى فؤادي وأملاه إذا ذكرا !

لاعيبَ فيها ـــ ولله الكمال ـــ سوى
أنّ النسيمَ بها يفسو إذا خطرا[1]

وقد يصف الشاعر دولة ويعني بذلك حاكمها - كما وجـــدنا ذلك في الهجاء - فقد وصف الحسن بن بركة دولة المستضيء بأمر الله ( ٥٣٦ هـ - ٥٧٥= ١١٤٢ م - ١١٨٠ ) ، يقول :

هذهِ دولةٌ تخيَّرهـــا اللـ ـهُ فدامت لنا سجيس[2] الليالي
دولةٌ روضةٌ رُباها وجادت من لُهاها[3] بوابـلٍ متوالِ
واستعادت صعبَ المقادة بالعد لِ ودانت لها قلوب الرجالِ
وأضاءت بالمستضيء بأمر اللـ ـهِ ، لا زال ملكُه في اتّصال[4]

وأغلب المدن التي حظيت بريشة شعراء السلاجقة هي :خراسان ، نيشابور ، بخارا ، مالين ، دمشق ، واسط ، حلب ، بغداد ، البصرة ، زُوزن ، آمُل ، خواف ، جيلان .. ومن عجبٍ أن نرى المدن التي يهجوها بعضهم يثني عليها آخرون . وعلى أي حال فإن وصفهم هذا بسيط وقاصر على الخبز الذي يلقاهُ الشاعر ، أو الشر الذي مُني به فيها ، مع ذكر ناحية واحدة من صفـــات

---

(١) خريدة العراق : ١/١٨٢
(٢) سجيس الليالي : امتدادها وآخرها أبداً .
(٣) اللها : مفردها لهوة وهي العطية . الوابل :المطر ،
(٤) معجم الادباء : ٩/٤٠

المدينة ،وذلك في أبيات قصار .وهي فكرة جديدة طرأت على العصر للأسباب التي ذكرناها .

ونجد بعضهم أحياناً يهجو مُسبِّب كرهه البلدة ، أو يمدح الذي أحسن وِفادته فيها قبل أن يخوض في وصفها أو بعده . وقد ذكرنا بعضاً مِن وصفها في باب الهجاء .

**الوصف الحربي :** ضمّ هذا العصر « العجيب » المتناقضات . فمن يقرأ بعض القصائد يستبعدُ بعضها . ومن علم أنهم يصفون الأمراض السارية–مثلاً –بأحسن الأوصاف اعتبر هذا العصر قمة الانحدار الأدبي . والواقع أن هذا العصر امتاز برصف الغثّ جنب الثمين. ومن نظمهم المحمود لهم لون جميل من الوصف هو الوصف الحربي. فإذا لم يمدحوا السلاطين لأنهم ما كانوا يفهمون العربية ،ولم يهتموا بها وبأدبها ، فإنهم عندما رأوهم يحاربون في سبيل الله ، أخذتهم الحميّة فوصفوا المعارك التي جابهوا بها العدو ، وخاصة المغير من البيزنطيين والصليبيين[1].فصوّروا ساحات الوغى ، وما يجري فيها من صَول وجَول . وكأننا أمام عمّورية التي دكّها المعتصم ورسم حريقَها أبو تمام ، أو أننا ننظر إلى فلول الروم يلحقُها سيف الدولة بسيفه والمتنبي بشعره .

فقد وصف سعيد بن شاه معركة ضد الروم قام بها السلطان (؟) ، فكان وصفاً حياً تنبعث منه قوّة شاعرية توازي صولةَ الفرسان المحاربين :

أسرى إلى الروم في ملمومةٍ عصَبت

فيها العجاجةُ عينَ الشمسِ بالرمدِ

---

(١) لن نخوض في الحديث عن أدب الجهاد ضد الصليبيين ، فلهذا الحديث وقفة خاصة منفردة في كتاب آخر إن شاء الله

وجاءَ كالريح يسفي الرملَ عاصفُها

فاجتاح جيشاً يوازي النملَ في العَددِ

أتراكُه بسيوفِ الهندما تركتْ للرومِ إذا رامَها رأساً على جسدِ[1]

وكأننا أمام أمثال هذه القصائد ، نقرأ « القدسيّات » التي أنشدها شعراء العصر الأيوبي في البطل صلاح الدين . والجدير بالذكر أنهم لم يكتفوا بوصف الحروب شعراً ، بل عكفوا على القراطيس ينثرون عليها أحداث الفتوح والمعارك بل انهم خطّوا لنا خططهم الحربية بنثر جيد تشوبه الصنعة والتلاعب اللفظي كقول السالار[2] محمد العقيلي :

« ورسمْنا للرماةِ رشْقَ مَن يرفع من السور رأسَه ، وللرجّالة أن ينقُبوا أساسَه ، وشُرَفُ المدينةِ بالأسنّة والنصول مُتبلّجة ، وفي جُنَن الحديد متبرّجة ، والسهام تقع فتطير ، حيثُ لا يُتوقعَ من سويداءِ قلبٍ ، وسوادِ عينٍ ، وثغرِ نحرٍ ، ومحلّ فكر .

ووقع الفراغُ من عَقْدِ الجسرِ في مدةٍ قصيرة ، وأيام يسيرة . وعبَر عليه الرّجْل والخيل ، وحلّ بالأعداءِ الثبور[3] والويل ، وقامتِ الحربُ مع المخاذيل على ساقٍ ، واستتبّ أسباب الظفر أحسن اتسّاق . والسهامُ تقع عليهم وقوع المطر من الغيم ، والزانات تنسابُ إليهم في الهواء انسياب الأيم[4] . والحجارة تجرحُ وتكسّر ، والمنايا في وجوههم تكلح وتكشّر ، والرجالة ينقبون ،

---

(١) دمية القصر : ٢/١٠٢٥

(٢) السالار : أمير الجيش : ( فارسية ) .

(٣) الثبور : الهلاك .

(٤) الأيم : الحية .

والزرّاقة [١] يحرقون ، والطيرُ فوقَ رؤوسهم تنتظر هلاك نفوسهم ... »

والذي جعلهم يهتمون بهذا الأمر ، اعتبارهم هذه الحروب جهاداً في سبيل نشر الدين ، كقول أحمد الخواري في خبر فتح أتى من بلاد الروم من قصيدة طويلة :

تريقُ على القَتلى البطاريقِ عبرةً    دماً شيبَ بالمسكِ الذي هو خاضبُه

تركتَ ديارَ الكفر يمطرُ فوقَها    سحابُ دمٍ يستنبتُ الموتَ شاخبُه [٢]

وعدّوا نصرهم نوعاً من المجال في مديح هؤلاء « القواد » لأنهم غير عرب ، وأغلب ممدوحيهم – كنظام الملك – اشتركوا في الحروب أو أمروا بها . وهم لم يكتفوا بوصف المعارك بل دخلوا بين الصفوف ووصفوا الفارس الجريء الذي استرعى انتباه المحتربين ،والناسُ جميعاً يحبون الأبطال ، وخاصة إذا كان يشبهُ من وصفه أبو المحاسن الحسين بن نصر :

من كلِّ مُلتهبِ العُرامِ مُجادلٍ

ركبَ الحصانَ كأجدلٍ في مجدلِ

شرسِ التخطُّفِ كالعقابِ المعتدي    عجِلِ التوُّصل كالظَّليمِ المُرقلِ [٣]

ولكن النصر ليس دائماً ضد الأعداء المغيرين ، أو الروم المعادين ، أو الصليبيين المجتاحين . بل يكون في سبيل إحراز نصر داخلي . ومع ذلك فإن

---

(١) تسمى الأسنة زرقاً للونها ، وقد زرقه بالمزراق زرقاً : إذا طعنه أو رماه به . والزرّاقة : فئة من الرماة ترمي النار بالسنان . والنص من دمية القصر : ٢/١١٥١ .

(٢) الشاخب : الحالب .دمية القصر : ١/١٢٥

(٣) دمية القصر : ١/١٥٩

الشاعر يؤدي خدمة لوليّ نعمته ، وشتان ما بين ذلك الوصف ، والذي نذكره الآن ! فقد مدح العماد الأصفهاني الخليفة بعد أن حاول محمد شاه السلجوقي حصار بغداد واحتلالها ثم انسحابه قبل ذلك فقال :

أضحت ثغور النصر تبسمُ بالظفرْ     وغدت خيول النصر واضحة الغررْ

للهِ جيشٌ للخليفة قاده     ربٌّ الخليفة بالميامن والظفرْ

مَجْرٌ(1) إذا جرّ القنا لا يرتضي     وجهَ المجرّة أن يكون لها مَجرٌ(2)

فوق الجياد الجُرد ما وردتْ وغىً

إلا دخيلٌ عدوُّها عنهـــا صدرْ

قد أوقدوا ناراً همُ احترقوا بها     وشرارهم متطاير بهم الشرر(3)

أما إذا كان الفارس هو نفسه نظام الملك ، الوزير العطوف عليهم ، فإنهم يصوّرونه بطل الأبطال . وصاحب السرعة الخاطفة ، والقيادة الفائقة ، كقول عميد الله الهمداني :

سما بالخيلِ من جَيحونَ حتّى     سقاها الريَّ من قلب الفرات

وعادَ لها يرومُ الرومَ قصداً     لإدراك القديم من التراتِ(4)

---

(1) المجر : العظيم .
(2) مجر : اسم مكان من جرّ الشيء .
(3) خريدة العراق : ١/٣٨
(٤) دمية القصر : ١/٥٢١

وهم إذا وصفوا المعارك والفرسان والانتصار، فمن البديهي أن يهتمّوا **بالعتاد** الحربي . كقول الأمير الفارسي علي بن محمد الصُّليحي:

أقولُ إذا باهوا بجرِّ الذلاذل : لباسيَ درعي، لا لباسُ الغلائلِ
وسرجي فراشي ، والحُسامُ مضاجعي
وعدّةُ حربي لا ذواتُ الخلاخلِ(١)

وقد وصفوا السيف وصفاً موفقاً ، ونكاد نؤمن بتفوّقهم على سابقيهم للدقّة المتناهية التي أولوها أثناء هذا اللون من الوصف . فالسيفُ عادةً هندواني أو يماني ، وقاطع ولامع ،أما في شعرهم فهو برّاق يشقّ الدرع الحديديّة ، ويفتّت الحلق ، من ذلك قول محمد بن وشاح :

وذي رونقٍ ما الدرعُ منه بجنّةٍ ولا الزرد الضافي عليه كفيلُ
يسيل الفرندُ في حفافيْ غِرارهِ كما مُهجُ الشجعان منه تسيل(٢)

ولعلّ ابن وشاح هذا من المهتّمين بوصف العتاد الحربي ، إذ له قصيدة يصف فيها الرمح بكل دقة ، منها :

وأسمر هزهازٍ كأنَّ كعوبَه
عواصي رضيخٍ من نَوى العَسبِ صُلَّب
قويمُ أخي عشرينَ لا الطيشُ شانه ولا قِصَرٌ أزرى به في المركَّبِ

---

(١) دمية القصر . ٥١/١
(٢) « « : ٣٨٠/١

كأن الهوى والوجد حقّاً سنانُه فما حلَّ إلا في فؤاد محجَّبِ[1]

يطيعُ مجالاتِ الطعانِ تصرُّفـاً

بكفّيَّ في اليوم الغماس العصبصب

كأني ، وقد أوردتُه مهجَ العِدا أشير اليها بالبنان المخضب[2]

ولقد تأثر هذا العصر بالشعر الحربي كثيراً ، وهذا ما جعل هــذا العصر يمتازُ عن غيره بشيء جيد ، ويعتبر فاتحة خير . ولقد أصابَ أسلوبَهم شوقٌ إلى استخدام ألفاظ حربية في غير مقامها ، تصنُّعاً منهم أو تطبُّعاً . فقـال التهامي :

يرمي الكتيبةَ بالكتاب إليهم فيرونَ أحرفَه الخميسَ كفاحا

من نقشِه دُهماً ومن ميماتِه زرَداً ، ومن ألفاته أرماحا

وكذا الأمر في النثر ، فعندما أراد الباخرزي التعريف بالسالار محمد العقيلي في دمية القصر ، استعار الأدواتِ الحربية للتعريفِ به ، فقـالَ : « الذي تتقصَّدُ لأنبوب قلمه أنابيبُ الرماحِ ، ويتثلَّم لغربِ لسانه غروب الصفاح »

**وصف الطبيعة :** من أبرع الأغراض الشعرية التي أجادهـا شعراء العصر السلجوقي الوصف ، ووصف الطبيعة منه بوجه خاص . بحيث أننا قلّما نجد ديواناً لا يضمّ باقة من الأزهار ، أو مجموعة من الأثمار ، أو صوراً لنهر أو بحر

---

(١) دمية القصر : ٣٨١/١

(٢) « « : ٣٨١/١

أو أمسية . والذي لاحظناه أن وصف الطبيعة جاء مطالعَ لقصائد مدحيّة ، بعد أن عزف بعضهم عن الأطلال ، وأراد أن يجدد في المقدمة الشعرية . ذلك أن الشاعر كلّ همه أن يقدّم مديحه بشيء يجذب به الأسماع ، ويوجّه الأنباه ، فإن لم يجد نسيباً جاء بخمرية او شعر من الطبيعة . ولم يكن ذلك كله تجديداً كما هو معلوم ، فمسألة هجر الأطلال معروفة منذ القرن الثاني ، والشعراء الذين وصفوا الطبيعة قبلهم كثيرون كالبحتري وابن المعتز وابن الرومي والصنوبري .

والطبيعة التي أخذت بألبابهم هي المُزدانة بأبهى الأزهار ، والضاحكة المتراقصة مع هبات النسيم ، وخاصة إذا كانت الطبيعة مطلعاً لمديح. فعندما أراد محمد بن الحسن البحاثي أن يمدح العميد أبا علي محمد بن عيسى قدّم لذلك بنشر من العبير يفتح الفؤاد لسماع ما يلي ، فقال :

اكتستِ الأرضُ وهي عُريانَهْ ... من نَشرِ نَورِ الربيعِ ألوانَهْ
واكتنزتْ بالنبات وانتشرت ... حينَ سقاها السحاب ألبانَه
فالروض يختالُ في ملابسه ... مُرتدياً وردَهُ وريحانَه[1]

وما احلاها صورةً تلك الروضة الزكية التي قدّمها منصور بن محمد الأزدي ، فقال :

روضةٌ غضّةٌ عليها ضباب ... قد تجلّتْ خلالها الأنوارُ
فهي تحكي مجامراً مُذْكيات ... قد علاها من البخور بُخار[2]

---

(١) دمية القصر : ٢/١٣٦٧

(٢) معجم الأدباء : ١٩/١٩٢

ونحن إذا وجدناهم في مجـــالات أخرى تـعلو محيّاهم الكـآبة ، فلن نراهم يُشر كون الطبيعة بأوجاعهم وأتراحهم ، ولا يرقـصون الأغصان مع أفراحهم ، فلا مطرحَ للرومانسيّة الحية في طبيعتهم. ولقد أحبّوا الربيـع فخصّوه بوصفهم لمـــا يضمّ من شتى الألوان . ولم يهتموا للخريف ولا لانقباضه ، ولو فعلوا لدنـَوا من الرومانسيّة التي ترفع من شعرهم إلى مرتبة سامية . ولكنهم وصفوا الطبيعة وصف مأخوذ بها ، كقول ابن أبي زرعة في وصف الربيـع :

وقد أخذتْ زهرُ الرياض حُليَّها وألبستِ الأرضَ الفضاءَ الزخارفُ
لُجينٌ وعِقيانٌ ودرٌّ وجوهرٌ تؤلفُه أيدي الربيع اللطائفُ (١)

وهم إذا أرادوا وصف الصبـح المنير – وهو بهيـج بطبيعته – أقبلوا عليه لأنه في نظرهم يُميت الليل البهيم ، ويعيدُ الأنسَ والبهجة إلى الحياة ، قال أبو الفرج الموفقي :

تنسَّم ٱلصبحُ في الآفـــاقِ من فلَقِهْ
وماتَ جنحُ الدُّجى عجلانَ من فرَقه
وصفّق الديك أُنساً بالذي لقيتْ
عيناهُ في دُهمةِ الاظلامِ من شفقه (٢)

ويقلّ في شعرهم وصف الأنهار والبحار ، ولعلّ من أجمل ذلك ما وصفه أبو القاسم المغربي وهو في مصر ، فقال :

---

(١) دمية القصر : ١ / ١٩٦
(٢) » » : ١ / ١٨٥

ولقد أراهُ في الخليـ ج ِ ، يشقه من جانبيهِ
والنهرُ مثلُ السيفِ وهْـ وَ ، فِرِنْدهُ في صفحتيهِ [1]

ويصف ابنُ شبلِ السفن ( الزبازب ) وهي عائمة في دجلة فيقول :

زبازِبُها على الأمواجِ تحكي عقاربَ فوق حيّاتٍ تطيرُ
تلوحُ كقطع ليلٍ في صباحٍ كما لاحتْ على الطّرس السطورُ [2]

ثم هم ، إذا وصفوا الطبيعة جملةً ، أمعنوا بجزئيّاتها وصفـاً ، فنراهم يُكثرون من وصف الأزهار والأثمار كثرةً تسترعي الانتباه ، ولعلّ ذلك راجع إلى حقول الفواكه ورياض الأزهار المتتابعة في المشرق ، فقد وصفوا الرمّان كقول عبد القاهر الجرجاني :

خذوا صفةَ الرّمان عني فإنّ لي لساناً عن الأوصاف غير قصيرِ :
حقاقٌ كأمثالِ الكَراتِ تضمَّنتْ فصوصَ بَلَخْشٍ في غشاءِ حريرِ [3]

ووصفوا الأترجّ ، قال أثير الدين :

أمسيتُ أرحم أُترجّاً ، وأحسبُه ،
لصفرةٍ فيه ، من بعض المساكين

---

(١) دمية القصر : ١٢٦/١
(٢) » » : ٣٦٣/١
(٣) الحقاق : ج حقة ، وهي وعاء خشبي . الكـرّات : بقل ، وهي هنا مخففــة الراء . البلخش : نوع من الحجر الكريم اسمه الياقوت وهي معربة ( دمية القصر : ٥٧٨/١ ) .

عجبتُ منه ، فما أدري أصفرتُه
من فُرقة الغصن أو خوفِ السكاكين؟[1]

وغير ذلك من الفواكـه كالمشمش والقراصياء والخوخ . ويعدّ النرجس من الأزهار التي أولاها الشعراء عنايتهم . ونعتقد أن ذلك راجع إلى اللونين اللذين يجتمعان في هذه الزهرة ، فاستغلوهما لفظـاً ومعنى ، ويبرّر ذلك قول أبي الفتح الهروي :

ونرجسٍ غادرني ما بين عُجْبٍ وعَجَبْ
كطبق من فضـــةٍ عليه كأس من ذهب[2]

ووصفوا النيلوفر . قال الطغرائي :

ولِينوفرٍ أعناقُهـــا أبداً صُفرُ كأن بهسكراً وليس به سكرُ
إذا انفتحت أوراقها فكأنها وقدظهرتأوراقه البيضوالصفرُ
أناملُ صباغ صبغن بنيله وراحتُه بيضاءُ في وسطها تبرُ[3]

كما ذكروا البنفسج ، من بين جزئيات حقولهم الواسعة الضاحكة ، قـــال منصور بن محمد الأزدي :

طلع البنفسجُ زائراً أهلاً به من وافدٍ سرَّ القلوبَ وزائرِ

(١) خريدة العراق : ١/١٥٣
(٢) دمية القصر : ٢/٨٥٥
(٣) ديوان الطغرائي : ١٢٣

فكأنما النقّاشُ صوّر وسْطَهُ في أزرقِ الديباجِ صورةَ طائرِ[1]

ويعجبون كذلك بزهرة الجلّنار ( زهرة الرمان ) ، لِما في ألوانها من جاذبية للشعراء تماماً كالنرجس . كقول مهيار بن مرزويه :

وجلّنارٍ مشرفٍ على أعالي شجَرَه
كأنّ في رؤوسه أحمرَه وأصفرَه
قُراضةٌ من ذَهبٍ في خِرقةٍ مُعَصْفَره[2]

أما الأطيار فقلما نراها تشدو في أشعارهم ، والأفلاكُ نادراً ما تسبح في ملكوت وحيهم . فلا نجد فاختةً تحطّ على صدر بيتٍ ، ولا بلبلاً يترنّم برويِّه ، ولا نجمةً تمورُ ، ولا قمراً يدور . أما الحمامة ، فهي أنيسة أغلب الشعراء ، ثم هي صاحبة التجاوُب اللصيق بالنفس الانسانية . ألم يبُح أبو فراس (وهو بطل) بمكنون آلامه لها ؟ ألم يناجِها قيس باسم ليلاه ؟ فلا غرابةَ إذاً أن نجد الحمامة تتطاير فوق أحلام الشعراء ، وتتجاوب مع أتراحهم . فاسمع قول أثير الدين عبد الله بن عميد الدين :

وورقاء تندبُ فوق الغصون على نفسها خوفَ قنّاصِها
وأشجى بُكاها على نخلةٍ تذكّرها كرب أقفاصها[3]

هذا ، وقد كانت ألفاظهم في وصف الطبيعة ليّنة سهلة ، متناسبة مع

(١) معجم الأدباء : ١٩/١٩٢
(٢) دمية القصر : ١/٣٠٥ ، والقطعة غير مذكورة في ديوانه .
(٣) خريدة العراق : ١/١٥١

الموضوع البهيج الذي يعالجون ، غير أنهم لم يأتوا بما هو جديد إلا الاكثار من أوصافهم .

شيء آخر نلمسه في وصف الطبيعة لدى شعراء هذا العصر – ولدى سابقيهم أيضاً – ، هو أنّ المتعة التي وجدها الشعراء في وصفهم الطبيعـة جعلتهم يتهافتون عليها ويولجونها كلّ غرض ، ويستخدمونهـا مفتاحاً لكل حديث . فالتغزل بالحبيب يطيب تعبيرُه إذا أُشرك بالطبيعة الجميلة « الضاحكة »، كقول سليمان الطائفي :

كأنّ الغمامَ لها عاشقٌ يُساير هَودَجها أينَ سارا
وبالأرضِ من حبّها صُفرةٌ فما تُنبتُ الأرضُ إلا بَهارا[(١)]

والنرجس والبنفسج يذكـّران الشاعر بحبيب أبيض البشرة ، زرّقت خدودَه قـَرَصاتٌ معبّرة عن الشوق ، كقول ابي الحسن العلوي :

هذا البنفسجُ قد بَدا يحكي لنا بينَ الرياضِ
في خدِّ أحورَ شادنٍ آثارَ قرصٍ في البياضِ[(٢)]

وحديث الطبيعة والمحبوب عديدٌ متشعبٌ ، لا تحصره أسطر ، ولا يكفيه شاهد. فالتفّاحُ أحمرُ كخدود الحبيبة ، أو هي كشقائق النعمان. والرمان الأسود « كثدي بكر من بنات الزنج » ، كقول أبي الفتح الهروي :

وشادنٍ ناولني بغُنجِ طيِّ فراشٍ وهزبرِ سرجِ

(١) دمية القصر : ٩٢/١
(٢) » » : ٥٢٤/١

غصنٌ على دعصِ نقاً[1] مرتجٌّ   رمانــةٌ سوداءَ قبلَ النضجِ

كثديِ بكرٍ من بنات الزنجِ

والخصرُ غصن بان ، والحلو غزال ، والتصاق الخد بالخـــد شبيه بانضمام الرياض إلى الغدر ، والذوائب عناقيد عنب متدليــة ، كقول أبي الحسن نصر المَرغيناني :

ذوائبُ سودٌ كالعناقيدِ أُسبلتْ   فمن أجلها منها النفوسُ الذوائب[2]

إلى غير ذلك من عذب الأوصاف والتشابيه ، ممّا لا تملُّ الأنامل وصفَه ، ولا تحيد الأسماع عن الإصغاء إليه .

والطبيعة تسرّبت كذلك إلى المدح ، وكدنا نقول إنهم تغزلوا بالممدوح عن طريقها ، فخطُّ الممدوح موشّى كزركشةِ الأرض أوانَ الربيـع ، كقول أبي الحسن الواحدي :

إن الربيعَ بحسنهِ وبهائهِ   يحكيهما خطُّ الرئيسِ أبي عمرْ

فكأنه في الدرجِ يرقُم كاتباً   وَلِيٌّ لطافُ بنانِهِ فتقُ الزهرْ[3]

ووجهُه كالقمر ، وكفه كالنهر ، وخيره كالبحر . وجميـلٌ أن يكشف الشاعرُ لممدوحه مدى ما عانى حتى تيسّر له لقاؤه . فقد تخطّى الليل المظلم

---

(١) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب المجتمع . النقا من الرمل : القطعـــة ، دمية القصر : ٢/٨٥٣ .

(٢) دمية القصر : ١/٦٦٦

(٣) » » : ٢/١٠١٨

والبرق الخاطف والقطر المنهلّ لينال جداه، كقول أبي القاسم عمر الخلال من مديح:

ولكَم قطعتُ إليك من ديمومةٍ نطفُ المياهِ بها سوادُ الناظرِ[١]

وأكثر ما يكون هذا الكلام في المطالع الغزلية ، فإذا كانت قديماً تجديداً في الشعر ، فهي في هذا العصر تقليد. والمدائح التي يرسلها بعدئذٍ أشبه بالأزهار وهي تزفّ عبيرها ، كقول أبي غالب الراوستاني :

سأشكُرُ ما أوليتني بمدائحٍ تَضوعُ كنشرِ الروض غبَّ سماءِ[٢]

حتى **الهجاء** دخل محراب الطبيعة ، وقطف منه القاطفون شيئاً ؛ شيئاً كالشوك يرمي به عدوَّه ، أو شيئاً يستلهمُ به صورةً ساخرة لمهجوّه . أليس مضحكاً وباعثاً على السخرية في آن واحد تشبيه عبد القاهر الجرجاني :

قـد كانَ كالظبيِ الغريـ ـرِ ، فصارَ كالقردِ المذنَّبْ

وجـهٌ كجوزِ الهندِ في ذقنٍ كليفِ الجوزِ أهْلَبْ[٣]

أما في الأغراض الأخرى فتقلّ الصلةُ بينها وبين الطبيعة ، لعدمِ وجود تناسب بينها وبينها .

**أوصاف عامّة** : ليس ما ذكرنا آنفاً هو كلّ ما وصفوا ، فهناك أشياء كثيرة استرعت انتباههم ، خاصةً ما لمسوهُ في حياتهم . فمن أهم ما أولوهُ

---

(١) دمية القصر : ٣٣٨/١

(٢) » » : ٤٤٩/١

(٣) الهُلب : الشعر كله أو ما غلظ منه ، والأهلب : ذو شعر ( دمية القصر: ٥٨٤/١ ).

عنايتهم **القلم** : فمع أنه لم يكن وصفه جديداً عليهم ، فقـــد أكثروا فيه ، لأنه سلاح الكاتب والشاعر والوزير . وقد يطيلُ الشاعر في وصفه ويجيد،وربما اتجه إلى الألغاز في تعبيره تفنُّناً.ومن أهم المعاني التي أسبغوها عليه أنه كالثعبان الأرقش مدادهُ سمّ وعسل . كقول أبي الفضل الجرباذقاني :

وأسمرَ مشحوذِ الغِرارِ كأنّمـا شَباهُ إذا ما هزَّه غربُ مُنصُلِ
وما هو إلا كالأفعوانِ ، فسمُّه وتِرياقُه كالمضمرِ الغلَّ والولي[1]

ثم هو أهيف ناعم ، يحيـا إذا ذُبح ، وينزف الدموع بلا عيون ، ويلعب بالرقاب ، ويكسب العطايا ويُطاع ؛ يعدل ويجور ، أصمُّ أخرس ، ولكنه فصيحٌ للقضايا ، كقول علي الباسَفري :

وهيفٍ من بناتِ الماء مُلسٍ رقيقاتٍ حواشيهـا سبايا
كُسينَ وهنّ أنضاءٌ دقاقٌ جلودُ الأرقميَّة والعظـايا
إذا ذُبحت أرَنّتْ ثم عاشَتْ ولمّا تدرِ ما غُصصُ المنايا[2] ؟

وأغلب ما يأتي وصف القلم مطلعاً لمديح ، خاصة إذا كان الممدوح يجمع السيف والقلم معاً . ومن أشهر الأوصاف قصيدة منصور بن مكان الطويلة في مديح نظام الملك ، والتي منها :

---

(١) دمية القصر : ١/٤٧٠

(٢) النضو : المهزول من الإبل ، وجمعهـا أنضاء ، العظاية ، دُويبّة كسام أبرص ( دمية القصر ، ٢/١١٨٠ ) .

يسيرُ ويسري للأصادقِ والعِدا وعند الرضى يُنجي وفي السخطِ يُهلِكُ

ويزدادُ بأساً بالنحول كأنما يعدُّ نَهيكاً[1] كلُّ من بات يُنهكُ

كما وصفوا الخيل ، ولكنهم قلما وصفوها لذاتها ، وكثيراً ما وصفوها مطالع للمديح أو ضمن أوصاف الجيوش . قال أثير الدين عبد الله بن عميد الدين :

وأدهم كالليل ، لما بدا مسيره والصبحُ قد أقبلا

ودَّعه الصبح بتقبيلةٍ ما بين عينيه وقد طوّلا

والبرقُ إذ خجَّله عدْوُه حجَّل منه كل ما أقبلا[2]

حيث يصفونها بعناية في الأسلوب وفي المعنى . وقد يستغلونها في الفخر والاعتزاز في الحرب ، كقول منصور بن ممكان :

وأعلمُ أن العزَّ في سرجِ سابحٍ متى فرَّ من ذلٍّ فما هو مُدرَكُ

يطيرُ متى قرّطتَهُ من عِنانهِ بصِلٍّ[3] تراهُ دائباً يتحركُ

إذا وطئَ الصخرَ الأصمَّ أطَنَّهُ بقعبٍ يسمّى سُنبُكاً وهو مِدوَكُ[4]

ينشّطهُ السيفُ الذي أنا أنتضي ويُطربُني الفأسُ[5] الذي هو يعلكُ

---

(١) النهيك : الشجاع والقوي .

(٢) خريدة العراق : ١٥٢/١

(٣) صلّت الإبل صليلاً : يبست أمعاؤها من العطش .

(٤) السنبك : طرف الحافر . المدوك : حجر يسحق به الطيب ويسمى الصلاءة ، أطنّ : أراح .

(٥) فأس اللجام : الحديدة القائمة في الحنك ( دمية القصر : ٢٥١/١ ) .

ولم يكتف الشعراء بوصف المعالم الجميلة ، بعد أن أشبعوها وصفاً ،بل عكفوا على المبذول من الأشياء المحيطة بهم يصفونها ، ويُولونها العنـاية الجمّة الدقيقة ، في حين أنها لم تكن تسترعي انتباه القدماء . **فالشّمعة** : من أكثر الأمور التي نعتهـا الشعراء .والفارسي بطبعه يتأثّر بالشمعة والفراشة بشكل خاص . لذا أقبل عليهما أهل فارس وخراسان ، واعتبروهما مؤنستيهما ومسلّيتيهما . قال أبو سعيد البُستي في الشمعة :

وما لي أنيسٌ سوى شمعةٍ تُساعدني في البكا والسهرْ

فأدمعُهـا ذهبٌ ذائبٌ ودمعي عقيقٌ إذا ما انحدرْ[1]

وقد تألـّم الشعراء لحالِ الشمعة الصفراء التي تُذيب روحها من أجـل نـُظـّارها ، كقول أبي محمد الدوغي :

وباكياتٍ قصرَ الأعمارِ بأدمعٍ صُفرٍ لها جوارِ

إذا امتطتْ مراكبَ النُّضارِ وبرزت لأعين النظّارِ

عادظلامُ الليلِ كالنهارِ[2]

وكم استغلـوا وصفها في باب الأحاجي والغزل ، ولم لا ؟ وهي سفيرةُ النور في الليل البهيم ؟ وكاشفةُ الظلمة ، ورفيقةُ المرءِ في نصفِ حياته ؟ إلا أن معانيهم كلها انصبّت على احتراقها ، وانسكاب دموعها. وقد أتبعوا **المسرجةَ** بالشمعة ووصفوها كذلك ، كقول أبي الفرج بن هندو القُمّي :

(١) دمية القصر : ٢/رقم ٥٤

(٢) « « : ٢/رقم ٧٥

ناظرةٌ من شفتَيها بهــا قــد أبعدتْ عيني ولم تُبصرِ
إن يسقِني الكأسَ نديمي أنَمْ وهــذهِ إن يسقِها تسهرِ [1]

وكأن نفوس الشعراء في ذلك العصر رقيقة ، فنراها تعطف على لون الشمعة الأصفر ، وعلى دموعها المنسابة . كما نجدهم يتألمون لحال الناعورة التي تئنّ وهي تدور ، وكأن آنيتها مصابة بمحن القدر فأرسلتْ تأوهاً يعبّر عن أساها . وهي صورة نفسية تزيح ستاراً ثقيلاً عن نفوسٍ أرّقها الإهمال ، وأقلقها الضجر ، فاستمالت المستضعفاتِ إليها ، وراحت تعطف عليها ، وترسُمها بريشة أُنَنة[2] ، فانظر إلى وصف أبي الفرج الموفقي :

ناعورةٌ تحسب في صوتِها متيّماً يشكو إلى زائرِ
كأنما كيزانُهـا عُصبةٌ صِيبوا بريَب الزمنِ الواترِ
قد مُنعوا أن يلتقوا فاغْتدى أوَّلُهم يبكي على الآخرِ [3]

ونجدهم يصفون أموراً تافهة ، كوصف حمّام فقال فيه الأمير الحاتمي :

وحمّامنـا مثلُ الشبابِ مزاجُه ومن ذا يؤدي للشبابِ معانيهِ
حكى العدنَ طيباً والجحيمَ حرارةً وخدّامه حورٌ تَليهم زبانيهِ [4]

---

(١) دمية القصر : ١/٦١٦
(٢) الأننة : كثيرة الأنين .
(٣) الكيزان : مفردها ( كوز ) ، وهي فارسية تلفظ ( كوزه ) ، إناء فخاري ذو قبضة أصغر من الجرّة ، ( دمية القصر : ١/١٨٥ ) :
(٤) دمية القصر ، ٢/٨٥٦

أو درّاعة بالية ، كقول أبي سعد الكاتب :

لي درّاعةٌ امحّتْ فصارتْ ثُقَباً كلُّها كغربال ناسِف
أنا شمسٌ تضيء أفلاكَ فضلي غيرَ أني من ثوبِيَ الرثِّ كاسِف[1]

وهم وصفوا الجرب وامتدحوه !! وهو هوَ ذلك المرض العضال الكريه الذي يخافه الناس . ولكنهم يحاولون تحبيبه إلينا حتى ليكادُ من لا يعرفه يشتاق إلى الإصابة به . وقد قال فيه أبو الفضل الدمشقي :

رآني الدهرُ في فضلي سمــاءً فأطلعَ ذي الكواكب فيَّ حبّــا
وكفَّ بها يدي عن كلّ وغدٍ يقبّلُ ظهرَها وكساهُ رعبا[2]

ولم يكن الجربُ وحده من الأمراض التي امتدحوها ، فهناك النقرس أيضاً. ومع أن هذه الأوصاف تافهة وبسيطة إلا أنها تعطينا صورة حيــة لأحوالهم الاجتماعية وأنواع أمراضهم . وكثرةُ امتداحهم هذه الأمراض دليل شيوعهــا بينهم !.

بهذا نكون قد أوضحنا الملامح الوصفيّة التي اهتم بها شعراء العصر السلجوقي ، وعرفنا من ورائها أنهم – كعادتهم – أكثروا في أوصافهم ، ونوّعوا ، وعمّموا ، وجزّأوا . غير أنهم لم يأتونا بالجديد ، وما ذلك إلا لأنهم يحـاولون أن يسيروا على نسق أسلافهم في الشكل والمضمون ، وكما هو بديهي ، فإن مبتدع الفكرة هو صاحب قصب السبق في كل شيء .

---

(١) دمية القصر ، ١٠٨١/٢
(٢) » » ، ١٨٢/١

**١٠ – الحياة اللاهية :**

مجـــالسُ ترقصُ القضاةُ بِهـــا    إذا انتشَوا في مخانقِ البرمِ

فإذا كان مجلسُ المهلبي وزير الخليفة المطيع الذي عاصر البويهيين ، وسبق السلاجقة ، والذي يضمّ كبار قضاة البلدة وأعيانَ أعيانِ الدولة يرقصون ويخمرون – كما قرأتَ في البيت – ولم يستتروا – وهم الخاصّة ونبراسُ الشعب وهديه ، فلا عجب إذاً أن يسريَ الانحلال الخلقي في المجتمع ، ويبوح به الشعراء ، أليس الشعراءُ من هذا المجتمع ؟ أليسَ الناسُ على دين ملوكهم ؟ بل إن الخليفة القائم بأمر الله ( ت ٤٦٧هـ ) الذي حمـــاه طغرلبك ونصره قال متغزلاً :

القلب من خمرِ التصابي منتشِ    مَن ذا عذيري من شرابٍ معطشِ؟

جُمعت عليَّ من الغرام عجائبٌ    خلَّفن قلبي في إسار موحشِ

خِلٌّ يصُدُّ ، وعاذلٌ متنصّحٌ    ومُعاندٌ يؤذي ونمّامٌ يَشي (١)

لقد كان لهذه الحياة اللاهية أثرها الكبير في سيرة الأدباء وسيرورة أدبهم . فتراءت اللذات لهم في القصور مع الأمراء ، وفي الحانات والحواري ، وبالمال الكثير المُغدق عليهم ، وبحضارة صاخبة تمجّ بنزق الجنس ، واعتلاج الإلحاد في النفوس . فليس من الصعب ، والحالُ العامة هذه ، أن يتمثلوها في شعرهم .

لن يستوقفنا – حتماً – مستوقفٌ ، ويقول لنا : إن حياتهم لا تقلّ عن حياة سابقيهم كبشار ووالبة وأبي نواس، وابن الحجاج ، وما هؤلاء إلا خلفاء

(١) خريدة العراق : ١/٢٣

مخلصون لأولئك ، لأنه يعلم أن الأمر لم يكن بهذا الانتشار ، وأن الأسلاف كانوا يصوّرون بيئات خاصة ، وشاذّة أحياناً ، لحالاتٍ فردية تقريباً . أما أدباء عصر السلاجقة وما بعده ، فهم يرسمون أجواءَهم العامة ، والعاديّة غالباً ، ويُبرزون انحلال شخصياتهم ، ومَن سار على خلاف ذلك عُدّ شاذاً .

ولقد صوّر الأدباء حيواتهم بشتى مناحيها ؛ وصفوا المفاسد في القصور ، وعرضوا مجالس الأنس الخليعة ، والحانات التي يفِدون عليها . ولم يختصّ شاعر منهم بناحية ، فكلهم شربوا – أو تصنّعوا – وكلهم تغزلوا بالجواري والغلمان تغزلاً مادياً . وكلهم أيضاً فحّشوا بالقول لمجرّد التندّر والمداعبة . ولهذا رزَمنا هذه الأغراض ضمن حزمة واحدة بعنوان « الحياة اللاهية » لأنها ، بمجموعها ، تُعطي صورةً حيةً لحياة الحضارة التي انغمسوا فيها ، خاصة وأن الشعر الذي قاله الشعراء في هذا الباب يفوق جميع الأغراض بعد المدح .

**١ – الغزل :** لقد كانت قصائد الغزل كثيرة جداً ، لدرجة أن مُطالع دواوين هذه الفترة قلّما يعثر على شاعر لم يُدلِ بدلوه في مضمار الغزل . ونحن إذا ما قارنّا قصائد الغزل في هذه المرحلة بغيرها من المراحل السابقة ألفَينا أن الأخيرات ضاهأنَها وفُقنها كيفيّةً ورقّة وعذوبة . ولعل مردّ ذلك إلى أنه لم يقُل شاعر قصيدةً إلا كان الغزلُ طريقَه ، صادقٌ هذا الشاعر أو غير صادق ، بل إن أغلبهم غير مخلص لأنهم يريدون مجاراة العصر الذي هم فيه ، وبضاعةُ هذا اللون رائجة ، أكان مطالعَ لمدح أو عتابٍ أو هجاءٍ أو مقطّعات تُنثر في وجوهِ الغانيات ، وتترنّم بها المطربات ، حتى الشعر الذي قاله بعض الخلفاء العباسيين كان غزلاً مادياً ، وهذا ما حدا بالغزل على أن يكون وصفاً بحتاً ، لا يصلُ إلى الأعماق ، بل يدغدغ خدود العذارى ونهودهنّ ، وخصور الجواري وعيونهنّ ؛ فأهدابهنّ قاتلة ، ومباسمهنّ عذبة ، وأسنانهن لآلىء ، كقول علي بن حسان :

ومبسمٌ عذبٌ حكى لؤلؤاً        مركباً في سَفَطٍ من عقيق[1]

ووجوههن أقمار ، لا بل « ظلموهُ إذ سمّوهُ قمراً » .

فالغزل في هذا العصر ، بناءً على هذا ، كلامٌ إمّا ليس له جذور في نفس الشاعر أصلاً ، وهو الذي ورد في المطالع الشعرية كلها ، وإما له جذور آنيّة ، كأن يلقى الشاعر جارية حسناء ، فيصف من محاسنها ما يرى ، أو يتخيل ، وينساها حالما ينفضّ المجلس ، وإما أن يكون عاشقاً فعلاً وتكون العاطفة هنا نابعة من القلب . إلا أننا لا نستطيع أن نحكم على الأخير حكماً جازماً لضياعه مع غيره من ألوان الغزل الأخرى ، ولأن شعراء هذه الفترة لم يُترجم لهم الترجمة الوافية بحيث ذكر الأدباء أن فلاناً عشق فلانة ، وقال فيها هذا الشعر... وإذا كان كتاب « الأغاني » – مثلاً – صريحاً في هذا الموضوع ، بأن أشار إلى حبّ الشاعر ، وشرح مدى العلاقة التي جرت بينه وبين حِبّه ، وكم من القصائد كتب فيها ، وبثّ لواعجَه في طيّاتها ، إذا فعل كتاب الأغاني هذا فللمنهج الذي اختطّ المؤلف في تأليفه ، أما كتب عصر السلاجقة فقد جاءت مجموعات بل مختارات بل مقتطعات .. تعطي صورة غير كاملة .

ومع أننا لمسنا في شعرهم حباً وصدّاً ، جفاءً ووجداً ، ونعيب غراب ينذر بفقدان الوداد ، محاولين في ذلك كله أن يعبّروا عن هُيامهم وصبابتهم ، إلا أن علائم اصطناع الغزل تظلّ بادية ، ولغة التكلف تبقى واضحة . فها هو المظفر الجرجاني يودّع ويبكي :

رحلَ الأحبَّةُ في الفراقِ        فبكيتُهم بدَمِ المآقي

---

(١) دمية القصر : ١/١٠٣ .

مــا مُتِّعوا إذ ودّعوا إلا بوجــدٍ واشتياقِ
اللهُ يعلمُ مـا لقيـ ـتُ من الفراقِ وما ألاقي[1]

وإذا انعدمت العاطفة من قلوبهم، فإن نظرتهم امتازت بـ «قَرصٍ وعضّ» مؤلميْنِ ! وهذا دليل النظرة المادية الصريحة، كقول تميم بن المعز صاحب مصر :

واللهِ لولا أن يقالَ : تغيَّرا وصَبا، وإن كان التصابي أجدرا
لأعدتُ تفّاحَ الخدودِ بنفسجاً لثماً، وكافورَ الترائبِ عَنبرا[2]

ومهما حاولوا أن يكونوا رقيقين مع رفيقاتهم، فإن علائم الخشونـة تبقى جليّة، لأنهم لا يخافون عليهنّ . وكيف يخافون ووصلُهنّ ضالّتهم فقط؟!.. إلا بعض الشعراء فإننا نجد رقـّةً في شعرهم المادي، كقول تميم الطائي :

وإنَّمــا خفتُ على زائري لو أنني «جمّشتُه» أن يذوبْ[3]

وعلى هذا فإن المطالع الغزلية – على الرغم من إشارتنا إلى قلـّة عاطفتها – تبقى أرقّ من غيرها، لأنّ مقام الممدوح لا يسمح للشاعر بأن يسترسل في غزله الجريء الذي يورده في غير هذا المقام، كقول أبي غالب الراوستاني من مدحة في نظام الملك :

---

(١) دمية القصر : ١/٦٠٠ .
(٢) غير موجودة في ديوان تميم. دمية القصر.
(٣) جمّش : قرص ولاعب . دمية القصر : ١/٦٣ .

حنانيْكَ ما هذا الجفاء جزائي ولا كدَّر الإعراضَ حقُّ صفائي

منحتُك من قلبي خُلاصةَ حبه فما بالها شِيبَت بمذقِ جفائي ؟[1]

شيء آخر برز في هذا العصر في باب الغزل ، أن الشعراء أخذوا يتغزلون بجاريات سوداوات ،لغرابة لونه عليهم أسوة بالمتغزلين منهم بالغلمان الشقر الشعور والزرق العيون. ومن ألمع الشعراء الذين مالوا إلى الحب الأسود الشاعر «صرّبعر» ، والظاهر أن له محبوبة جذابة بهذا اللون ، نكتفي بقطعة ٍ قالها فيها ، غير ناسين أن هذا اللون لدى الجواري ، واللون الأبيض الرومي لدى الغلمان من « تقليعة » العصر ، وبالطبع فإن الجديد يأتي بالصورة الجديدة ، اسمعه :

عُلّقتُها سوداءَ مصقولةً سَوادُ قلبي صفةٌ فيها

ما انكسف البدرُ على ِتمّـهِ ونورهِ إلا ليحكيها

لأجلها الأزمـانُ أوقاتُها مؤرّخاتٌ بلياليها[2]

وهم على أية حال لم يأتوا بجديد عامةً ، صادقين أو مقلدين ، حتى في غزلهم الجريء . ولعل من نافلة الحديث أن نتريّث لدى القاضي النعماني الذي استوقف الحاجّات ، وتغزّل بهن بقوله :

ربَّ خَودٍ عرفتُ في عرفاتِ سلبتْني بحُسنها حَسناتي

---

(١) دمية القصر : ١/٤٤٧ .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/٦٥ .

حرّمتْ حينَ أحرمت نومَ عيني     واستباحتْ دمي لدى اللحظاتِ
وأفاضتْ مع الحجيج ففاضتْ     من جفوني سوابقُ العبراتِ
لم أنلْ من مِنىً مُنى نفسي حتى     خِفتُ بالخَيفِ أن تكونَ وفاتي[1]

متناسياً أنه يقلد عمرَ بن أبي ربيعة، وناسياً أن النقاد عتبوا عليه وعلى صاحبه أبي نواس فعل ذلك. وهو، ولا شك، برهان على مدى انغماسهم بالتقليد.

٢ – **شعر الطيف**: والحق يقال إن هذا «الطيف» من أجمل ما قالوا في الغزل، وأرقّه وأصدقه عاطفةً. ولم نقل هو من جديد شعرهم، لأن الأقدمين منذ الجاهلية استخدموه على قلّة. والبحتري سيد هذا الفن، وهو الذي يُدعى «شاعر الطيف» ولا يقلّ عنه أبو تمام شهرة في هذا الموضوع. بل ليس هناك ديوان لشاعر غزِل إلا وفيه ذكر للطيف غير مرة. فما الجديد إذاً في موضوع الطيف لديهم؟ المعروف أن المحبّ يلقى محبوبه نائماً؛ يحادثه، ويسامره، وقد يمرّ به عَرَضاً أو يغازله، خاصة إذا حرم البَيْنُ لقاءَه. إنهم لم يغيروا شيئاً من هذه المعاني، ولم يجدّدوا. ذلك أنهم وجدوا مَن سبقهم يفعل هذا ففعلوا، أو أنهم فعلاً وقعوا في الحب، وتراءى لهم في الليل ما لم يتّضح في النهار، ولكنهم على أي حال جاءوا بأسلوب الطيف رقيقاً، فقد طابت لهم مناجاة طيف المحبوب وتمني لقائه. قال حمزة بن علي:

يا راكباً عَرضَ الفلاةِ ألا     بلّـغ أحبّايَ الذي تسمعُ
وقل لهمْ: ما جفّ لي مدمعٌ     ولم يطِبْ لي بعدَكمْ مضجعُ

---

(١) دمية القصر: ١/٣٨٤.

ولا لقيتُ الطيفَ مذ غِبْتُمْ ... وإنَّما يلقــاهُ من يَهجعُ[1]

ويرحبون بالطيف في المنام، ويتمنّون لو انّ الحلم غدا حقيقة، قال أبو بكر القهستاني :

أهلاً بطيفٍ قد جلاهُ لنا الكرى ... وانِعمتا لو كان حقاً ما أرى[2]

ويبحثون عن النوم فلا يجدونه ، لأنهم يعشقون، والسهادُ من علائم الشوق. فيتمنّون أن يغفوا حتى يلقوا الحبيب ، كقول الفيروز آبادي :

وإني ليكفيني طروقُ خيالهم ... لو انّ جفوني مُتّعت بمنامِ[3]

ولكن الطيف لا يزور فقط ، بل يسلّم ويدنو ويحدّث ، وتُشرق الدنيا بإقباله . ثم إنه يسامرُ وبعدها يودّع . وقول بختيار من أرق الأمثلة على شعر الطيف عندهم :

سلامٌ على طيفٍ ألمَّ فسلَّمـــا ... فأبدى شُعاعَ الشمس لما تكلَّما

ألمَّ بنا في دامسِ الليل فانجلى ... فلما انثنى عنّا وودّع ، أظلما[4]

ومن ألمــــع شعراء الطيف في عصر السلاجقة التهامي ، والشريفان الرضي والمرتضى ، وذكر الطيف في شعرهمـــا جمٌّ ، وفي عرض مشاهده لديها فن .

---

(١) معجم الأدباء : ٧/١١ .

(٢) دمية القصر : ٧٨٢/٢ .

(٣) » » : ٥٠٠/١ .

(٤) » » : ٢٨٦/١ .

وللشريف المرتضى كتاب في هذا الموضوع اسمه « طيف الخيال». وقد استخدمه الشعراء في باب الغزل أو في المطالع الغزلية .

٣ – **الغزل بالغلام** : أما الغزل الغلامي ، فالجاهلية لم تعرفه ، ولا القرن الأول ، ولكن جاء به الترف والحضارة الجديدة وكثرة الغلمان والسقاة . على أن الفرس ليس عندهم ضمير خاص بالمؤنث وضمير خاص بالمذكر ؛ فالضمير لكليهما واحد . وكذا الأمر في المخاطب والمخاطبة واسم الإشارة والموصول . فإذا نادى الفارسيُّ لم يعرف السامعُ هل المنادى مذكّر أم مؤنث؟ على أن هذا ليس دفاعاً عن الفرس ، فالغزل بالغلمان كان موجوداً في فارس قبل تفشّيه بين العرب ، غير أن العرب سبقوهم إلى ذكره في الشعر ، وسبب ذلك أن ميلادَ الشعر الفارسي كان في أواسط القرن الثالث الهجري ، وأبو نواس وابن اليسار وأضرابهما سبقوهم إليه [١] .

وأبو نواس – كما هو معلوم – سيد هذا الفن ، وصاحب قصب السبق علماً وفناً . وقد قلّده الشعراء فلم يلحقوا به حيناً ، وضارعوه حيناً آخر . إلا أن مسألة التقليد – في هذا الموضوع – عفّى عليها الزمان ؛ ذلك أن الغلام غدا من أهمّ متطلبات الحياة اللاهية . بل يكاد الغزلُ الغلامي في هذه المرحلة ، وقبلها ، يطغى على الغزل بالمؤنث . وأصبح هذا اللون أصدق عاطفة من الغزل الطبيعي في كثير من الأحيان، لكثرة الغلمان الأتراك في الشرق والغلمان الروم في الغرب. ولم تعُد الحشمة تغطي وجه المتغزّل ، فقد خلع الناس برقعَ الحياء ، وراح كل مبتدىءٍ بالشعر يتغزّل بغلامه، أو بغلامٍ رآهُ ، أو بآخر لجارٍ له . ولم يقتصر الخليعون على هذا التغزل، بل اننا كثيراً ما كنا نعثر أثناء مطالعاتنا على : «قال الشيخ .. في غلام له » ، و « للفقيه .. غزل » ، و « لفلانٍ العلوي غزل في غلامه » كما قال أبو الحسن البلخي العلوي في غلامه اسماعيل :

---

(١) انظر كتابنا « المجموعة الفارسية » ط ٣ : ٩٥ .

قالوا : رأيتَ كاسماعيلَ من رشأٍ
فقلتُ : شَرواهُ في دار الخلودِ يُرى
أعجِبْ به بانــةً فرعاءَ ناضرةً
تُرى عناقيدَ من مسكٍ لها ثَمرا[١]

قد يكون تغزلهم عن غير إخلاص ، أو تقليداً لأهل العصر ، دون أن يكون هناك غلام حقيقي ، ولكنّ هذا لا يجرّ إلى عدم وجود الغزل ، بل يبعث على القول إن كثرته وحاجةَ عصره هي التي اضطرت الشعراء ، حتى الوزراء إلى هذا التغزل . والحقيقة أن الشرق كله في زمن السلاجقة والغزنويين ، كان عائماً بالغلمان ، والسلاطين كانوا يخصّون بعضهم علانيةً بشيء من العناية . وقد كاد السلطان محمود الغزنوي يُجن عندما مرض محبوبه « إياز » . وإذا عيبَ على الأمين فعلُ مثل هذا فإن شعراء السلطان المذكور ، ومنهم العنصري ، شاركوه اساه في مرضه . وقد سار البويهيون الفرس قبلهم على هذا النهج ، وبذروا تشجيعهم في هذا الموضوع ، وكان ابن الحجّاج شاعرهم الأول .

ولعل من أشهر ما وُصف به الغــلام في شعرهم : لين خصره ، وتوردُ وجنتيه ، وفتور عينيه ، وخمرة ريقه ، والاصداغ كالعقارب ، والنــواظر كالخناجر ، والأسنان كالبرد ، والحواجب سوداء مقوّسة ، كقول أحمــد المورّي :

حاجبُه في السواد حاجبُه يحجبُ عنه بنورها البصرا

(١) دمية القصر : ٢/٧٥٨

كالنور نوراً والغصنِ مُنعطفاً والروض رياً،والماءِ حين جرى[1]

ويكثر عندهم استعمال الألفاظ: الأجفان، المسك، العارض، العذار، السحر، الغزل، الريق، الخال، النقطة، المهفهف، الدموع، الأمرد، أسود العذار، معسول الرضاب، أراق دمي، أرّق ناظري، خشية الفراق، خدّ العذار. وإن أردنا الاستشهاد على ذلك أتينا على كثير من هذه الصفحات، غير أن بعض القطع الشعرية يمكنها أن تؤدي جمالا في الفن الشعري، وتجمع بعضاً من هذه التراكيب أو الالفاظ، كقول المظفر الجرجاني:

أسحرٌ بأجفانهِ أم خُمارُ؟ ومسكٌ بعارضه أم عِذارُ؟
غزالٌ بخديهِ وردُ الجنى وكلُّ الجمالِ عليه نثارُ
فمِن ريقه يتعاطى الرحيقُ ومن خدّهِ يُجتنى الجلنارُ[2]

ويكثرون من أوصاف العذار، فإذا امتدّ العذار، وازداد سواده ذكّرهم بالمسك، والمسك طيب الرائحة، شديد السواد. كقول أبي الفرج الموفّقي:

أمسكٌ أم عذارٌ قد تبدّى حوالي بدر غرّتك المفدى
أم اجتلى الجمال عليكَ غُفلاً[3] فحكت له طِرازاً مُستجدا

وقد يتفننون به أكثر، فيعبّرون عن حبهم لصاحب العذار بأشكالٍ

(١) دمية القصر: ١/٢٧٣
(٢) « « : ١/٦٠١
(٣) الغُفل: من لا يُرجى خيره، ولا يخشى شرّه، ومن لا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها، وما لا عمارة فيه من الأرضين، وما لا سمة عليه من الدواب. دمية القصر،

عديدة ألطفها الكتابة ، كقول البروجردي :

صنع العذارُ بخدّه عجبا  بثَّ الدخانَ ، وأضرم اللهبا
بدأ الكتابة ثم أدركَــــه  ضعف اليقين بها فما كتبا [1]

وقول خسرو بن فيروز في غلام التحى :

وقالوا : التحى مَن قد براك بحبهِ  وعما قليلٍ سوف عنك يفرِّجُ
فقلت لهم : اني تعشَّقتُ روضةً  بها نرجسٌ غضٌّ وورْدٌ مضرَّجُ
وقد زادَ فيها بعد ذاك بنفسجٌ  أأتركُه أن زادَ فيه البنفسجُ [2] ؟

بل إنهم استخدموا النسائم والرياح مع غزل الغلام ، في حين أنها من وسائل الغزل بالمؤنث . قال ابن التعاويذي محادثاً الريح التي تداعب شعر محبوبه :

باللهِ يا ريحُ إن مكنتِ ثانيـة  من صدغهِ فأقيمي فيه واستتري
وراقبي غفلةً منــــه لتنتهزي  لي فرصة وتعودي منه بالظفرِ
وإن قـدرتِ على تشويش طرَّته  فشوشيها ،ولا تبقي ولا تذري [3]

---

(١) دمية القصر : ١/ ٤١٧
(٢) « « : ١/ ٢٤٨
(٣) ديوان ابن التعاويذي : ١١٥

وهجرُ الحبيب أشدُّ علائم نزق العشاق ، فهم يريدونه ، ويرغبون في لقائه . فإذا هجر ضاقت نفوسهم ، وأتوا بصور جميلة تعبر عن انغماس ذاتهم في هذا الحب . ولقد أتى الكافي العماني بصورة واقعية لحديث الهجران وعلائمه ، فقال :

فسمومُ هجركَ في هواجِره الأذى   ونسيمُ وصلك في أصائله المُنى
ليس التلوُّن من أمارات الرضى   لكنْ إذا ملَّ الحبيبُ تلونا[1]

ولم يكن الغلام التركي ، وحده الذي أخذ بلبّهم ، بل إن الغلام الرومي كان له جاذبية خاصة والشعراء يتغزلون به ، حتى جاء العصر السلجوقي ، فازدادَ ميلهم إلى الرومي الأشقر ، وخاصة بعد أن فتحوا بلادَه واحتلّوا ثغوره . قال الفطيري :

وبمهجتي يا عاذليَّ مقرطقٌ   جمع النحولَ بأسره في خَصره
أسروهُ من أرض العدوّ فأصبحت   نفسي أسيرة ناظريهِ وثغره
وحياتِه ، لولا ملاحةُ خدّه   ما ذل إيماني لعزَّةِ كفرهِ[2]

وقد لا يكون الغلام سليباً من بلاده ، فهناك أديرة كثيرة حوت صبياناً بزي رهبان يتجولون في أديرتهم ، أو في الشوارع . فابن التعاويذي ( يذكرنا بأبي نواس ) دخل دير الثعالب يوم عيد النصارى فرأى بعض صبيانهم فقال :

---

(١) دمية القصر : ١/١٢٣
(٢) « « : ١/١٧٢

وغزالٍ علقْتُهُ يومَ دير الثعالبِ
من ظباءِ الصَّريم يخ طِرُ في زيٍّ راهبِ
شدَّ زنَّارَه فحلّ (م) عقود المذاهب
بتُّ من حبِّه على مثل شوكِ العقاربِ[١]

وإذا تهافت العشاق على الفتى صغيراً ، وأقبلت عليه العاشقاتُ يانعاً استحقَّ التباهي بذلك ، كقول الطاهر الجزري :

شغل النساء عن الرجالِ وطالما شغل الرجال عن النساءِ مُراهقا
عشقوهُ أمردَ والتحى ، فعشقنه الله أكبر! ليس يعدمُ عاشقا[٢]

ومسألة تشبه المذكر بالمؤنث ،والمؤنث بالمذكر ظلت رائجة في هذا العصر ، كقول تميم الطائي :

قل للغزالة وهْيَ غير غزالة والجؤذرِ النعسان غير الجوذر
لمذكر الخُطواتِ غير مؤنثٍ ومؤنث الخلوات غير مذكَّرِ[٣]

وتكتملُ صورةُ المحبوب لدى أحمد الواسطي ، إذ فيها العشق بعد الهداية وفيها أوصاف للمحبوب مفصّلة بدقة ، وفيها العناق والاشتياق وكذا الانشراح

---

(١) ديوان ابن التعاويذي : ٥٣
(٢) دمية القصر : ١/ ١٥٤
(٣) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، دمية القصر: ١/٦٠

والحياة !..

وبعدُ ، فهذه صورةٌ جامعة ، إلى حدٍ ما ، للغزل بأنواع الغلمـــان بشتى الألوان والأوصاف ، ومن استعراضها نتبيَّن أنهم وصفوا محبوبهم الذي لقوهُ وعاشروهُ ، ولكنهم لم يغيّروا من الأسس المعروفة في صفات الغـلام ، والتي ذكرناها في مطلع حديثنا ، حتى الغلام الرومي ، فان الشعراء قبلهم وصفوهُ ساقياً بزنـّار جلدي ، وكثرةُ الأبيات في غزل الغلام دليل على شيوعيّة الغلمان وعلانيّة التغزّل بهم .

٤ - **الخمرة** : كانت الخمرة معروفة في الجاهلية ؛ تاجروا بها ، وشربوها ، وحرّمها القرآن ، ووصفها الشعراء . وازدادت مع الزمان ( سراً وعلانية ) حتى بلغت أوجها في الاتساع والجرأة في العصر العباسي . وعلى هذا فالشعراء العرب الذين وصفوا الخمرة لم يقتبسوا عن الشعراء الفرس لسبب بسيط هو الذي ذكرناهُ آنفاً . ونعلم أن الأخطل وبشاراً وأبا نواس ، ومَن لفّ لفّهم هم الذين وضعوا الأسس الواضحة لها . فوصفوها قديمـــةً ، وحمراء أو صفراء، وذات حباب ، وتزيل الهموم ، وبكأس بلوري ، ومنقوش أو ذهبي موشى ، وساقيها رومي جليب ، ولا يعذب شربُها إلا مع الندامى ، وفي أحضان الطبيعـة . ثم هي أخيراً تزيل الهمّ والأكدار ، وتُنعش الأرواح والأفئدة .

ولم يأتِ العصر السلجوقي حتى استُنفدت من شتى نواحيهـــا ، فكان دور هؤلاء الشعراء التقليد ، والتقديم والتأخير في وصفها . فهم شربوها مع الصحب وتناشدوا عليها الشعر ، وقبّلوا حبابها ، ونادوا الغلام أن يديرها على الحضور وفي الغبوق والليل . شريطة أن تكون صافية ، فوّارة، منعشة . بكأس جميل ليزيلوا همومهم وينعشوا أرواحهم . كقول أبي المظفر البُستي :

فإذا الهمومُ تطاولتْ فاطلب لها    عيشاً مُداماً باتراع مُدامِ

صهباءُ تسطعُ في الكؤوس كأنها
شمسٌ تقلّبها بدورُ تمامِ
وتكاد تخفى رقةً ولطافةً لو لم يخيّلها خيالُ الجامِ
وإذا تسرّبَ في العروق ذُكاؤها[1]
أضحى تشعبُ نورها في الهامِ

وأفضلها عندهم ( كما كانت عند سابقيهم ) العتيقة المخزونة من عهد آدم ، أو نوح ، أو كسرى ، أو أي شخص يدلّ على زمان سحيق ، كقول أبي الحسن الوقفي :

أدهقِ الكاسَ من سُلافِ مدامِ
بقيتْ في الدنان من عهد سامَ
خندريساً كأنما أسكنوها بالخوابي حواصلاً للنعامِ[2]

وهي لا تُزيلُ الأسقامَ تماماً إلا إذا كان شاربُها مُرتوياً من كفّ غلام صبيح باسم كقول أبي يعلى الهروي :

ليسَ ينفي الهمومَ غيرُ الحميّا فاسقياني من كفّ طلقِ المحيا

(١) الذكاء : اسم علم للشمس غير منصرف . دمية القصر ٢/رقم٥٦

(٢) دمية القصر : ٢/٥٤٧

قهوةً تترك السقيمَ صحيحاً وتُزيلُ الهمومَ محواً وطيّا

قد دعوتُ الغلامَ ثمتَ ناديـ ـتُ : أدِرها ، ولا تُبقِ عليّا [1]

ولن يدعهـا إلا إذا جاءه النّصوح، ولن يعزِف عنها إن شدّد عليه الواعظ بل إنه سيستخفّ بالدين ، ويفخر بذلك . فإذا ما تحدّى أهل الدين حلّت ، وسيشربها عندما يعلن المؤذن – كما فعل أبو نواس – أنْ : حيَّ على صلاة الصبح متعمداً ، كذا قال تميم الطائي :

قُم إلى الراحِ مع الصبـ ـحِ إذا قـام المؤذّنْ

وإذا أعلن باللـ ـهِ ، فقل للعودِ : أعلنْ

إن تسيء يا أيها العبـ ـدُ ، فإنّ اللهَ مُحسن [2]

وكثيراً ما كنّا نقرأ في شعر الخمرة عند سابقيهم ، فنرى ازدواجية العازف والمؤذن ، صياح الديك ودعوة الساقي إلى تقديم الخمرة.. وظلوا على هذه الوتيرة في العصر السلجوقي ، ومـا بعده . وبالطبع فإن الخمرة لا تعذُب في ساعات الوحدة ، ولا تطيب إلا مع الندمان ، فهم الذين يسلـّون، ويسقون، ويشربون، ويشاركون في ساعات الأنس، حيث يتحلـّقون جميعاً في حضن الطبيعة الضاحكة، وكلهم يصخب وينـادي ويستدعي . والطبيعـة لا تضحك إلا في فصل الربيع بأزاهيره وأوراده ، حيث يعمُّ الحبور كقول ابن أبي زرعة :

---

(١) دمية القصر : ٢/١٠٩ .

(٢) » » : ١/٦٤ .

لبسْنا به ظلَّ السرور ، فكلّنا
شَروبٌ لمـا تنهاهُ عنـهُ المصاحفُ
كأنّ أباريقَ المُدامـةِ بيننا
من المنظرِ الأعلى ظِباءٌ رواعفُ
يُديرُ علينـا الراحَ رطبٌ بنانُه
وصيفٌ جفتْ في الشكل عنهُ الوصائفُ(١)

وتتعدّد في هـذا العصر صور انقشاع فصل الصوم عن الناس ، واستعدادُهم لعقد مجالسِ الشراب ، فيصفونَ ما قاسوهُ في هـذا الشهر ليرحّبوا بالخمر ، كما فعل الأقدمون ، وكما قال أبو القاسم الموسوي :

أتاكَ الصيـامُ فعاشرتَه بقلبٍ تقيٍّ وعرضٍ نقي
وأوجبتَ للقوم هَشمَ الثريدِ على شرطِ منصبك الهاشمي
فعيِّد إذا الأفقُ في الغرب بثَّ سَناً من جليٍّ به مُنجلِ (٢)

كما يحضّون على ترك الزهد الذي نشأ في عصرهم، ليكثُر مشاركوهم في الاثم. قال أبو الفضـل المقدسي واصفاً جلسة لاهية يفوح منهـا عطر اللامبالاة بالقيم الدينية ، والانغماس في ألوان من الملذات :

---

(١) دمية القصر : ١/١٩٧ .
(٢) » » : ٢/٧٣٤ .

دع التصوفَ والزهدَ الذي اشتغلت
بـــه خوارجُ أقوامٍ من الناسِ

وعُج على ديرِ داريّا فإنّ به الرهـ بانَ ما بين قسيس وشماس
واشرب معتقةً من كف كافرةٍ تسقيك خمرين من لحظٍ ومن كاسِ
ثم استمع رنــةَ الأوتار من رشأٍ مهفهفٍ طرفُه أمضى من الماسِ [1]

ومن صورهم اللطيفة مزجُهم حب الخمرة أيام هطول الثلوج . وقـد سبقهم شعراء بني حمدان في ذلك . ولا يأتي الشاعر بهذه الصورة مـا لم يكن في بيئة باردة تهطل فيها الثلوج . قال منصور بن محمد الأزدي :

قم يا غلامُ فهاتهـا حمراءَ كالنار يورث شربُهـا السرّاءَ
فاليوم قـد نشر الهواء بأرضنا من ثلجـه ديباجةً بيضاءَ [2]

٥ – **وصف المطرب** : وتكميلاً لهذه المجالس وصفوا المغنين والمغنيـات ، وذلك في مجالس الأنسِ غالباً.. إلا أنّ وصفهم جاء قليلاً جداً بالنسبة إلى غيره من الأغراض ، فهم لم يصفوا غير مطرب ومطربة ، وأشاروا إلى بعض ذلك في مجالس الأنس بشكل تلميح . وقد كان في العصر الإسلامي مغنّون ومغنيات ، وفي مكة بالذات ، ومرّ ذكرُهم في دواوين الشعراء ، وازدحمت أخبـارهم في كتاب الأغاني ومحاضرات الأدباء . ولما انتقلت الخلافـة إلى العباسيين ، وغدت

(١) البداية والنهاية : ١٢/١٧٧ .
(٢) معجم الأدباء : ١٩/١٩١ .

بغداد حاضرة البلاد تعدّدت مجالسهم، وصار وجودُ المطربين من الأمور المهمّة. ودخل الشعراء مجالس الأمراء، واسترعى انتباههم المغنون والمغنيات، وعشق بعضُهم بعضَهنّ، كما حدث لابن الرومي – على فقره – مع المطربة «وحيد». ونجد بعضهم مدح وأثنى، وآخر هجا وسخر.. صوتاً وشكلاً. ولعل من ألطف هذه الأوصاف ما فعله عبدالله الخوافي في وصف القَينة وغنائها، وما فعل بالشرب:

قامتْ على طرب الندمانِ راقصةً ... بالعودِ ترمحُ فضلَ الذيلِ والخُمُرا
فحرّكت كلَّ قلبٍ ساكنٍ طرباً ... وقيَّدت كلَّ طرفٍ يُرجع البصرا
غنَّتْ على مقتضى الايقاع يشفعُه ... صوتٌ كنغمة «برصوما»[1] إذا زمرا

٦– **شعر الفحش:** لم يكن ما صرّحوا به من شعر فاحش وكلامٍ مكشوف جديداً على الأدب، فقد سبقهم امرؤ القيس، وصاحب «اليتيمة» المشهورة، وازداد ذلك في مطلع العصر العباسي على يدي حمّاد عجرد وبشار وابن الرومي.. بل إنهم ذكروه في الغزل وفي الهجاء على السواء. والذي أضافوه الآن هو الانتشار الزائد، وتفشّيه بين الفقهاء والعلماء. ومن عجيب ذلك أننا نلقى العلماء الأفاضل!! وبعضهم شيخ وابن شيخ! يبوحون بالفاحش، ويكشفون العورات صراحةً ودونما كناية، أو يذكرونها بكناية أفضح من الصراحة نفسها.

ولعلّ ما زاد في هذا الفحش تكاثر عدد الغلمان الأتراك؛ فهم لينو العريكة، قليلو الحشمة، سهلو القياد.. مما ساعد على ازدياد فساد المجتمعين: العربي

(١) برصوم: اسم مغن في العصر العباسي. دمية القصر: ٢/١٩٥.

والفارسي ، ويوضح رأينا قول أبي جعفر البحاثي في الترك :

عليكَ بالترك وأولادهم ... فالتركُ جيلٌ كلُّه لذَّه [1]

أو قول منصور بن محمد الأزدي :

خِشفٌ من الترك مثل البدر طلعتُهُ ... يحوزُ ضدّينِ من ليلٍ وإصباحِ
كأنّ عينيــه والتَّفْتيرُ كُحلُها ... آثارُ ظُفرٍ بدتْ في صحن تفّاحِ [2]

ولم يكن رأيُ الأدباء جميعاً في الأتراك مـا قاله المتغزّلون ، فهم في الأصـل كماةٌ رماةٌ ، وفرسان شجعان أو سارقون ماهرون ، ويجمع الأديب الغزي هذه الأوصاف بقوله فيهم :

وفتيةٍ من كُماةِ الترك ما تركتْ ... للرعد كبَّـاتهم [3] صوتاً ولا صيتا
قومٌ إذا قوبلوا كانوا ملائكةً ... حُسناً ، وان قوتلوا كانوا عفاريتا
مُدّت إلى النهب أيديهم وأعينهم ... فزادهم قلقُ الأحـــداق تثبيتا
بدارِ قارون لو مرّوا على عجلٍ ... لبات في فاقةٍ لا يملك القوتا [4]

غير أن الذي دعا المتغزلين إلى قولتهم طواعية الترك وتقبُّلهم الخلاعة .

---

(١) دمية القصر : ٢/رقم ١٩٦ .
(٢) معجم الأدباء : ١٩/١٩١ .
(٣) الكبة ( بالفتح والضم ) : الحملة في الحرب.
(٤) خريدة القصر ، قسم شعراء الشام : ٩/١ .

وهم إذا تهجّموا على الأعراض ، وفضحوا الحرائر من النساء فلم يأتوا بجديد ، ولم يكن ابن الدويدة الذي هجا بني المهذّب، والرسّي ( نقيب الطالبيين ) الذي هجا ابنَ مسعدَ وصاحبَه القاضي بأكثرَ فضحاً من شعر ابن الحجّاج نفسه .

وأغلبُ هذا اللون من الشعر ارتجالي ، تقودهم المناسبات المفاجئة إليه ، ويمتلىء بألفاظ داعرة ، وتعابير تأبى سماعها أيّ اذن . بل بلغوا من فجورهم أن أفاضوا في الشرح والتصريح وذكر السوءات . وقد يكنّون في أحاديثهم ، ويوردون في مجالات أخرى ترجمتها الفارسية إن لم يسمح المجالُ لهم بالبوح. ولقد عزمنا على تحاشي الشواهد أنَفَةً منا ، ونُرجع القارىء إلى : يتيمة الدهر ، ودمية القصر ، وخريدة القصر ، ومحاضرات الأدباء .. وسيرى التصريح الذي منعنا من الاستشهاد .

هذه صورة لشعر الفحش هجاءً وغزلاً وتندّراً ، أتى بها الشعراء على غرار مَن سبقهم من أصحاب المجون الصُّرحاء . وبهذا العرض الأخير نكون قد أوردنا موجزاً مصوَّراً بالشعر للمجتمع الفاسد الذي انغمس فيه العصر العباسي السلجوقي. فرأينا فيه امتداداً لما سبقه من فجورٍ، وتمهيداً لما أتى بعده من مراحل أكثر انحطاطاً في القيم الشخصية والمفاهيم الشعرية .

## ١١ – أغراض أخرى متفرقة :

إذا كنا عرضنا في الصفحات السابقة أغراض الشعر العامة، وبيّنّا التقليديّ منها والمجدّد ، أو الممزوج ، فإننا سنعمد هنا إلى الإشارة إلى بعض موضوعات تطرّقوا إليها ، وانفردوا بها ، إمّا لأن الفحول قبلهم جرّبوها عرضاً ، أو لأنها نبعت من محيطهم مؤخراً ، فغرفوا من هذا الواقع الفجّ الذي ما عرف الاستقرار :

١ – **الشعر المذهبي :** لم يكن مديحُ آل البيت بغريب على الشعر العربي ،

فقد كان منذ أيام الرسول، ومنذ أن أعدّ كعب بن زهير وحسان بن ثابت العدّة للذود عنه والافتخار به أمام جموع المشركين . واتّسع أفق هـذا اللون في أيام شعراء الأحزاب في العصر الأموي..ثم خمد قليلاً ليتّخذ شكلاً خاصاً في العصر العباسي حيث وصفوا آل البيت وصفـاً قدسياً ، وفدوهم بالأرواح ، ونذروا أنفسهم عبيداً ، وعبدالله الفقي قال :

خدّي لأقدامِ آلِ فاطمةٍ ، إذا تخطَّوا على الثرى ، نعلُ

وذلك عندما ضعف صفّ آل البيت بعد أن انتشروا في أرجاء الأرض خوفاً من بني أمية ثم من بني العبـاس والغزنويين والسلاجقة . ونرى موقفهم في مناطق أخرى يشتدّ ، خاصة إذا كانت تلك البقاع موالية ً لهم ومتشيعة. وقد صوّرنا في « الوضع الديني » الموقف العام للبلاد، وانحطاط بعض المذاهب وسموّ أخرى . ونلمس هذا القلق المذهبيّ في الأدب بين مدحٍ لآل البيت وهجاءٍ لهم ؛ افتخارٍ بنسبهم الشريف وحطٍّ لنسب آخر .

وكتب الأدب والتاريخ – وخاصة ابن الأثير – تحكي لنا ما كان يجري بين المذهبين السني والشيعي في ذلك العصر. ولعل من ألطف أخبار هذا التعصب ما رواه البـاخرزي في دميته عن شاعر من آل البيت واسمه علي الجزري ؛ فقـد هاجر هـذا الشاعر من بلاده إلى الشام ليجاور قبر معاوية ، ويظلّ على خدمته عاماً ، وفي خليّة نفسه أمرٌ . حتى تيسّر له يوم كشف فيـه عن خلية رغبته ، بأن نفض عِيابه على قبره وهرب ، وقال في ذلك :

رأيتُ بني الطوامث والزواني بمقتٍ ينظرون إليّ شَـزْرا
لأني بالشآمِ أقمتُ حَـولاً على قبر ابنِ هندٍ كنتُ أ. .(١)

(١) دمية القصر : ١/١٦٦ .

غير أن مديح آل البيت ، والتقرب منهم لم يقتصر على المنتسبين إلى أحد المذاهب الهاشمية أو الشيعية ،فالشعراء جميعاً كانوا يتقرّبون إلى آل الرسول ﷺ ، والأئمة منهم خاصة زلفى إلى الغفور الرحيم ، ورغبة في حب الآخرة وحسن الختام . ولهذا نجد هذا اللون من التمدّح يمتد إلى هذه المرحلة ، ليتّسع ويشيع في عصري المماليك والعثمانيين . ولعل من أبرز الأمثلة على هذه المحبة رثاء مهيار الديلمي آل البيت بقوله من قصيدة طويلة :

وبحيٌّ آل محمــــد إطراؤه    مِدَحاً وميّتهم رضاهُ مراثيـــا
هــذا لهم ، والقومُ لا قومي هُمُ    جنساً ، وعُقرُ ديارهم لا دياريا
إلا المحبة ، فالكريمُ بطبعه    يجدُ الكرامَ الأبعدينَ أدانيـا
أمــا وسيِّدِهم عليٍّ قولةً    تَشْجي العدوَّ وتُبهــج المتواليا
لقد ابتنى شرفاً لهم لو رامَــهُ    زحلٌ بباعٍ كان عنهُ عاليا(١)

وبنو العباس هم من آل البيت ، والذين حظوا بشيء من هذه المِدَح ، كقول الحسن بن بركة :

جعــل اللهُ ودّكمْ يا بني العبْـ    ـباسِ فرْضاً من أشرفِ الأعمالِ
وعليكم صلاتُنا في التحيــا    تِ توالى لأنكم خــيرُ آلِ

(١) ديوان مهيار: ٤/٢٠٠ .

يا بني عم أحمــدِ طـاب محْيا كمْ ومن قبلُ طِبتُم في الظلالِ[1]

غير أنهم لم يستطيعوا التجديد في هذا المضمار بغير التزلّف والتوسل ، إذا اعتبرناهما سبباً إلى هذا التجديد . وهذا الشعر ، مع هذا ، لا يمكن أن يعدّ صورة للعراك المذهبي ،لأن ما قالوه لا يتعدّى المحبة والبغضاء التي يرسلها الشعراء من الطرفين ، وقد تكون سريّة مستورة كفعل الجزري الذي بيّت الشر عاماً ثم هرب من فعلته .

٢ – **الحنين الى الوطن:** من أبرز مزايا الشعر في عصر الفتوح شعر الحنين إلى الجزيرة العربية بصحاراهـا القاحلة ، هـذا الشعر أرسله شعراء رافقوا الجيوش المجاهـدة وسجّلوا من تلك المنـاطق النائية انفعـالاتهم وأشواقهم نحو مرابط خيلهم ، ومحطـّات قوافلهم ، وواحاتهم ورباعهم ، بقصائد وجدانيـة رائعة . وذكرنا في كتابنا « الباخرزي ، حياته وشعره » أن هذا الكاتب الذي ابتعـد عن موطنه بحكم عمله أرسل قصائد جميلة في الحنين إلى مسقط رأسه والشوق إلى أهله ، من ذلك :

قُربُ السَّقام وبعدُ الأهلِ والوطنِ
هُما هما ، أورثاني السقمَ في بدَني
حنّتْ هوىً لجبال الثلج راحلتي
وما لهـا ببراقِ الشيحِ من عطنِ
مالي أذيــعُ فنونَ الوجدِ مشتكياً
إذا اشتكت شجوَها الورقاءُ في فنَنِ؟[2]

(١) معجم الأدباء : ٩/٠٤ .
(٢) ديوان الباخرزي :

كما أننا تطرّقنا إلى هذا الموضوع قليلاً أثناء حديثنا عن « الشكوى » . غير أن الغربة التي حزّت في نفوس الشعراء كثيراً شدّتنا لأن نهتمّ به بهذا الغرض ، ولعله يفتح مجالاً للشعر الوجداني الصادق العاطفة ، فاسمع قول عبد العزيز الطبسي :

وما غُربتي يا قومُ عندي محنةٌ ... ولكنَّه صَرفُ الزمانِ ينوبُ
فقُل للذي سرّته محنةُ غربتي : ... توقّع ايابي ، فالغريبُ يؤوبُ (١)

والشاعر المغترب يحنّ إلى وطنه ، ويتذكّر كل نسمةٍ تهبّ ، فينفطرُ قلبُه أسى عليه . وما أصدق قول أبي سعد الموصلاني وهو يتذكر العراقَ موطنه ! :

خليليَّ إني كلّما ذرَّ شارقٌ ... يزيدُ إلى أرضِ العراقِ حنيني
وإن قابلتني نغمةٌ بابليَّةٌ ... تنمُّ بما تخفي الضلوعُ شؤوني
فمَن مخبرٌ أهلَ العراقِ بأنني ... أبيتُ ومكنونُ الهمومِ قريني (٢)

أو قول عبد الوهاب بن علي :

سلامٌ على بغدادَ في كل موقفٍ ... وحقّ لها مني السلامُ مضاعفُ
فواللهِ ما فارقتُها عن ملالةٍ ... وإني بشَطَّيْ جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقَتْ عليَّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعفُ

---

(١) دمية القصر : ٢ / رقم ٢٢٦ .
(٢) » » : ٣٨٢/١ .

فكانت كخلٍّ كنتُ أهوى دنوَّه ... وأخلاقُه تنأى به وتخالفُ[(١)]

أما إذا رأى المذلّة في بلده فإنه يعزف عنها ، ويطلب الكرامةَ في بلدٍ آخر ، مهملاً أرضه ، ومتناسياً فضلها ، وضاغطاً على عواطفه نحوها . وضاديّة علي بن الأزهر تبلغ الذروة في التعبير الوجداني :

وإذا الكريمُ رأى الهوانَ ببلدةٍ ... رفضَ الهوانَ بها وراحَ مركّضا

إن ضاقَ مسرحُ ناقتي في بلدةٍ ... فزمامُها بيدي وما ضاق الفضا

وعليّ أن أسعى وأطلبَ مَكسباً ... والرزقُ ما قسم الإلهُ وما قضى[(٢)]

٣ – **صور اجتماعية :** عندما وصف الشعراء ما حولهم ، وعبّروا عن كل شيء بشعرهم ، أعطونا صورة أقربَ ما تكون إلى عاداتهم ومعتقداتهم ، فحكَوا لنا فيها عن حياتهم . ومع أنهم عرضوا علينا ممدوحيهم ، وطبيعتهم الجميلة ، وجواريهم الحسان ، وغلمانهم الساحرين ، فإن هذه الأمور تعبّر عن الجانبين الفني والحضاري فقط. ولا يكفي لمعرفة أحوال المجتمع أن نقرأ هذه الأوصاف ، بل تكتمل الصورة في أذهاننا إذا نزلنا قليلاً الى الشعب ، ورأيناهم كيف يعيشون ، ويعتقدون ، ويفكرون . وقد حالفنا الحظ ببعض اللقطات ، كانت سنداً لنا عن تفهم جوانب من حياتهم . فقد كتب أبو عبد الرحمن النيلي إلى أبي نصر عندما **لسعته عقرب في قدمه** ، أنها لمّا وُجدت وقتلت زال الوجع وحصل الشفاء المرتجع ، فقال في ذلك :

أرأيتَ همّةَ عقربٍ دبّتْ إلى ... قدمٍ بها تخطو إلى العلياء ؟[(٣)]

---

(١) البداية والنهاية : ٣٢/١٢ .
(٢) دمية القصر : ٩٧/١ .
(٣) دمية القصر : ٩٦٥/٢ .

ولا زلنا نذكر أمهاتنا ، وهنّ يعتقدن بأن قتل العقرب يزيل الألم ، الذي يحلّ بالمرء من جرّاءِ قرصها .

**واللعب بالشطرنج والنرد** من الأُلهيات الاجتماعية التي يُزجي بهـا القوم أوقات فراغهم ، ومن مزايا الشعراء معرفتُهم بفنونها ، ومقدرتهم على محاربـة الخصم ، يقول الباخرزي في دميته أثناء تعريفه بأبي جعفر المختـار : « يلعب ببيادق النرد مع الأحباب لعبَ الغدران يوم المطر بالحباب . ويتصرّف على حكم أنامله دوران الكعاب . ثم إذا انتقـل منها إلى الشطرنج غلب الحرّيف بلعب أبدع إنشاءَه ، وأمات شاهَه في أي بيت شاءَه » . بل إن أحجار الشطرنج غدت من وسائل المديح في الشعر ، ومداعبة الأذهان في النثر .

أما منصور الزورابذي ، فإنه يصور لنا المرء وهو **يلاعب الدينار** على رأس أنمله ، كما يفعل أحدنا في لحظات تسليته فقال :

وإذا دنانيرُ امرىءٍ رقصت على　　أظفارِه ، خجلت فلوسُ المفلسِ [(١)]

**والافلاس** من الصور الاجتماعية ، والتعبير عنه عندنا أفضل من مديح نظام الملك نفسه ، لأنه يصور الواقع المرير للشعب ، ويعبّر عن الصراحة التي عرف بها شعراء هذه المرحلة – عدا المديح طبعاً – قال أبو الحسن الوقفي :

ولم أرضَ بالافلاسِ إلا لأنني　　رأيتُ من الأحرار دهري مُفلسا
فأكبرتُ نفسي أن أذِلَّ لموسرٍ　　تمهَّرَ في حفظِ الغنى وتمطَّسا [(٢)]

ويجرنا حديث الإفلاس إلى حديث **السفتجة والحوالات**، ويذكرها الشاعر

---

(١) دمية القصر : ٢/١١١٠ .
(٢) دمية القصر : ١/٥٤٨ .

أبو سعد بن عبد المطلب :

تنانيرُكم للنملِ فيها مدارجُ    وفي قدركم للعنكبوت مناسجُ
وعندكم للضيف يومَ يزوركم    حَوالاتُ سوء كلها وسفاتجُ[1]

ومن معتقداتهم أن أكل الطعام الذي **قرضه الفأر** يورث النسيان ، على ما يقال . هذا ما يعبر عنه الشاعر رضي الدين بن المطلب :

فديتُ مَن في وجهها سُنَّةٌ    أشهى إلى القلب من الفرضِ
تنسى عهوداً سلفت بيننـا    كأنما قـد أكلت قرضي[2]

ومن الصور الشعبية كثرة **البراغيث والبق** في بيوتهم ، وهي تدلّ على الفقر وقلة العناية بالنظافة . فقد أحسن الصيدلانيُّ الجرجاني في وصفها ، فقال :

إنَّ البراغيثَ بالليـالي    إذا توثَّبنَ في القتـالِ
لَمُشَبَّهـاتٍ على فراشي    بزْر قطونا على المقالي[3]

٤ – **صور فارسية :** لعل الأعياد القومية من أهم الصور الفارسية التي أتونا بها ، باستثناء فنون الطعام ، وأهمها النوروز والمهرجان وسَدَه. وتحسُن الإشارة إلى أن العرب وصفوا العيدين الأولين كثيراً شعراً قبل أن يفعل ذلك الفرس

---

(١) خريدة العراق : ١/١٨٣ . السفاتج : ج سفتجة معرب سفته ، وهو ورقة تحويل معتمدة بالدفع ، كانت تُستخدم قديماً خوفاً من سرقة المال إذا ما حُمل أو أرسل .

(٢) خريدة العراق : ١/١٩٧ .

(٣) دمية القصر : ١/٦٠٧ .

أنفسهم[1] . فعلى الرغم من أن الأمويين لم يتعمّدوا التأثر بالأعياد الفارسية ، فإنها أخذت تتسرّب إلى العرب دونما استئذان . حتى إذا كان العصر العباسي نقلوا إلينا الكثير من عاداتهم في هذين العيدين ، والتي كان لها الأثر الملموس في الأدب العربي ، والنفع الكبير لمحبّي اللهو والطرب .

**ونوروز** معناها اليوم الجديد ، أي رأس السنة الفارسية ، ويبدأ في ٢١ آذار ( مارس ) من كل عام ، ويعتبر أولَ الربيع ، وهو أعظم أعيادهم ،ومدته أسبوعان تقريباً. أما **المهرجان** فهو عيد الخريف ،ويبدأ في ٢٣ أيلول(سبتمبر) . وصار من الشائع أن نسمع عن النوروز في الشعر كما فعل البحتري والمتنبي وابن الرومي في وصف النوروز ، وابن الرومي وابن المعتز في وصف المهرجان .

وكم كنا نرجو أن يصفوا تقاليدهم في هذه الأعياد ، إلا أنهم اكتفوا بذكرها فافتقرنا إلى معرفتها . غير أننا عثرنا في ديوان ابن التعاويذي على توضيح تقليد معروف لدى الفرس ، هو أن السماط يجب أن يضم سبعة ألوان من الطعام صباح عيد النوروز ، يفضل أن تبدأ كلها بالحرف « سين » ولكنه بدأها بالشين ، واضطره مجلس الأنس إلى ذلك :

إذا اجتمعت في مجلس الشربِ سبعةٌ
فما الرأي في تأخيرهنّ صوابُ
شِواءٌ وشمّامٌ وشُهدٌ وشاهدٌ
وشمع وشادٍ مطربٌ وشرابُ[2]

---

( ١ ) لن نطيل في الحديث عن الأعياد لأننا عقدنا فصلاً كاملاً في كتابنا « شعر الطبيعة بين العرب والفرس » .

( ٢ ) ديوان ابن التعاويذي : ٤٩ .

والنوروز عند الفئتين يكتسي ببهجة الربيع لا أكثر .

كما أنهم وصفوا النار التي يوقدونها في **عيد السذق** ، وما حواه هذا العيد من إشراق في ليالي الإيقاد . واسمُه الفارسي « سَدَه » ، وهو العيد المئوي ، ويجيء بعد مرور مئة يوم على عيد المهرجان . وقد أجاد أبو الفتح الهروي في وصفه إذ قال :

رُبَّ ليلٍ كشَعر ليلى سواداً  شقَّ جلبابَه على الأرضِ نارُ
وترى الأرضَ كالسماءِ فكلٌّ  قــد تجلّى خلالَهــا أنوارُ
بشرارٍ كـأنهــنَّ نجــومٌ  ونجومٍ كــأنهن شرارُ (١)

والترجمات الفارسية إلى العربية وبالعكس من أهمّ ما اعتنى بــه الشعراء ( الفرس خاصة ) . وكتاب « لباب الألباب » للصوفي مغزوٌّ بمثل ذلك . فإذا أحب الشاعر الفارسي قطعة لشاعر عربي نقلها إلى الفارسية ، وقد عثرنا على قطع كثيرة في هذا الكتاب لشعراء عرب كالمتنبي وسيف الدولة ترجمها بعضهم إلى الفارسية ، وكذا الأمر إذا أعجب أحدهم بقطعة فارسية نقلها إلى العربيــة ، وكثيراً ما ينظم الشاعر منهم فكرة واحــدة باللغتين . كما يمرّ أحدهم بشعرٍ لكبار شعراء الفرس كفرّخي ، فلا يتورع عن نقله إلى العربية . وهــذا يدلّ على سيرورة اللغتين في الشرق في عصر السلاجقة .

٥ – **موضوعات تافهة** : لا شك أن مكانة الأدب في العصر السلجوقي قــد تدنّت ، وازدادت شعبيته فتناوله كل واحد ، وتراكض الأدباء لجمع فُتــاتِ أشعارهم ، وسكبوا عليها تعابير الثناء ، ممّا شجّع الآخرين على النظم . لذا فإننا

---

(١) دمية القصر : ٨٥٢/٢ .

نعثر في كتب الأدب التي ضمّت منتخبات هذا العصر على موضوعات تافهة نعجب من ورودها، ونعتب عليهم تذوّقهم لها، ومَـلأهم الصفحات بهـا. وعلى أية حال هي صورة لنزول مرتبـة الشعر، بعد أن كانت في زمان أبي تمام صعوداً إليه. فنرى أحدهم – وهو أبو يعلى الزوزني – يسأل صديقاً أن يسعفه بقضيم لدابّته بقصيدة منها:

رأيتُ طرفي مُسرجاً في المنامْ عليهِ من عقد اللآلي لجامْ
وسرجُه من جوهرٍ ناصعٍ شُدَّ من التبرِ عليه حِزام
فقلتُ: مَن أعطاكَ ذا كلَّه؟ فقال لي: هذا ثوابُ الصِّيام
فقلت: نذرٌ ذاكَ أم قُربةٌ؟ فقالَ: بل عُدمٌ وربِّ الأنام
لكنّما الصبرُ على الجوعِ والشّ شِدَّةِ يا مولايَ صعبُ المرام
ما كنتُ أخشى ضَيعتي قطُّ في جوارِ هذا الأريحيِّ الهُمام
أَقَـلُّ من تبنٍ فأُزجي به وقتي، من قبلِ حلول الحِمام
فقلتُ: لولا شغله لم يكن يغفل عنه، فأَقِلَّ الكلامْ (١)

وابن التعاويذي يستجدي حصيراً:

وعدتَ بأن تنفِّذ لي حصيرا وهل يعِدُ الحصيرَ سوى الحقيرِ
ولم تفِ إذ وعدتَ وأيُّ خير يُرجّى من يـدَيْ نحسٍ فقيرِ

(١) دمية القصر: ٢/ رقم ١٩٠.

فلا تُمسك يديك عليه ضنًّا    فكم لك في جهنّم من حصير ![1]

ومن الموضوعات أيضاً: شكرٌ على طبق تفاح، أو رجاء في استعارة كتاب، أو طلب زيارة ، أو استهداء حَبّ الرواصير[2] ؛ فقد كتب المفضّل الصفاني يستهدي الحاكمَ أبا سعد الرواصير :

حُبُّ الملاح الغواني ليس يفعلُ بي    ما كان يفعله حَبُّ الرواصيرِ

إنْ كان عندي ما أصبحتُ أطلبُه    فامْنُنْ عليَّ به من غيرِ تقصيرِ[3]

وإذا رأوا أن أبواب العظماء مغلقة دونهم ، اعتبروا هذا العمل مهانةً حاقت بهم ، فنظموا فيها شعراً، وردّ بعضهم المهانةَ صاعَين،فنراهم يستخفّون بكبار القوم ، ويفضحونهم ، كقول أبي غانم العطار :

إذا كان الفقيهُ يلصُّ جهراً    ويأخذُ مالَنا جوراً وقهرا

هلمّوا يا أخلّائي هلمّوا    على ذي الفقهِ والمفتينَ ...[4]

إلى غير ذلك من موضوعات بسيطة تافهة ، إن دلت فعلى نزول الشعر من مكانته السامية ، وعلى كثرة الغث إلى جانب الحسن .

---

(١) ديوان ابن التعاويذي : ٢٣٢ .

(٢) الرواصير : فارسية معربة عن « ريصار » و « ريجار » وهي المربّى عامة ، أو أي طعام مصنوع من عدة أشياء .

(٣) دمية القصر : ١/٦٧٣ .

(٤) دمية القصر : ٢ / رقم ١٨١ .

# الفصل الثالث

# الشكل

مما لا مرية فيه أن شعراء هذه المرحلة التاريخية لا يقلّون عن سابقيهم من حيث استخدامُ الصور البيانية ، ولا من حيث الصنعة البديعية ، بل يزيدون ويشتطّون ، ليكون أسلوبهم تمهيداً فصيحاً لعصر العثمانيين ، ونسميه « الانحطاط » .

ثم إنهم لا تنقصهم **اللغة** غالباً ، فعددٌ منهم علماء باللغة ، وأعلام في النحو والصرف والنقد والبلاغة . إلا أن الذي يفتقرون إليه – ولا ريب – هو تلك التي تُحيي الشعر ، ونعني بها **الشاعرية** ، والذي ينقّي النثر وهو **التذوق**. ولهذا نراهم يُضيعون حصيدتهم اللغوية في بحثهم عن الشاعرية « المفقودة » ، ويُفقدون « نكهة » الموضوع بتصنّعهم وسجعهم الزائدين . ومن هنا ننطلق في تسميتنا لهذه المرحلة بأنها تمهيد لعصر الانحطاط التركي – مستثنين من ذلك أدب الجهاد ضد الصليبيين ، وأدب عصر المماليك .

والدليل على **البراعة اللغوية** أننا نجدهم يُلبسون كل غرض – غالباً – ثوبه اللغوي المناسب . فالرقة موجودة ، والصنعة موجودة – وقد لمسناهما –

وكذلك الألفاظ الحوشية الثقيلة على السمع إلى جانب المفردات الناعمة المتراقصة. ثم نراهم يستخدمون الألفاظ العلمية في مكانها الملائم. ولكن هـــذه المقدرة ضاعت أمام فقدان « الشاعرية » و « التذوق » ، وتجاه زحمة الألفاظ العامية والبذيئة والدخيلة بغير مناسب ، والمدسوسة في غير موضعها. وهم يعرفون – وهذا برهان آخر – أن المديح والفخر يجب أن يُكسَيا بألفاظ رصينة ومتينة، وأن الفجور يحتاج إلى تورية وعامية وتلاعب ودخيل ، وهكذا.

ولكن الحديث عن البراعة اللغوية ، والمتانة الأسلوبية لا ينتهيان عنـد هذا الحدّ ، فلكل اقليم ثوبُه ، ولكل أرض نبت أسلوبي خاص ، تؤثر فيه عوامل كثيرة منها البيئية ، ومنها الثقافية . وقد تنبّه العماد الاصفهاني إلى ذلك ، فحلـّل ، موفـّقاً ، الفرق بين أسلوب الشاميين والعراقيين ، ولكن بأسلوب مسجوع مصنوع ، نقتطف من قوله :

« وشعر الشاميين أصحّ وزناً ، وأسحُ مُزنـاً ، وأمتن صيغةً ، وأحسن صبغة ، وأحكم مبنى . فإن العراقيين بغاية لطفهم ، ونهاية ظرفهم ، غلبت الرقة على كلامهم حتى اعتلّ نسيمُ نسيبهم ، وانـْماعت في ماء اللطف صناعةُ ترتيبهم وتهذيبهم ، فكأن نظمهم روح بلا شبح ، وراح بلا قدح ».

ثم يقول : « ... لكن الطبع للعرب أغلب ، والنبع من الغَرَب أصوب وأحلب ، والعراق أعرب وأعرق ، والشام أغرب وأغرق ، وفضلاء الاقليمين أعيان ، وملء قلائدهم درّ وعقيان ، وحَشو فرائدهم لؤلؤ ومرجان »(١) .

ومن علائم الصنعة الأسلوبية **التلاعب اللفظي** ، وتأتي هذه بالقلب حيناً ، كقول أبي القاسم البارع :

---

(١) خريدة القصر ، بداية قسم شعراء الشام : ٥ – ٦ .

قمرٌ سبى قلبي بعقربِ صُدغِه لما تجلّى عنه قلبُ العقربِ[1]

وبالألغاز والأحاجي حيناً آخر ، كقول أبي عامر النسوي :

ما نابتٌ مُستنبَتٌ مُسترزِقٌ منه فئَهْ ؟
خبّأتُه في واحـدٍ ممّا اسمُه منهُ مِئه[2]

والأحجيّة صعبـة ، وذلك أنه يعني « السّذاب » ، وهو نوع من النباتات يستعمل في الدواء . وفكّ الأحجيّة أن الكلمة « سُذاب » مؤلفة من « سَد » بمعنى مئة ، و « آب » بمعنى ماء ، فالشعر عربي والأحجية فارسية .

وهم لا يهمّهم أن يركّ الأسلوب إذا جاء من وراء ذلك أحجية تجذب الأسماع وتلاعب الأذهان . وقد ينظمون القطعة كلها بسبب لفظة اكتشفوا بها فكاهة . وتحسن الإشارة إلى أنهم أكثروا من هذا اللون الفني، إلا أنهم لم يُكثروا من الالغاز نفسه . وقد تكون أحجيّتهم مُنصَبّة على اسمٍ ، من ذلك قول أحمد بن أبي القصري يُعمّي اسم « ناصر » :

اسمُ مَن أهواهُ يا مو لايَ مقلوبُ رُضابِـهْ
صحّفِ الحرفينِ منه وتأنّقْ في طِلابِـهْ
فإذا أنتَ ببـدرٍ يَتلالا في ثيابِـهْ[3]

---

(١) دمية القصر : ٢ /رقم٢٠٥ .
(٢) دمية القصر : ٦٤٣/١
(٣) دمية القصر : ٤٧٦/١

وتبدو الصنعة كذلك في استخدامهم **لزومَ ما لا يلزم في القافية** ، وهو فنّ عُرف به المعرّي ، ونُسب إليه. ولم ننس كذلك أنه من شعراء الفترة المعنيّة وإن كان في وادٍ آخر . ويدلّ الشاعر عادةً في هذا الفن على مقدرته اللغوية، وتمكُّنه من كشف الألفاظ المناسبة للرويّ والقافية ، كقول أبي مسلم الشيرازي :

عميدَ الملكِ ، زرتُ رفيعَ بابِكْ　　　وألحقني السُّرى بعُلا ركابِكْ
أجوبُ بجاهِك الفلواتِ ليلاً　　　وأمشي في الدُّجى بسنا سنابِكْ[1]

بل إنهم يزدادون تعلقـاً بالقافية ، ويأخذون بإلباسها ثوباً خشناً ، أو يُسلكونها مسلكاً وعراً ، بحيث أنهم يوردون كلمة واحدة مثل « لاقاني » في قطعة واحدة من عدة أبيات في ختام كل عجز ، وكل واحدة منها تحمل معنى خاصاً لها ومخالفة غيرها ، وهذا لعَمري بدءٌ لفشْوِ الشعر الشعبي الذي يعتمد في قافيته على ذلك ، وتمهيد لتوسع ذلك فيما بعد .

وساقهم فشوُ الصنعة والاستخفاف إلى الإكثـار من **الألفاظ العامية** . ولم يكن ورودها في شعرهم دليلاً على ضعفهم الأسلوبي . فهم ، كما ذكرنا ، أُوتوا مقدرةً لغوية ، ولكنها جاءت تعبيراً عن الاستهتار بالقيم ، وميلاً إلى شعبية الأداء . وقد تكرّرت العامية في شعر الفحش خاصة ، ويتلوها في الكثرة الغزل ، لأنهما يقالان عادةً في مقام غير ذي احترام . والغريب في الأمر أننا عثرنا على ألفاظ عامية في مجالات لا يسمحُ المقامُ بذكرها كوصف الأطلال عند قيس العامري :

وعُوجا على طللٍ داثرٍ　　　لريّا ، وأينَ من العينِ ريّا ؟

---

(١) دمية القصر : ١/٤٨٦ .

معاهدُ لم يُبقِ صرفُ الزما　　نِ منها ومني إلا « شُوَيّاه »[1]

ومما يلفت النظر في أسلوبهم ميلهم إلى **الحوار والأسلوب القصصي**، وهذه الخصيصة ترفع من مستوى شعرهم قليلاً، لأن الحوار يخلق روحاً ثانية في الشعر، ويُضفي عليه شيئاً من الحيوية والجاذبية ، وينقلنا الأسلوب القصصي إلى المشاركة الوجدانية طواعية ، ويُدخل في أذن السامع تقبُّلاً وتلاؤماً . وكتب المجموعات الشعرية والموسوعات الأدبية والتاريخية زاخرة بأمثال القصص الشعرية . وقد اخترنا قطعة تمثّل هذه الخصيصة ، وتمتاز بكثرة استخدامهم **الألفاظ العلمية** والفقهية ، والقطعة للشاعر عبد الوهاب بن علي ( وهو من الأئمة ) :

ونائمةٍ قبَّلتُها فتنبّهتْ　　فقالت: تعالَوا واطلبوا اللص بالحدّ

فقلتُ لها: إني، فديتكِ ، غاصبٌ　　وما حكموا في غاصب بسوى الردّ

خذيها ، وكُفّي عن أثيمٍ طِلابةً　　وإن أنتِ لم ترضي فألفاً على العدّ

فقالت : قِصاصٌ يشهد العقل أنه　　على كبدِ الجاني ألذّ من الشهدِ

فباتت يميني وهي هميانُ خصرها　　وباتت يساري وهي واسطة العقدِ

فقالت : ألم تخبَّر بأنك زاهدٌ ؟　　فقلت: بلى ،ما زلتُ أزهدُ في الزهدِ[2]

ولكنهم لم يبلغوا شأو شعراء الغزل العذري أو شعر عمر بن أبي ربيعة أو

---

(١) دمية القصر : ٧٦/١ .
(٢) البداية والنهاية : ٣٣/١٢ .

خمريات أبي نواس . والأسلوب القصصي – وهو جزء من الحوار – لمّا وجدوهُ عند غيرهم رائجاً وأعجبهم ، جعلوه من ميزاتهم في هذا العصر ، ويكثر في باب الغزل خاصة ، كقصة اختلاس قـُبلة سرقها أبو جعفر البحاثي من محبوبه. ونلحظ التعابير النفسية من وراء المحاورة ، ومن العتاب من جرّاءِ التقبيل على عجل ، وبسبب العلامة الزرقاء التي خلـفها :

تورَّدتْ وجنتـــاهُ من خجل     وقال : قبَّلتني على عجـــلِ !
فخلِّ عني ، فإنّ في شفَتي     علامــةً من تواتُرِ القُبـــلِ
فلو رأى والدي علامتَهـــا     حُرمتَ ،ماعشتَ،عذبَ مُقتَبلي[1]

وقد يكون الأسلوب القصصي تلميحاً لقصة مشهورة يوردها الشاعر على سبيل التشبيه والمثال ، كقول الكافي العماني :

تريدُ تلافي الأمرِ بعدَ فَوتِـــه     ولوشئتَ كان الصعبُ منهُ يهونُ
كبلهاءِ قومٍ حين بلَّتْ طحينَهـا     بدَتْ تنخُلُ المبلولَ وهْوَ عجينُ![2]

**ومنهج المنطقيين** – وهو جديد – نلمسه لدى شعراء العصر المعْني أحياناً، دون أن نجد ميلاً إلى الاتجـاه الفلسفي في النظم . فالحوار الذي كانوا يُجرونـَه على ألسنة بعضهم ينمُّ – فيما ينمُّ – على حب المنـاقشة ، وهي جزء من المنطق ، وعلى أسلوب القياس – كما وجدنا في القصة السابقة – وهو الذي يطغى كثيراً . وها هو الباخرزي يعلـّل مسألة « حمل العصا » ، وكأنه معلم المنطق يبرهن على

---

(١) دمية القصر : ٢ / رقم١٩٤
(٢) دمية القصر : ١/١٢٥

نظرية بديهية :

حمــلُ العصا للمبُتلى بالشيب عنوانُ البِلى
وُصِفَ المسافرُ أنـه ألقى العصا كي ينزِلا
فعلى القياس سبيلُ مَن حملَ العصا أن يرحلا[1]

**أما الألفاظ الفارسية** فالحديث عنها يطول ، لأن الشاعر « المشرقيّ » يسعى إلى بذرها في كل مجال، لأنها كانت لغةَ دينه وأدبه بعد العربية . هذه الألفاظ ، منها ما هو معروف ومعرّب ، ومنهـا – وهو أكثره – ما لم يمرّ قبلاً . ولم لا ؟ وأغلبهم فرس ، وذوو لسانين ، وبارعون في لغتهم الأصلية ، أو قـُل يريدون التنطّع بها . فعدا عن أنهم ترجموا ، فإنهم أوردوا سيلاً منها في أشعارهم كـ : البخت ، الشوذنيق ، الشاهين ، الصولجان ، الزبرجد ، الدهمذا ... إلى غير ذلك من أسماءٍ للازهار أو الأطيار أو الأحجار ( الكريمة منها وأحجار اللعب ) ، ناهيك عن تراكيب كاملة .

**أما الوجوه البلاغية** فهي الطاغية على أدبهم نثراً وشعراً . وهي ، بالتالي ، من خصائص العصر الرئيسة . فالطباق والجناس والتورية والابهـام والاستعارة والتشابيه والتضامين والاقتباسات أمورٌ وجودُها في كل قصيدة، بل في كل بيت، بديهي . أليس استخدام هذه الوجوه دليلاً على مقدرة لغوية وثقافـة وسيعة ؟ وهم لا يريدون إلا إظهارَ براعتهم، فليكثروا منها. ولن يحيجنا البحث والتقصّي عن نماذج لهــذه الوجوه فهي مبذولة ، ويكفي أن يعود المطالع إلى النصوص المعروضة في الكتاب ليرى بنفسه كثرَتها . ولا مانع من أن نستعرض بعض هذه الوجوه كقول الاصفهدوسْت الديلمي في أحد **تشابيهه** :

---

(١) ديوان الباخرزي : .

ودنا الثريّا للمغيبِ كأنهـا    بددُ اللآلىءِ نُضّدتْ لنظامِ

ومن **الطباق** قول أبي غالب الراوستاني :

يَقَرُّ بعيني أن يـدومَ ليَ الهوى
وإن كانَ فيـهِ لَوعتي وعنائي
فإن شئتَ فانفعْني وان شئتَ ضُرَّني
فلستُ بسالٍ عنكَ طولَ بقـائي

ومن **الجناس** قول أبي الفتح الاصفهاني :

فـلِمْ خيَّبتَ ظني فيكَ لمّا    أردتَ نقيضةً فأتتْ نقيصَهْ

ومن **الابهام** قول كامل المُنتقفي :

إنسانةُ الحيِّ أم أُدمانةُ السَّمُرِ    بالنُّهي رقَّصها لحنٌ من الوترِ ؟[1]

ومن **التضمين** قولُ أبي نصر المهلّبي :

« للهِ درُّ عصابةٍ نامتُهم »    كانوا عصارةَ هذهِ الأَعصار

وهو صدر بيت لحسان ، وعجزه : يوماً بجلّقَ في الزمانِ الأولِ .

ومن **الكناية** قول أبي سعد بن دوسْت في الأمير أحمد الميكالي :

حسدوهُ إذ لم يدركوا مسعاتَهُ    لمّا ابتنى دهليزَ بابِ الآخره

(١) الأدمانة : صفة لمن كانَ لون بشرتها مشرّباً بياضاً أو سواداً . السمر : أعواد الرماح . النهي : غدير أو رحبة .

ولكن الأمرَ الذي يوقفنا هنا هو **اقتباسهم** الفائض من القرآن الكريم ، في كل مجال ، دون أن يتورّعوا أن يكون ذلك في شعر الفحش نفسه ، كاقتباس الباخرزي الآية : « وحملناهم على جارية » ، بقوله :

يا خالقَ الخلق حملتَ الورى، لمـــا طغى الماء ، على جاريه
وعبدُك الآن طغى مـــاؤُه في الصُّلب ، فاحمله على « جاريه »

وهذا يبرهن على المدى الذي بلغوه في الاستهتار بالقيم ، والاستخفاف بجليل الأمور .

# الأوزان والقوافي

لم يخالف جميع الشعراء تقريباً العروض المعروف في عصرهم ، ولعل نظرة واحدة إلى النماذج الشعرية التي عرضت في كتابنا هذا لتكون برهاناً ، على أنهم لم يتقيدوا ببحر من الأبحر العروضية ، ولم يخرجوا على أعاريض واحد منها ، ولم يتهرّبوا من الأبحر ؛ طويلها وقصيرها ، مجزوئها ومشطورها ، حتى الرباعيات. غير أن بعض الشعراء كان يغير قليلاً من الأوزان ، ويتصرّف فيها ويوزعها توزعاً يشبه الموشحات . وقد صنع الشعراء ذلك من أجل الغناء ، فالشاعر صفي الدين أبو القاسم يحيى بن جعفر قال يمدح المستضيء بأمر الله :

جودُ الإمام المستضيء غمامةٌ للمجتدي    تُروى بها آمالُهُ
مُنح الورى منه بأبلجَ في الشدائد مُنجدِ    معدومةٌ أمثالُهُ
إن الخليقة بالخليفة في المكارم تقتدي    فدليلُها أفعالُهُ (١)

ولولا أن الشاعر اتخذ روياً خاصاً هو الدال لأمكننا اعتبار الأبيات من البحر الكامل المجزوء ، ولكنه فصلَ فصلاً موسيقياً .

شاعر آخر هو الطغرائي وزع قطعة مدحية توزيعاً موسيقياً ، كما فعل أبو القاسم ، فقال :

---

(١) خريدة العراق : ١/١٩٦ .

يا أيهـــا المولى الذي اصطنع الورى    شرقـــاً وغربا
والمستعـــانُ على الزمان إذا اعترى    وأجـــدَّ حربا
أقسمتُ بالبزَّلِ النوافخ في البرى    قوداً وقبـــا
لقد ابتنيتَ الملكَ مرفوعَ الذرى    بـك مستتبـــا
وضمنت للدنيـــا وما فيهـــا القرى    وكشفت جدبا[1]

شاعر آخر حاول نظم بعض قصائده على بحر « السلسلة »، وهو أحد الأبحر السبعة التي أحدثت في أوزان الشعر[2]، والشاعر هو حمزة بن علي :

هل تأمنُ يُبقي لك الخليطُ إذا بانْ
للهمِّ فؤاداً وللمدامعِ أجفانْ[3]

وتقطيعه : فعلن فعلاتن منفعلن فعلاتان .

غير أن هـذه التجديدات في الشكل لم تكن كثيرة بالنسبة لمحاولتهم على المنهج القديم الكلاسيكي . ومقدرتهم اللغوية سدّت مسألة النقص العروضي ، لذا فإنهم قلما لجأوا إلى الزحافات والضرورات . كما لم يحاولوا الخروج عن التزام القافية الواحدة أو الخروج عن التقليد فيها ، إلا مَن لم يكن منهم على معرفة

---

(١) ديوان الطغرائي : ١٥ .

(٢) الأبحر السبعة المستحدثة هي : السلسلة ، الدوبَيْت ، القوما ، الموشح ، الزجل ، كان كان ، المواليا .

(٣) معجم الأدباء : ١١/٥ . ذكر صاحب حاشية المعجم أن وزن البيت هو : مستفعلن فاعلن مفاعلتن فل .

بها ، وهذا نادر جداً .

وهم إذا لم يتذمّروا من العروض والقافية ، فإنهم لم يفكروا بالتجديد أصلاً. ولمَ يفعلون ؟ وهدفهم تقليد القدمـــاء . وإذا عبنا عليهم تقليدهم القدماء في المضمون ، فإننا أحسنّا هذا التقليد في العروض، فجاء على الأقل سليم الهيكل. والشاعر أثير الدين إذا ادعى أنه لصّ القوافي والشعر فإنما يقدم ادعاءَه بشعر موزون من البحر الخفيف ، فيقول :

قلتُ شعراً ، قالوا : بغير عروضٍ ناقصٌ ، والعروض بالميزانِ
قلتُ : إني لصُّ القوافي ، وديوا نيَ من شعر كل ذي ديوانِ
أسرق الشعر لا بوزنٍ ، وما يُسـ ـرقُ إلا حرفٌ بلا ميزانِ (١)

كما أنهم نظموا العديد من قصائدهم على روي شعراء غيرهم ، ويعترفون بذلك. قال الطغرائي يمدح السعيد نظام الملك على روي قصيدة ابن هانيء والتي مطلعها :

أقولُ دُمى وهي الحسانُ الرعابيبُ ومن دون أستار القبابِ محاريبُ (٢)

قال الطغرائي :

لمن في عراض البيض نوق مطاريبُ يدربها رجع الحداء أعاريبُ
بسل وأطراف القنا قد تردَّعت من الدم والمسك الذكيّ الأنابيب
عليها هلال من هلال ابن عامرٍ به يهتدي جنحَ الظلام الأراكيب (٣)

(١) خريدة العراق : ١/١٥٤ .
(٢) ديوان ابن هانيء الأندلسي : ٢١
(٣) ديوان الطغرائي : ١٥

ثم إنهم نظموا القصائد الطويلة والقصيرة والقطع والأبيات المفردة ، وذلك حسب الحاجة . وإذا وجدنا قطعاً أو مجزوءات أو مشطّرات فليس لأن نفَسهم الشعري ضيق ، إنما لأنهم نظروا إلى الموضوع وقدّروا ، بنظـــارهم ، مدى احتياجه . ولأنهم كانوا ينظمون للغناء والإنشاد في مجالسهم الخاصة والعامـة أحياناً .

# خاتمة المطاف

لقد كان الإنتاج من حيث الكمية غزيراً ، بشكل لم يسبق له مثيـــل ، ولا يصدق . فإذا استعرضنا المجموعات الأدبية للقرون: الرابع والخامس والسادس، وأخذنا بعين الاعتبار المساحة الشاسعة التي شملتها صفحات هذه الكتب،ولم ننس أن السواد الأعظم من هؤلاء الأدباء هم من غير العرب وقفنا وقفة إكبار أمامهم. والأمر الجدير بالانتباه أن هؤلاء ليسوا كلهم شعراء ، بـل هم أفاضل العصر في الإدارة والعلم والسياسة والامارة، جرّبوا حظهم بالشعر والنثر، فجمع المؤرخون هذه التجارب ، فكانت هذه الكتب الممتلئة بالمنظوم والمنثور ، بالإضافـة إلى الدواوين والكتب الأدبية الخاصة .

ومع أن هذه الفترة فترة انهيـــار شخصية الشاعر المتأثرة بالدوافع التي عصفت به ، فإننا لا نرى شعراء انحطّوا إلى دركات الوهن والعدم ، ولا بلغوا درجة الأعلام كالمولـّدَين : بشار وأبي نواس ، والطائيين : أبي تمام والبحتري. والذي حدا بالشعر لأن يقف على الصراط الرفيع بين الانهيار والعلاء :

أ – ظاهرة الإنتاج الضخم الذي غطى البراعة الفائقة ببرقع الكثرة .

ب – ضعف الصلة بين الحاكم والمحكوم ، ومحاولة الشاعر أن يقف على ساقيه الضعيفتين وحده لأول مرة ، ويقدم أغراضاً شعرية ذاتية .

ج – انعدام شخصية الخليفة العربي ، أو انعدام تشجيعه العلمي .

د – جهل الحكام السلاجقة الذين لم يعيروا الأدب أية التفاتة ، أو انشغالهم بالسياسة والفتوح عن الآداب ، باستثناء بعض الوزراء الفرس .

هـ – الاختلافات المذهبية التي شغلت الأذهان فترات متقطّعة من عمرهم .

و – فقر الشعب عامة والأدباء خاصة ، ما جعلهم يميلون إلى كسب العيش بالمهن أو الامتهان ليُقيموا أوَدهم ، وقد ساعد هـذا على ظهور بعض الأغراض الشعرية التي تبرز فيها شخصية الشاعر ، كالحنين إلى الوطن ، أو الابتهاج بنصر المسلمين ، أو الشكوى ، أو الحكمة ، أو ...

هذه الأمور هي التي خفّفت من كِفة الأدب . أما الأسباب التي حافظت على وزنه وعملت على ترجيح الكِفة ، ولم تُدنها من الانهيار فهي :

أ – رغبة الشعراء أنفسهم في التمسك بالقيم الفنيـة التي كانت لسابقيهم ، وحرصهم على إظهار قصائدهم بالمظهر اللائق من حيث الشكلُ والمضمون غالباً . فالتقليد كان خيراً لمستوى الأدب أكثر مما كان ضيراً .

ب – تعدّد البلاطات أثارَ ضجّة في حقـل الأدب ؛ فغدا كل أمير يشجع فئة ، بل يسرقُ بعضهم سرّاً أو علانية ، أو يجـبر الضعاف من الأمراء على التخلّي عن بعضهم كما كان يفعل الأمير محمود الغزنوي . وليس تعددُ البلاطات من علائم ضعف الأدب ، بل من حسناته . فقد كان سوق عكاظ واحد يكفي أدباء الجزيرة العربية في الزمان الأول ، ولما اتسع النطاق العربي وامتدّ ، انتقل جزء منه إلى « المِربد » .

وبعد حين زخرت بغدادُ بأسواق صغيرة بعد أن صارت العاصمةُ قِبلة أهلُ العلوم والفنون . ولمـا تشعّب الحكم العربي غرباً وشرقاً وشمالاً احتاج سوق الأدب إلى روافد وأسواق أصغر ، وأكثر اختصاصاً لنشر البضاعة الوافـدة . وبعد أن كانت كتب الأدب تؤلف حول أدباء عاشوا في البادية أو في الشام أو

العراق غدت الآن تُكتب حول أدباء جرجان واصفهان واستراباذ، حتى باخرز وبخارا . ثم عن أهل الأندلس والمغرب والفاطميين والحمدانيين والموحدين والمرابطين . بل اننا نجد كتب أدب تجمع حصيلة قرون أو أجيال . ولم تعُد صفحاتُ مجلدة واحدة تكفيها (كطبقات الجمحي) فاستعانت بمجلدات ومجلدات.

جـ - ابتداع البويهيين سنّةً اختيار من يولّونهم الأعمال عامةً سنة جميلة ، كان لها أجمل الأثر في إحياء الأدب ونشره بين طبقة المتعلّمين. تلك السنّة هي أنهم ما كانوا يستوزرون ولا يستكتبون ولا يستقضون إلا فحول الشعراء والكتّاب . لذا كان أبرع كتّاب هذا العهد وأئمتهم يعملون في دواوين البويهيين كابن العميد واسماعيل بن عباد . وجرى وزراؤهم على سنتهم في اصطناع أهل الادب ، واجتذابهم والإغداق عليهم .

وتبعهم في هذه السنّة السلاطين الأتراك بعد أن صارت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها . لذا نجد الموسوعات التي تضمّ نتاج العصر السلجوقي زاخرة بالوزراء والأمراء والكتاب والقضاة وأهل العلم .. حتى الخطاطين ، بالشعر والنثر . ولعل هذه السنّة كان لها فضل مشكور على تأليف الموسوعات التي تضم شتى العلوم التي من شأنها أن تخدم كتّاب الدواوين في العصر المملوكي .

د - لا شك أن جزءاً كبيراً من تدهور الوضع الأدبي في هذه الحقبة يقع على عاتق النقاد المعاصرين ، لأنهم تبعوا تغيُّر مفاهيم الفن، وتابعوا الضعف، وصفّقوا لأصحابه ، وأهملوا مناهج النقد الأصلي التي سلكها الأقدمون ، كما تهاونوا في مسألة الإبداع والشخصية الشعرية . فوزنوا الشعر بمقاييس صدئة ، فرفعوا ما حقّه الخفض ، وأخفضوا ما حقّه التقدير . بل إنهم طالبوا الشعراء بمزيدٍ من التكلف ، وكثير من « البهلوانيات » اللفظية . ويرجع سبب ذلك - فيما نحسب - إلى دخول الناقد بلاطَ الأمراء ، ووقوفه أمام السلطان ، وإلى قذف الثناء جُزافاً على ما يُلقى أمامه من مدح فيه أو قَدح في غيره ، إرضاءً للأمير . ثم

إنهم قرأوا شعر العلماء المصنوع ، وأسبغوا عليه أفضل الكلام وأعمّه تبعاً لمقامهم العلمي ، ممّا شجع هذه الطبقات على المضيّ في عصر موهبتهم الشعرية ، إذا كان عندهم شيء منها .

ثم خلف أولئك النقادَ نقادٌ آخرون، ساروا على منهج سابقيهم، وقلّدوهم بآرائهم ، وصفّقوا حيث صفقوا. وأصيبوا بعدوى التصفيق لكل ما يسمعون. فامتدّت بذلك مرحلة وهَن الموهبة . وضاع الشاعر أمام المحترف وخلفه الجمهور .

وإذا أنكر النقاد على أبي تمام يوماً مسألة الصنعة والاستعارة ، فإننا نكاد لا نجد قصيدة في هذا العصر إلا وهي تنوء بأحمالٍ ثقيلة من الاستعارات.. والنقاد بدورهم يشجعون أمثال هذه الأعمال ويعتبرونها أُسّاً من أسس البراعة .

« وحمداً لله »

# الفهارس العامة

# معجم الأعلام

ورد في ثنايا الكتاب عدد كثير من الأعلام ، وتكررها يقتضي ذكر الواحد منها عدة مرات. ولهذا آثرنا ترجمتها مرة واحدة في خاتمة الكتاب ، ليسهل على المطالع معرفة هذا العلم. وقد ذكرنا هنا ما أمكننا التعريف به، وأغفلنا المشهور جداً ، أو المجهول الذي لا ترجمة مهمة له. وقد وضعنا الاسم كما ورد في الكتاب .

**ابن بشران :** هو محمد بن أحمد بن سهل النحوي الواسطي . كان عالماً بالأدب ، ولد سنة ٣٨٠ وتوفي ٤٦٢ .

( البداية والنهاية : ١٢/١٠٠ )

**ابن البواب :** هو علي بن هلال أبو الحسن ابن البواب . خطه أوضح من خط ابن مقلة . كان أبوه بواباً لدى الأمراء فنسب إليه . توفي سنة ٤٢٣ .

( البداية والنهاية : ١٢/١٤ – وفيات الأعيان )

**ابن التعاويذي :** هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله الكاتب المعروف بسبط بن التعاويذي . كان أبوه مولى لبني المظفر . وقد نسب إلى جده لأنه كفله صغيراً ونشأ في حجره . اشتغل كاتباً في بعض الدواوين حتى عمي في

آخر عمره . وله في عماه أشعار كثيرة . ولد سنة ٤٧٦ بالكرخ وتوفي سنة ٥٥٣ .

( مقدمة ديوانه – وفيات الأعيان : ٣٩٤/٢ )

**ابن الخياط** : هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي.. التغلبي ، المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب . ولد بدمشق ونشأ بها، حيث كانت تثور على حكامها التابعين للفاطميين . ثم انتقل إلى حماة وبعدها إلى حلب وغير ذلك من مدن الشام ، ثم عاد إلى دمشق حيث توفي سنة ٥١٧ . شغل منصب كاتب الانشاء لدى أمير الشام ، وشعره مطبوع، جزل الألفاظ.

( مقدمة الديوان )

**ابن الحجاج** : هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد .. ابن الحجاج . كاتب شاعر مشهور في عصر الدولة البويهية . عرف شعره بالمجون والخلاعة والسخف . تولى حسبة بغداد مدة . توفي في قرية على نهر الفرات سنة ٣٩١ .

( معجم الأدباء : ٢٠٦/٩ – وفيات الأعيان : ١٥٥/١ )

**ابن الدويدة** : هو أبو الحسن أحمد بن محمد المعري المعروف بابن الدويدة والملقب بالقاق. شاعر شامي من شعراء القرن الخامس الهجري ، وكان يتكسب بالشعر في بلاط المرداسيين أصحاب حلب .

( دائرة المعارف )

**ابن الشبلي** : هو محمد بن الحسين بن عبد الله بن . . الشبلي ، أبو علي الشاعر البغدادي . اشتغل بالحديث وله شعر رائق . توفي سنة ٤٧٣ .

( البداية والنهاية : ١٢١/١٢ )

**ابن الشجري :** انظر الكتاب ص ١٢٣ .

**ابن الصباغ الشافعي :** هو أبو نصر عبد السيد محمد بن الصباغ. ولاه نظام الملك رئاسة المدرسة النظامية سنة ٤٧٧هـ مدة يسيرة إلى أن وافق أبو اسحاق الشيرازي على استلام إدارتها .

( تاريخ الأدب العربي : ١٩٥/٣ )

**ابن ميادة :** هو أبو شرحبيل الرمّاح بن أبرد من بني سعد بن ذبيان من أهل نجد. كانت أمه صقلبية من أهل اسبانية. اشتهر بجماله ومغامراته مع النساء. أكثر شعره غزلي وهجائي . وقد حج وتاب في أواخر حكم يزيد بن عبد الملك . وظل حياً حتى خلافة المنصور . توفي سنة ١٤٩ هـ.

( الأغاني : ٢٦١/٢ )

**أبو اسحاق الشيرازي :** هو الشيخ أبو اسحاق جمال الدين ابراهيم الشيرازي . نشأ في شيراز ودرس الفقه على أبي عبد الله البيضاوي . تولى إدارة المدرسة النظامية مدة طويلة . وله شعر حسن وتآليف في الفقه .

( طبقات الشافعية : ٨٨/٣ )

**أبو بكر القُهستاني :** هو أحد الأدباء المشهورين من أهل خراسان. اتصل بالأمير محمد بن محمود الغزنوي . كان كريماً جواداً غير أنه قُدح بدينه لاشتغاله بالفلسفة . وله أشعار ورسائل . ينسب إلى قوهستان وهي المنطقة الجبلية .

( دمية القصر : ٧٧٨/٢ )

**أبو الحسن البلخي :** هو السيد العالم شرف السادة أبو الحسن محمد بن عبد الله الحسيني العلوي من أهل بلخ. قدم بغداد رسولاً من السلطان ألب أرسلان

إلى الامام القائم بالله ومدحه . له نظم ونثر .

( دمية القصر : ٢/٧٤١ – فوات الوفيات : ٤/٢١ )

**أبو سعد بن عبد المطلب :** هو أبو سعد محمد بن علي بن عبد المطلب ، اشتهر في عهد الخليفة المستظهر العباسي . عُرف شعره بالهجاء .

( خريدة القصر قسم العراق : ١٨٢ )

**أبو العطاء الجويني** : مؤرخ وأديب ألف تاريخ المغول ، وله شعر ، ويعد من الأدباء . وهو من أسرة إيرانية اشتهرت بخدمة السلاجقة والمغول في الأمور الإدارية .

( تاريخ جهانگشاي : ٢/١٩٨ )

**أبو الفتح البستي :** هو علي بن محمد بن الحسين بن عبدالعزيز الكاتب له شعر طبعه في بيروت ابراهيم بن علي الطرابلسي . ولد في بست وهي من بلاد كابل في افغانستان . خدم الدولة الغزنوية وخص خدمته بالأمير محمود . توفي سنة ٤٠١ .

( الأعلام )

**أبو الفضل المقدسي :** محمد بن طاهر بن علي بن أحمد أبو الفضل المقدسي الحافظ ولد سنة ٤٤٨ . كان يذهب مذهب الاباحية . وتوفي سنة ٥٠٧. ويقول السمعاني : ولعله تاب .

( البداية والنهاية : ١٢/١١٧ – الأنساب )

**أبو القاسم القشيري:** هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة النيسابوري القشيري ، أبو القاسم متصوف أشعري . اضطهده الحنابلة فردّ عليهم

برسالة مطولة . كانت إقامته في نيسابور وتوفي فيها سنة ٤٦٧ .
( كشف الظنون : ٥٢٠ )

**أبو المنيع قرواش** : هو الأمير قرواش بن المقلد ، عربي الأصل. قتله ابن أخيه أبو المكارم سنة ٤٤٤ . وله شعر .
( دمية القصر : ٤٩/١ )

**أثير الدين** : هو أبو جعفر عبد الله بن عميد الدين أبي شجاع ، ابن عم عضد الدولة البويهي . قابله العماد سنة ٥٦١ هـ وكان كاتباً في الديوان .
( خريدة القصر ، قسم العراق : ١٥٠/١ )

**الأديب الغزي** : هو أبو اسحاق ابراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي المعروف بالغزي. ولد في غزة من بلاد الشام سنة ٤٤١ ، ثم انتقل إلى العراق وخراسان واصفهان وكرمان . ومات في بلخ سنة ٥٢٤هـ. له شعر رائج في عصره ، وفضل في المنثور والمنظوم .
( خريدة القصر قسم الشام : ٣/١ – وفيات الأعيان : ٢٤/١ )

**الأنوري** : هو أوحد الدين محمد ، يعتبر من أعظم الشعراء المختصين بالمدح . توفي سنة ٥٨٣ هـ . عاش في عهد سنجر ، شعره دقيق ومعانيه جديدة .
( گنج سخن : ٣١٦/١ )

**بابا طاهر** : هو بابا طاهر عُريان الهمذاني ، من أكبر شعراء الرباعيات والأناشيد الشعبية الفارسية. كتب كل نتاجه باللهجة اللورية ورباعياته تخالف وزن الرباعيات المعروفة . توفي سنة ٤٤٧ هـ .
( تاريخ الأدب الفارسي : ٧١ )

**الباخرزي** : هو نور الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي الطيب ينسب إلى باخرز ، كان أبوه من أفاضل عصره ، وهو صاحب الكتاب المشهور « دمية القصر » . وله ديوان شعره مطبوع .
( الديوان )

**البردسيري** : هو أبو عبد الله محمد بن سعيد . شاعر خراساني متعفف . منسوب إلى بردسير وتقع قرب كرمان . اشتهر شعره بالزهد والموعظة .

( المحمدون : ٢/٤٦٢ – الأنساب : ٧٣ )

**بوشكور البلخي** : هو أحد الشعراء العظام في أوائل القرن الرابع الهجري ، عاش في الحقبة التي برز فيها الفردوسي ورودكي ، وعاصر الدولة السامانية . أهم آثاره المنظومة « كتاب الخلق » . امتاز شعره بالحكمة ووصف بعض الأمور الاجتماعية .

( گنج سخن : ١/٢١ )

**تميم بن المعز** : هو الأمير الفاطمي ، كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب . مال إلى الأدب ، ونظم الشعر الرقيق . لم يلِ الخلافة لأن ولاية العهد كانت لأخيه نزار . توفي بعد سنة ٣٧٤ .

( يتيمة الدهر : ١/٣٤٧ – مقدمة الديوان )

**التهامي** : هو أبو الحسن علي بن محمد التهامي ، من أهل الحجاز . رحل إلى الشام واتصل ببني الجراح ومدحهم ، ثم قدم مصر . غير أن رجال الحاكم بأمر الله قتلوه ، لأنه كان يحمل رسائل إلى بني قرة للثورة على الحكم الفاطمي . وهو شاعر فصيح الكلام ، محسن الشعر .

( البداية والنهاية : ١٢/١٩ – الديوان )

**الجواليقي** : انظر الكتاب صفحة : ١٢٣ .

**الجويني** : هو عبد الملك الجويني إمام الحرمين ، ولد بقرية قرب نيسابور ، واتبع مذهب الأشاعرة فأغضب الحكام ، مما اضطره الأمر إلى الهجرة إلى الحجاز حيث انشغل بالتعليم هناك . ولما أسس نظام الملك المدرسة

النظامية دعاه للتعليم فيها . اشتهرت مؤلفاته بالاتجاه الفقهي. توفي سنة ٤٧٨ هـ .

( دمية القصر : ٢/١٠٠٠ )

**الحافظ بن الفرضي :** هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الفرضي . سمع الكثير وجمع وصنف في التاريخ ، وهو من شعراء شمال افريقية . قتل على يد البربر سنة ٤٠٣ .

( البداية والنهاية : ١١/٣٥١ )

**الحريري :** هو صاحب المقامات الشهيرة ، وقد كتبها استجابة لأمر وزير السلاجقة ، وصاحب درة الغواص. ويعتبر أكثر الأدباء تكلفاً بأسلوبهم في عصره . ومع أن بديع الزمان الهمذاني صاحب الابتكار الأول للمقامات إلا أن الحريري لا يقل عنه شهرة . ولد بالبصرة سنة ٤٤٦ هـ وتوفي سنة ٥١٥ .

( الأعلام . النثر الفني )

**الحسن بن علي بن بَرَكة:** هو أبو محمد المقرىء النحوي الفرضي من ساكني الكرخ. توفي سنة ٥٨٢ هـ . كان فاضلاً . درس القرآن وبرع فيه .

( معجم الأدباء : ٩/٤٠ — بغية الدعاة : ٢٢٣ )

**حمزة بن علي :** هو أبو يعلى حمزة بن علي بن العين زَرَبيّ ، نسبة إلى «عين زربى» أديب وشاعر . قتل بإحدى معارك السلاجقة سنة ٥٥٠ هـ .

( معجم الأدباء : ١١/٥ )

**الحيص بيص :** الأمير الهمام شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد الصيفي التميمي من ولد أكثم بن صيفي . ذو جزالة وأصالة في الشعر . سمي

الحيص بيص لقوله للناس يوماً وكانوا في حركة. ما للناس في حيص بيص؟
كان شاعراً فاضلاً مدح الخلفــاء والوزراء والأكابر . وله ديوان شعر .
توفي في بغداد سنة ٥٧٤ .

( وفيات الأعيان : ١/٢٠٢ – طبقات الشافعية : ٤/٢٢١ )

**الخطيب التبريزي :** انظر الكتاب صفحة ١٢٣ .

**دبيس بن صدقة :** صاحب الحلة المزيدية ، كان جواداً كريماً وعنده معرفـــة بالأدب والشعر . تمكن في خلافة المسترشد ، واستولى على كثير من بلاد العراق . قتل سنة ٥٢٩ .

( وفيات الأعيان : ١/١٧٧ )

**دعبل الخزاعي :** هو دعبل بن علي الخزاعي من بني خزاعة . ولد بالكوفة ونشأ فيها يعاشر المجان والخلعاء ، ثم انتقل إلى بغداد ، وهناك درس الشعر على مسلم ابن الوليد . عمـــل على أسوان مدة . هجا العباسيين ، وتوفي بحدود ٢٤٦ هـ .

( تاريخ الأدب العربي : ٢/٢٨٦ )

**دقيقي :** هو أبو منصور محمد بن أحمد . شاعر زردشتي عاش في أواسط القرن الرابع الهجري . لقبه هذا نسبة إلى بيع الدقيق الذي تعاطاه آباؤه . اشتهر بمديحه للأمراء السامانيين ، وشعره رقيق عذب ، نظم ألف بيت من الشاهنامة التي أتمها الفردوسي .

( گنج سخن : ١/٢٦ )

**رضي الدين بن المطلب :** هو هبـة الله بن الحسن بن محمد بن الوزير ابن المطلب . ذو نوادر للخاصة وللعامة ، وخطه رائق ورسائله حسنة .

( خريدة العراق : ١/١٧٨ )

**رودكي :** هو أبو عبد الله جعفر بن محمد. شاعر كبير عاش في مطلع القرن الهجري الرابع . ولد في قرية « رودك » قرب سمرقند . يعتبر مؤسس الشعر الفارسي الجيد ، ولهذا عد أستاذ الشعراء . وهو شاعر أعمى منذ ولادته . خص أكثر شعره بالغزل وبمدح الأمير نصر بن أحمد الساماني ، توفي سنة ٣٢٩ .

( گنج سخن : ١/١ )

**الزمخشري :** انظر الكتاب صفحة ١٢٢ .

**الزوزني :** انظر الكتاب صفحة ١٢٢ .

**سعدي الشيرازي :** هو الشيخ مصلح الدين . شاعر ايراني من أهل شيراز . تعلم في نظامية بغداد ، تجول ثلاثين سنة في البلاد العربية ، وأسر لدى الصليبيين ، غير أن أحد التجار الحلبيين افتداه وزوجه ابنته . عاد في أخريات عمره إلى شيراز لينظم روضة الورد « گلشتان » والبستان . وله شعر بالعربية . توفي بحدود ٦٩١ هـ .

( المجموعة الفارسية : ١٨٠ )

**السمعاني :** انظر الكتاب ص ١٢٢ .

**صَرّدرّ :** هو أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب الشاعر المشهور قيل له صردر لأن أباه كان يلقب « صر بعر » لشحه . فلما نبغ ولده وأجاد في شعره قيل له : صردر . هجاه البياضي بلقبه .

( وفيات الأعيان : ٦٥/٣ — البداية والنهاية : ١٠٨/١٢ )

**الطغرائي :** هو العميد فخر الكتاب مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي . منسوب إلى « طغرة » وهي الطرّة التي تكتب في أعلى الرسائل . ولد

في اصفهان ، وبرع في الشعر والنثر والخط . خدم الملك ألب أرسلان السلجوقي ، وتوفي سنة ٥١٥ .

( تاريخ الأدب العربي : ٣/٢٣٢ )

**عبد العزيز الطبسي :** هو القاضي أبو القاسم عبد العزيز بن محمد ، من شعراء ذوي اللسانين .

( دمية القصر : ٢/١٤٦٧ )

**عبد القاهر الجرجاني :** انظر الكتاب صفحة ١٢٢ .

**عبد الله الأنصاري :** انظر الكتاب صفحة ١٢٣ .

**عبد الواسع الجبلي :** هو عبد الواسع بن عبد الجامع . شاعر فارسي ، اختص بمدح السلطان سنجر السلجوقي . له ديوان كبير مطبوع . توفي حوالي ٥٥٥ . امتاز شعره بكثرة الألفاظ العربية وعشقه لها .

( تاريخ أدبيات در ايران : ٢/٦٥٠ )

**عبد الوهاب بن علي :** هو عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد .. صاحب الرحبة التغلبي البغدادي أحد الأئمة المالكية ومصنفيهم . أقام ببغداد دهراً ، وولي قضاء داريا . خرج من بغداد لضيق حاله ، فدخل مصر فأكرمه المغاربة .

( البداية والنهاية : ١٢/٣٢ )

**العسجدي :** هو أبو نظر عبد العزيز بن منصور المروزي ، شاعر فارسي معروف. كان معاصراً للأمير محمود الغزنوي ومن مُداحه ، وله شعر في الغزل . يحكى أنه توفي سنة ٤١٦ .

( گنج سخن : ١/١٢٤ )

**علي بن محمد الصليحي :** هو أبو الحسين علي بن محمد القـــائم باليمن . كان أبوه قاضياً باليمن . وكان رأس الدولة الصليحية ، دعـا للمستنصر العبيدي صاحب مصر .

( بلوغ المرام : ٢٤ – وفيات الأعيان : ٣/٨٨ )

**علي بن محمد الكاتب :** هو علي بن محمـد بن الحسين بن يوسف الـكاتب ، مشهور بصنعته اللفظية في نظمه ونثره . توفي سنة ٤٠٣ .

( البداية والنهاية : ١١/٣٤٥ )

**علي بن المستظهر بالله :** هو أخو الخليفة العباسي المسترشد بالله .

**عماد الدين الكاتب :** هو محمد بن محمد بن حامد الـكاتب . ولد باصبهان ونشأ بها ، ثم قدم بغداد وتفقه على المذهب الشافعي . خرج إلى الشام ، وتولى الكتابة لصلاح الدين . وهو صاحب خريـــدة القصر وجريدة العصر . توفي سنة ٥٩٧ .

( خريدة القصر . مقدمة قسم العراق )

**عمر الخيام :** هو غياث الدين أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام أو الخيامي . ولد في نيسابور سنة ٤٠٣ . كان عالماً بالفلك والرياضيات وله فيهـــا مؤلفات بالعربية والفارسية ، غير أنه عرف برباعياته الفلسفية . توفي سنة ٥١٥ على الأغلب .

( المجموعة الفارسية : ١٧٥ )

**العنصري :** هو أبو القاسم حسن بن أحمد ، يعد أكبر شاعر في المديح في عصره ، وهو القرن الخامس . تأثر بأكبر الشعراء العرب كأبي تمام وأبي الطيب وقلدهم . اشتهر بنظم عدة قصص شعرية مثل : وامق وعذراء . كان

شاعر الدولة الغزنوية ؛ مدح نصر بن ناصر الدين أخا محمود الغزنوي ، كما مدح مسعوداً ابن محمود . توفي سنة ٤٣١ .

( گنج سخن : ١١٤ )

**فخر الدين الگرگاني** : كان معاصراً لطغرلبيك السلجوقي، لم يبق من نتاجه غير منظومته « ويس ورامين » . توفي بعد سنة ٤٤٦ هـ .

( گنج سخن : ١/١٥٠ )

**فرّخي** : هو فرخي بن جولوغ السيستاني ، كان غلاماً للأمير خلف بن أحمد الساماني . عاش في أوائل القرن الخامس الهجري ، واشتهر بالغزل والمديح بأرق الأساليب وأعذبها . انتقل إلى مديح الغزنويين ، وعاش في قصر الأمير محمود . توفي سنة ٤٢٩ .

( المجموعة الفارسية : ١٦٨ )

**الفردوسي** : هو أبو القاسم منصور بن حسن الفردوسي الطوسي . أمير شعراء الفرس بلا منازع . أثره العظيم « الشاهنامة » خلّده ، ورفع من قيمة الأدب الفارسي بعامة . وقد نظمها على البحر المتقارب بنيف وخمسين ألف بيت . عاصر الأمير محمود الغزنوي ، ومدحه في أول الأمر ثم هجاه ، وقصة ذلك مشهورة . توفي سنة ٤١١ .

( المجموعة الفارسية : ١٦٧ )

**فريد الدين العطار** : هو الشاعر الصوفي الإيراني، عاش في القرن السابع الهجري. زاره جلال الدين الرومي في نيسابور فقدّم له نسخة من منظومته الصوفية « أسرار نامه : كتاب الأسرار » . اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، ولعلها كانت سنة ٦٢٧ .

( تاريخ الأدب العربي : ٣/٦٣١ )

**قابوس بن وشمگير :** هو الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر وشمگير بن زيار ، أمير جرجان وبلاد الجبـل وطبرستان . وله شعر جيد وكتاب مطبوع اسمه « قابوسنامه : كتاب قابوس » . تسلم الامارة سنة ٣٨٨ ، وتوفي سنة ٤٠٣ .

( وفيات الأعيان : ٢٤٣/٣ – مقدمة قابوسنامه )

**الماوردي :** انظر الكتاب صفحة ١٢٣ .

**محمد العوفي :** هو الأديب محمد العوفي ، نشأ في خراسان وتعلم فيها، ولما اجتاحها المغول في أوائل القرن السابع هاجر إلى الهند . ألف كتابـه « لباب الألباب » لعين الملك حسين الأشعري وزير السلطان ناصر الدين قباجه. وكتابه ذو أهمية علمية كبيرة لأنه أول كتاب فيه تراجم شعرية فارسية وعربية على غرار يتيمة الدهر ودمية القصر .

( تاريخ أدبيات درايران : ٨٦٠/٢ )

**محمد بن فتوح :** الأزدي الحُميدي . أديب حافظ مؤرخ . أصله من قرطبة ، وله مؤلفات كثيرة في التاريخ والحديث . انتقل بعد زيارة الحجاز إلى العراق ودمشق واستوطن بغداد . توفي سنة ٤٨٨ .

( معجم الأدباء : ٢٨٣/١٨ )

**المستضيء بأمر الله :** هو الخليفة العباسي الثالث والثلاثون . خطب له بعـــد بغداد في اليمن ومصر . أمنت له البلاد ، لكنه خبا ذكره بعد ظهور صلاح الدين الأيوبي . أمه أرمنية ، توفي سنة ٥٧٦ .

( الكامل : حوادث السنة )

**منصور بن محمد الأزدي :** هو منصور بن القاضي أبي منصور الأزدي الهروي،

أبو أحمد قاضي هراة . كان فقيهاً شاعراً مجيداً كثير الفضائل ، عاصر القادر بالله ومات سنة ٤٤٠ .

( معجم الأدباء : ١٩/١٩١ )

**منوجهري :** هو أبو النجم أحمد بن قوص المنوجهري الدامغاني . من أبرز الشعراء المتأثرين بالأدب العربي ، ويسمى صنوبري العجم . ذو أسلوب عذب وغنائي . اشتهر بوصف الطبيعة الضاحكة . خص شعره بادىء الأمر بالأمير منوجهر بن قابوس ، ثم اتجه نحو السلطان مسعود الغزنوي. توفي سنة ٤٣٢ .

( المجموعة الفارسية : ١٧٠ )

**الميداني :** انظر الكتاب صفحة : ١٢٢ .

**ناصر خسرو :** هو أبو المعين ناصر بن خسرو القبادياني ، شاعر معروف في القرن الخامس الهجري . بعد أن زار الحجاز ، وعاد إلى الشام والقاهرة تقبّل المذهب الاسماعيلي ودعا إليه ، وعدّ من أقطابه . وبعد عودته إلى ايران اعتكف في قلعة « يمكان » بارشاد الاسماعيلية والتأليف لهم. من مؤلفاته : زاد المسافرين ، جامع الحكمتين ، كتاب السفر « سفر نامه ». توفي سنة ٤٨١ .

( المجموعة الفارسية : ٤٦١ )

**الواساني :** هو أبو القاسم الحسين بن حسن بن واسان الواساني الدمشقي. شاعر طويل النفس ، بارع في الهجاء ، فاحش القول . وهجاؤه ليهودي كان سبباً في عزله من منصبه . توفي سنة ٣٩٤ هـ.

( تاريخ الأدب العربي : ٢/٥٨٣ )

**الوطواط** : هو رشيد الدين محمد بن محمد العُمري الكاتب البلخي . يعتبر من أكبر الشعراء والكتاب من ذوي اللسانين. نشأ في خراسان وتعلم ، ثم رحل إلى خوارزم ليخدم في بلاط السلطان اتسز ، وترأس عنده ديوان الرسائل. كتابه « حدائق السحر » مشهور ، وله رسائل نثرية باللغتين ، وشعر رائق . توفي سنة ٥٧٣ هـ .

( گنج سخن : ١/٢٩٦ )

**الوليد بن يزيد** : هو الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني أمية في الشام ، انهمك في اللهو وقرض شعر المجون . ولما أراد تولية أحد ولديه ، وأمه أمة قُتل سنة ١٢٦ .

( تاريخ الطبري . حوادث السنة )

# فهرست المراجع والمصادر

## ١ – الكتب العربية المذكورة في الحواشي


١ – **اتعاظ الحنفاء** : أحمد بن علي المقريزي

القاهرة : ١٣٦٧ – ١٩٤٨

ص : ٨٢– ٨٥

٢ – **أحسن التقاسيم** : المقدسي ، ليدن – ١٣٢٤ – ١٩٠٦

ص : ٧١ – ٧٧ – ٨٦ – ٩٦ – ١٠٣

٣ – **الأدب الفارسي في العصر الغزنوي** : علي الشابي

تونس : ١٣٨٥ – ١٩٦٥

ص : ٩ – ٣٣ – ٩٢ – ٩٣

٤ – **الأغاني** : أبو الفرج الاصفهاني

ص : ٦٩ – ١١١

٥ – **البداية والنهاية** : الحافظ بن كثير

بيروت : ١٣٨٦ – ١٩٦٦

ص : ١٣١ – ١٥١– ١٥٤ – ١٧١ – ١٧٨ – ١٧٩– ٢٢٥–

٣٣٣ ٢٤٤ .

٦ - **تاريخ ابن خلدون** : المغرب : ١٣٥٥ - ١٩٣٦ .
ص : ٢٠ - ٢١ .

٧ - **تاريخ ابن عساكر** : دمشق : ١٣٢٩ - ٩٠٨ .
ص : ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٥٠ .

٨ - **تاريخ أخبار القرامطة**: ثابت بن سنان وابن العديم
دمشق : ١٣٩١ - ١٩٧١
ص : ٨٦ - ٨٧

٩ - **تاريخ الأدب العربي** : أحمد حسن الزيات - مصر
ص ١١٦

١٠ - **تاريخ الأدب في ايران** : براون . ترجمة الشواربي
مصر : ١٣٧٣ ١٩٥٤
ص : ٣٤ - ٣٦ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ -
٥١ - ٦٠ - ٦١ - ٨٠ - ٨٢ - ١١٧

١١ - **التاريخ البيزنطي ( أمال )** : سليم عادل عبدالحق
دمشق : ١٣٧٨ - ١٩٥٨
ص : ٢٥

١٢ - **تاريخ دولة آل سلجوق** : عماد الدين الاصفهاني
مصر : ١٣١٨ - ١٩٠٠
ص : ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٧٠

١٣ - **تاريخ سورية** : فيليب حتي
بيروت : ١٣٧٨ - ١٩٥٨
ص : ٢٢ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٨٥ - ٨٦

١٤ – **تاريخ الطبري** : مصر : ١٣٨٠ – ١٩٦٢
ص ٢٠ – ٢٤ – ٨٧

١٥ – **تاريخ العراق في العصر السلجوقي** : ياقوت بن عبد الله الرومي
بغداد ١٣٨٥ – ١٩٦٥
ص : ٣٩ – ٤٤ – ٤٧ – ١٢٠

١٦ – **تحفة النظار** : ابن بطوطة
مصر : ١٣٨٦ – ١٩٦٦
ص : ١١٩

١٧ – **الحضارة الاسلامية** : آدم ميتز
مصر : ١٣٦٦ – ١٩٤٧
ص : ٧١ – ٧٤ – ٩٦

١٨ – **خريدة القصر ( قسم الشام )** : العماد الاصفهاني
دمشق : ١٣٧٥ – ١٩٥٥
ص : ١٤٣ – ١٦٥ – ١٨١ – ١٨٧ – ٢٢٧ – ٢٤١

١٩ – **خريدة القصر ( قسم العراق)** : ص : ١٣٥ – ١٤٥ – ١٤٧ – ١٧١ – ١٨٢ – ١٨٨ – ١٩٨ – ١٩٩ –
٢٠٤ – ٢٠٨ – ٢٤٩ – ٢٥١

٢٠ – **خلاصة الذهب المسبوك** : عبد الرحمن الأربلّي – بغداد
ص : ٣٠ – ٤٤ – ٤٦ – ٤٧

٢١ – **دائرة المعارف ( عربية )** : ص : ٨٢

٢٢ – **دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين** : محمد كامل حسين
مصر : ١٣٧٧ – ١٩٥٧
ص : ٨٣

**٢٣ – دمية القصر وعصرة أهل العصر** : علي الباخرزي . تحقيق المؤلف
دمشق ١٣٩١ – ١٩٧١
ص : ٤٦ – ٤٨ – ١١٢ – ١٢٨ – ١٢٩ – ١٣١ – وحتى ١٤٣ –
١٤٥ وحتى ١٥٦ – ١٥٩ – ١٦٠ – ١٦١ وحتى ١٦٤ –
١٦٦ – ١٦٧ – ١٦٩ – ١٧٠ – ١٧١ – ١٧٣ وحتى
١٧٨ – ١٨٠ – ١٨٢ – ١٨٤ وحتى ١٨٧ – ١٩٠ – ١٩١ –
١٩٣ وحتى ٢٠٧ – ٢١٠ وحتى ٢١٤ – ٢١٦ وحتى
٢٢٠ – ٢٢٢ – ٢٢٣ – ٢٢٤ – ٢٢٦ – ٢٢٧ – ٢٢٩ –
٢٣٢ وحتى ٢٣٥ – ٢٣٧ – ٢٣٨ – ٢٣٩ – ٢٤٢
وحتى ٢٤٥ .

**٢٤ – ديوان ابن التعاويذي** : سبط بن التعاويذي . تصحيح مرجليوث
مصر : ١٣٢١ – ١٩٠٣
ص : ١١٥ – ١٣٩ – ١٨٠ – ٢١٨ – ٢٢٠ – ٢٣٦ – ٢٣٩

**٢٥ – ديوان ابن الخياط** : تحقيق خليل مردم
دمشق : ١٣٧٧ – ١٩٥٨
ص : ١٣٠ – ١٤٣

**٢٦ – ديوان ابن هانىء** : بيروت ١٣٧٢ – ١٩٥٢
ص : ٢٥١

**٢٧ – ديوان الباخرزي** : تحقيق المؤلف
بيروت ( منشورات جامعة بنغازي ) ١٣٩٣ – ١٩٧٣
ص : ١٢٧ – ١٤٩ – ١٦٤ – ٢٣١ – ٢٤٦

**٢٨ – ديوان البحتري** : بيروت – دار صادر
ص : ١٨٣

٢٩ – ديوان تميم بن المعز : مصر : ١٣٧٧ – ١٩٥٧
ص : ١٣٠ – ١٨٤

٣٠ – ديوان التهامي : دمشق : ١٣٨٤ – ١٩٦٤
ص: ١٣٢ – ١٤٦ – ١٧٢ – ١٧٣ – ١٨٦

٣١ – ديوان دعبل الخزاعي : بيروت : ١٣٨٢ – ١٩٦٢
ص : ١١١

٣٢ – ديوان الشريف الرضي : بيروت: ١٣٨٠ – ١٩٦١
ص : ١٥٧ – ١٦٨

٣٣ – ديوان الطغرائي : القسطنطينية : ١٣٠٠ – ١٨٨٢
ص : ١٣٠ – ١٥١ – ١٦١ – ١٦٢ – ١٦٧ – ١٧١ – ١٩٨ –
٢٥٠ – ٢٥١ .

٣٤ – ديوان المتنبي : بيروت (صادر)
ص : ١٧٣

٣٥ – ديوان مهيار الديلمي : مصر : ١٣٤٩ – ١٩٣٠
ص : ٢٣٠

٣٦ – راحة الصدور : محمد الراوندي
القاهرة : ١٣٧٩ – ١٩٦٠
ص : ٣٩ – ٤٠ – ٤١ – ٤٧ – ٤٩ – ٥١ – ١٠٨

٣٧ – رحلة ابن جبير : مصر : ١٣٧٤ – ١٩٥٥
ص : ١١٨

٣٨ – شرح المعلقات السبع : الزوزني
مصر : ١٣٨٠ – ١٩٦١
ص : ١٣٧

**٣٩ - صفحات عن ايران :** نشأة وحجازي

مصر : ١٣٨٠ - ١٩٦٠

ص : ٢٧ - ٢٨ - ٣٠ - ٣٣ - ١٠٤ - ١١٧ - ١٢١

**٤٠ - صورة الأرض :** أبو جعفر الخوارزمي

فينا : ١٣٤٥ - ١٩٢٦

ص : ٧٠ - ٩٦ - ٩٧

**٤١ - الفرق بين الفرق :** عبد القاهر البغدادي - مصر

ص : ٩٧

**٤٢ - فضائح الباطنية :** الامام الغزالي

ص : ٨٢ - ٨٨

**٤٣ - فوات الوفيات :** ابن شاكر الكتبي - مصر

ص : ١٣٩

**٤٤ - قرامطة العراق :** عبد الفتاح عليان

مصر : ١٣١٨ - ١٩٠٠

ص : ٨٥ - ٨٧ - ٨٨

**٤٥ - الكامل :** ابن الأثير

مصر : ١٣٠٣ - ١٨٨٥

ص : ٢٢ حتى ٢٥ - ٢٨ حتى ٣٦ - ٣٩ - ٤٢ حتى ٥٢ - ٥٥ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٧ - ٨٨ - ٩٥ - ١٠٦ - ١١٧ - ١١٨ .

**٤٦ - المجموعة الفارسية :** للمؤلف

دمشق ط ٣ : ١٣٨٩ - ١٩٦٩

ص : ٧٣ - ٧٤ - ٩٣ - ١١٥ - ٢١٥

٤٧ – **المختصر في أخبار البشر** : أبو الفداء
القاهرة : ١٣٢٥ – ١٩٠٧
ص : ٣٠

٤٨ – **مروج الذهب** : المسعودي
طبعة لبنان
ص : ٧٠

٤٩ – **المسالك والممالك** : ابراهيم الاصطخري الكرخي
مصر : ١٣٨١ – ١٩٦١
ص : ٢٧ – ٢٨ – ٩٦

٥٠ – **معجم الأدباء** : ياقوت الحموي – مصر
ص : ٤٨ – ٥٨ – ١٤٢ – ١٦٨ – ١٧٢ – ١٨٨ – ١٩٥ –
١٩٩ – ٢١٤ – ٢٢٥ – ٢٢٧ – ٢٣١ – ٢٥٠

٥١ – **معجم البلدان** : ياقوت الحموي – بيروت
ص : ٣٩ – ٤٢ – ٥٣ – ٥٤ – ١٨٧

٥٢ – **المعجم الذهبي** : للمؤلف
بيروت : ١٣٩٠ – ١٩٧٠
ص : ٥٢ – ١١٣

٥٣ – **المعرّب** : الجواليقي
مصر : ١٣٦١ – ١٩٤٢
ص : ١١٩

٥٤ – **الملل والنحل** : الشهرستاني
مصر : ١٣٢٠ – ١٩٠٢
ص : ٧٨ – ٩٧

٥٥ – **المنتظم** : ابن الجوزي
حيدر آباد : ١٣٥٨ – ١٩٣٩
ص : ٢٢ – ٢٣ – ٣٠ – ٣٤ – ٨٠ – ٨٥ – ٩٣

٥٦ – **النجوم الزاهرة** : ابن تغري بردي
مصر : ١٣٧٥ – ١٩٥٥
ص : ٥٤

٥٧ – **وفيات الأعيان** : ابن خلكان
مصر : ١٣٦٨ – ١٩٤٨
ص : ٢١ – ٥٣ – ٥٨ – ١٣٦ – ١٤١ – ١٥١ – ٢١٢

٥٨ – **يتيمة الدهر** : الثعالبي
مصر : ١٣٧٦ – ١٩٥٦
ص : ٢٦ – ٧٤ – ١٠٤

## ٢ - كتب عربية لم تذكر في الحواشي


**٥٩ - القرآن الكريم**

**٦٠ - آثار البلاد وأخبار العباد** : زكريا القزويني
بيروت ١٣٨٩-١٩٦٩

**٦١ - أساس البلاغة** : الزمخشري

**٦٢ - الألفاظ الفارسية المعربة** : إدّي شير
بيروت ١٣٢٦ - ١٩٠٨

**٦٣ - الأنساب** : السمعاني
ليدن : ١٣٣١ - ١٩١٢

**٦٤ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام** : تحقيق: رضوان محمد رضوان
مصر ١٣٥١-١٩٣٢

**٦٥ - تاج العروس** : مرتضى الزبيدي

**٦٦ - تاريخ آداب اللغة العربية** : جرجي زيدان
مصر : ١٣٢٩ - ١٩١١

**٦٧ - تاريخ الأدب العربي ج٣** : عمر فروخ
بيروت : ١٣٩٢-١٩٧٢

٦٨ – **تقويم البلدان** : عماد الدين اسماعيل – بغداد
٦٩ – **خلاصة الأثر** : المحبّي – بيروت .
٧٠ – **الروضتين** : شهاب الدين المقدسي
مصر : ١٣٧٦ – ١٩٥٦
٧١ – **كشف الظنون** : حاجي خليفة
مصر : ١٣٦٠ – ١٩٤١
٧٢ – **لسان العرب** : ابن منظور
٧٣ – **المحمدون من الشعراء** : علي القفطي
حيدر آباد : ١٣٨٦–١٩٦٦
٧٤ – **معجم المؤلفين** : عمر رضا كحالة – دمشق
٧٥ – **نهاية الأرب** : النويري – مصر

## ٣ - الكتب الفارسية

**٧٦ - تاريخ أدبيات در ايران** : ذبيح الله صفا
طهران : ١٣٣٩ هـ. ش.
ص : ١٩ - ٥٥ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٧ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ١٠٥ - ١١٧ - ١٢٠

**٧٧ - تاريخ بيهق** : بيهقي
ص : ٤٠ - ٧٢ - ١٠٥

**٧٨ - تاريخ جهانگشاي** : علاء الدين الجويني
لندن : ١٣٢٩ - ١٩١١
ص : ١١١

**٧٩ - تاريخ گزيده** : حمدالله المستوفي
كانتن
ص : ٨٩

**٨٠ - تجارب السلف** : هندو شاه بن سنجر
طهران : ١٣٤٤ هـ.ش.
ص : ٥٤ - ٦١ - ١٢٠

٨١ – **تذكرة الشعراء** : دولتشاه – طهران
ص : ٥٥

٨٢ – **ديوان لفت ترك** : القشكري – طهران
ص : ٣٨

٨٣ – **سياستنامه** : نظام الملك
طهران : ١٣٨٥–١٩٦٥
ص: ٣١– ٦٠ –٧٣– ٩٧

٨٤ – **فرهنگ آنندراج** : محمد پادشاه
طهران : ١٣٣٦ هـ.ش
ص : ٣٣ – ٣٨

٨٥ – **فرهنگ فارسي (معين)**: محمد معين
طهران : ١٣٤٢ هـ.ش
ص : ٣٠ – ٣٨ – ٥٥ – ١١٠ – ١٢١

٨٦ – **قابوسنامه** : قابوس وشمگير – طهران
ص : ٧٠

٨٧ – **مجلة الدراسات الأدبية** : بيروت
ص : ٥٣ – ١١٧ – ١١٩ – ١٢٠

٨٨ – **مجمع البيان** : طبرسي . تحقيق : كريمان
طهران : ١٣٤٠ هـ.ش
ص : ٤٠ – ٤٥

٨٩ – **مجمل التواريخ** : تصحيح : ملك الشعراء بهار – طهران
ص : ٧٣

**٩٠ – كليات تاريخ ايران ( أمال ) :** شيرين بياني

طهران : ١٣٤٤ هـ. ش

ص: ٢٩ – ٣٠ – ٣٢ – ٣٤ – ٣٩ – ٤٠ – ٤٨ –

٥٠ – ٥١ – ٥٢ – ٥٦

**٩١ – گنج سخن** : ذبيح الله صفا

طهران : ١٣٣٩ هـ. ش

**٩٢ – لباب الألباب** : محمد العوفي

طهران : ١٣٣٥ هـ. ش

ص : ٣٢ – ١٠٤ – ١٢٧

**٩٣ – وزارت در عهد سلاطين سلجوقي :** عباس اقبال

طهران : ١٣٢٨ هـ.ش

ص : ٣٨ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٧ – ٤٨ – ٥٠ – ٥٣

٥٤ – ٥٥ – ٥٦ – ٦٠ – ٦١ – ٦٢ – ٦٣

٦٤

## ٤ ـ الكتب الانكليزية :


94 - The Assassins, By : Bernard Lewis . London : 1967

95 - The Cambridge History of Iran . Volume : 5 .
By . J. A. Boyle. London : 1968
P : 53 - 55 - 77 - 78 - 79 - 81 - 85 - 91 - 93 - 95 .

96 - The Ghaznavides and Eastren Iran. By: C. F.
Bosworth . London. 1963
P : 27 - 28 - 29 - 32 - 33 - 58 - 59 - 67 - 68 - 71 - 75
78 - 80 - 84 - 95 - 106 - 107 - 108 .

97 - History of Islamic Peoples. by : Carl
Brockelman. London 1956 .
P : 21 - 23 - 26 - 27 - 34 - 42 - 43 - 45 - 50 - 52

98 - 28 - 87 - 89 - 90 - 92 - 108 - 1I1 - 115 - 115 - 121

99 - Lond Lord and Peasant In Persia. By : A. K.
Lambton . Oxford : 1953

100 - Aliterary History of Persia, B. : E. G. Browne .
Cambridge univesity Press : 1954 .
P : 106

101 - The Order of Assassins. by : M. Hodgson.

102 The Origins of Isma'ilism. by : B. Lewis.
Chaicago : 1955
P : 86 ,

103 - Persian - English Dictionary. by : F. Stingass
Beirut - New Impressing : 1970

104 - Pri - Ottoman Turkey. by : Claude Cahen
London : 1955
P : 11 - 14 - 38 - 40 - 121 .

105 - The Seljuks. by : Tamara Talbet Rice
London : 1961 .
P : 34-38-39 - 41- 43 - 45 - 46 - 47-49 - 50 - 5I-94-110

106 - Turkestar , Down to The Mongolinvasion.
by : w. Barthold. London : 1968

## ٥ ـ الكتب الفرنسية :

107 - Encyclopédie de L'islam .
P : 28 - 32 - 33 - 34 - 35 - 36 - 40 - 42 - 46 - 51 - 52 -
54 - 60 - 84 - 90 - 91 - 94 - 120 .

# محتوى الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|



الفصل الثالث ـ الشكل

( ٢٤٠ ـ ٢٥٢ )

الموضوع